

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية
Faculté des sciences humaines et des sciences islamiques

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية

قسم التاريخ و علم الآثار

عـــــامة الاندلس في العصر الموحـــــــدي

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي

من إعداد الطالبة: **تحت إشراف:**

مليكة عدالة **أ.د(ة) فاطمة بلهواري**

أعضـاء لجنــة المنــاقشة:

أ.د عبد القادر بوباية جـــــامعــة وهـــــــران-1- رئيســـا

أ.د(ة) فاطمة بلهواري جـــــامعــة وهـــــــران-1- مشرفا ومقررا

أ.د محمد بوركبة جـــــامعــة وهـــــــران-1- مناقشـــا

أ.د بلغيث محمد أمين جـــــامعــة الجـزائـر - 1 - مناقشـــا

أ.د شخوم السعـــدي جـــــامعــة سيـدي بلعبـاس مناقشـــا

أ.د(ة) نبيلة عبد الشكور جـــــامعــة الجـزائـر - 2 - مناقشـــا

السنة الجامعية: 1438 – 1439 هـ / 2017 – 2018 م


بسم الله الرَحمَن الرَحيم

كلمة شكر وتقدير

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أول الشكر وآخره أتقدم به إلى المنعم الباري عزّ وجل الله سبحانه وتعالى، الذي أحاطني برعايته الإلهية العظيمة، ويسّر لي كل عسير، وألهمني الصبر والقوة في شق طريقي نحو البحث العلمي.

وخالص الشكر ووافر الامتنان إلى الوالدين الكريمين، إلى من أنارا لي درب العلم والمعرفة والدي وزوجي القريبان إلى قلبي أرجو لهما دوام الصحة والعافية.

وأتوجه بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني إلى أستاذتي الفاضلة القديرة الدكتورة فاطمة بلهواري؛ لما أبدته من حسن رعاية ومساعدة علمية، وما قدمته لي من توجيهات ونصائح وملاحظات قيّمة؛ فدعائي لها بالخير والنجاح.

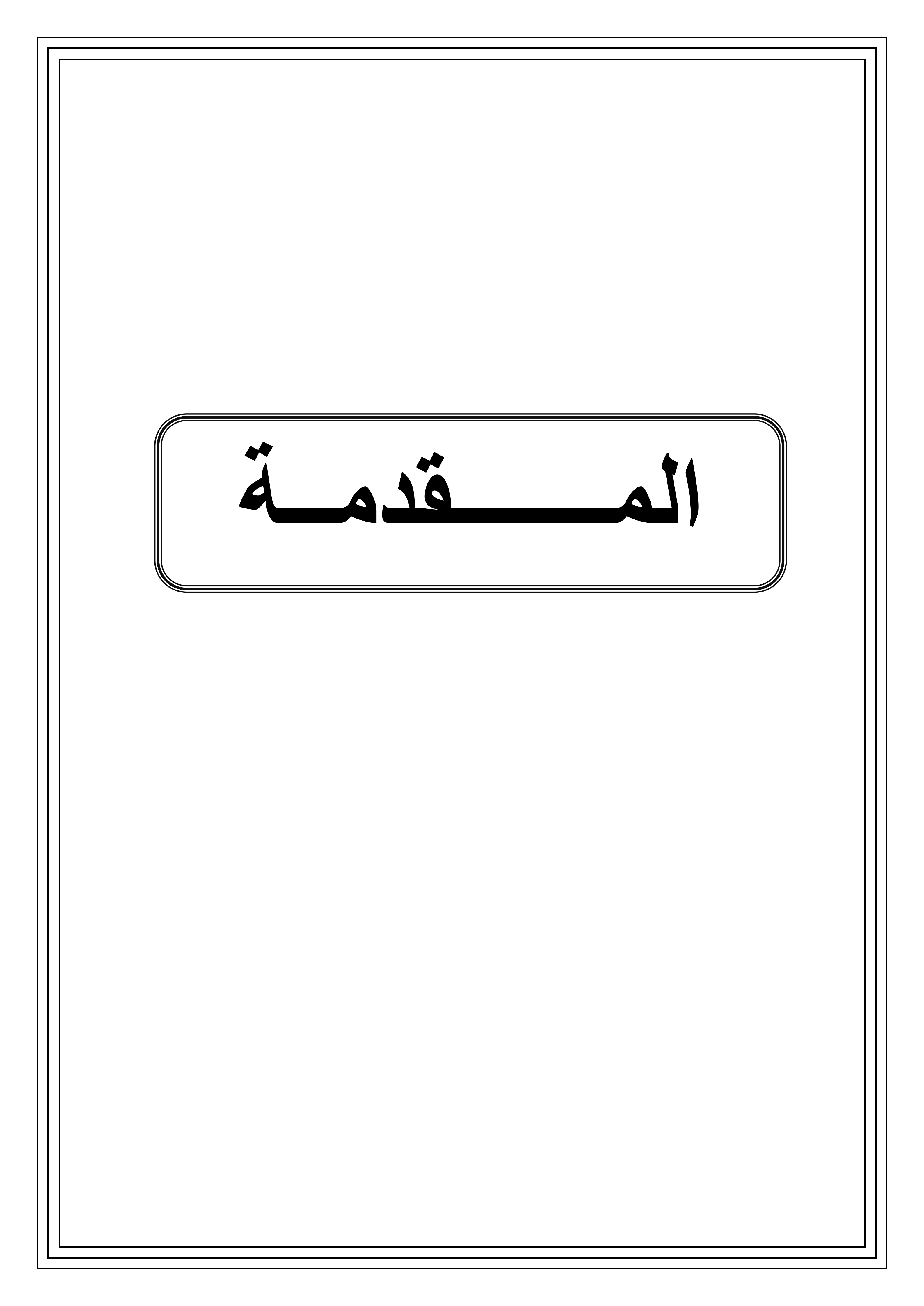
وتتسابق الكلمات وتتزاحم العبارات لتُنظّم عقد الشّكر الذي لا يستحقّه إلّا أساتذتي. إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة إلى جميع أساتذتنا الأفاضل في قسم التاريخ وعلم الآثار، الأستاذ الدكتور بوباية عبد القادر، إليكم يا من بذلتم ولم تنتظروا العطاء، إليكم أهدي عبارات الشّكر والتّقدير.

شكري الخاص إلى من عمل معي بكد بغية إتمام هذا العمل، إلى صديقتي الدكتورة بودالية تواتية، والدكتور حاكمي الحبيب، دون أن أنسى الأستاذ مقدور العيد.

وكذلك أشكر كل من ساعدني على إتمام هذا البحث من قريب أو بعيد، وقدم لي العون ومد لي يد المساعدة، وزودني بالمعلومات اللازمة لإتمام هذا البحث.

إلى الجميع شكرا جزيلا.

والحمد لله رب العالمين



المقدمة

تعد طبقة العامة من بين العناصر الاجتماعية التي تسترعي انتباه الباحثين، وتفتح ميدان البحث في التاريخ الاجتماعي، وتتحدد هوية هذه الطبقة من حيث التركيبة الإثنية والعرقية، ونمط العادات والتقاليد كمرجع مؤهل لتحديد العديد من المظاهر الاجتماعية التي أثرت على ذهنية وسلوك الإنسان في العصر الوسيط؛ و تاريخ الطبقة العامة لا يتشكل في نسق مغلق، نظرا للدور الحاسم الذي تمثله مختلف الفئات على عدة مستويات سواء تعلق الأمر بالحياة الفردية أو الأسرية أو الاقتصادية أو السياسية، لكنها فقدت حظوتها في سياق البحث الجديد، ولم يُسْبَر غورها بشكل عميق في الدراسات التاريخية، خاصة وأن هذا الموضوع يمثل حقيقة حوارا جدليا بين الرعية والسلطة الحاكمة، وبين الإنسان والطبيعة وتحديه للإفرازات السلوكية والذهنية.

وتمثل عامة الأندلس الأنموذج الأنسب للباحث في تاريخ عناصر المجتمع، حيث أثرت هذه الفئة في مختلف المجالات سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وحتى الثقافية. ومن هذا المنظور كان موضوع **"عامة الأندلس في العصر الموحدي"** عنوانا لدراسة طبقة العامة ضمن مقاربة تاريخية الهدف منها الكشف عن أهم القضايا المتعلقة بهذه الطبقة التي عاشت من حصاد جهدها وكابدت معاناة البناء والتشييد، وفي الواقع هي انطلاقة ذاتية لإزالة الغموض والقصور والتعتيم الذي اخترق حياة العامة، والبحث في أنماط سلوكياتها الاجتماعية، وما أفرزته من تمثلات ذهنية وأفكار غيبية لجأت إليها طبقة عريضة من العوام.

تعددت الدراسات والأبحاث التي رصدت تاريخ العوام في المغرب الإسلامي، ومن تلك الدراسات التي عالجت هذه الطبقة نذكر على سبيل المثال لا الحصر، دراسة الباحثة دلال لواتي عن **"عامة القيروان في العصر الأغلبي184-296هـ/800-908م"**[1]، وقد تبحرت الباحثة في مرحلة تاريخية جد مهمة لتكشف من خلالها عن الدور الاقتصادي للعوام، وواقعهم الاجتماعي وعلاقتهم بالسلطة بعد اطلاعها على كم هائل من المصادر التاريخية.

ووقف أحمد المحمودي عند **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي"**[2]، حيث عالج جوانب مهمة من حياة العامة في مجتمع المغرب الأقصى، كما أنّه نوّه إلى الضغط الذي مارسته السلطة الموحدية على العامة، مما أدى بها في العديد من المرات إلى القيام بثورات عليها، والوقوف في وجهها للتعبير عن واقعها المتأزم. ولم يستثن الباحث الأثر الاجتماعي والديني للتيار الصوفي الإصلاحي على العامة.

1-عامة القيروان في العصر الأغلبي، (184-296هـ/800-909م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة،2002

2- عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2009.

وفي السياق نفسه، قدمت الباحثة فوزية كرراز دراسة عن**"عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية"**[1]، حيث أبرزت في دراستها أثر التركيبة البشرية للمغرب الأوسط في تسيير الأحداث السياسية والاقتصادية والمذهبية التي عرفها هذا الإقليم، وما انجر عنها من معارضة للسلطة، وبهذا فقد لقي العصر الموحدي حظه من الدراسات عن العامة في المغربين الأقصى والأوسط.

واشتملت بعض المقالات التي اختصت بتاريخ العامة في المغرب الإسلامي منها **"تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وإمكانية التجاوز"**[2]، لإبراهيم القادري بوتشيش ضمن مجموع قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، و**"العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري"**[3] للباحث نفسه، الذي كفانا بحثا عن تاريخ العامة في بلاد المغرب والأندلس في العصر المرابطي، بل يعود لهذا الباحث الفضل في تشريح الدراسات التاريخية ضمن الأبعاد الاجتماعية. وبرزت تجليات دراساته القيمة حول هذه الفئة المهمّشة في العديد من أبحاثه ودراساته التاريخية المهمة، التي مست قضايا المجتمع والذهنيات وسوسيولوجية الواقع الاجتماعي وانعكاسات سلوك إنسان العصر الوسيط وتفاعلاته وذهنياته.

وليس ببعيد عن المغرب الإسلامي، أخذت الأندلس حظها الوافر من معاينة العامة وفقا للإطار الجغرافي، مما يكرس الخصوصية والفعالية لهذه الطبقة في مدن معينة، كما أنّ صلة الموضوع بالبحث في تاريخ العامة يستلزم البحث عن مصادر عيشهم، والاهتمام بواقعهم المعيشي الذي دفع بالكثيرين إلى محاولة تجاوز واقعهم اليومي بركونهم إلى ممارسات سلوكية اجتماعية تعددت مظاهرها، ومن هذه الدراسات التي خصت مدن الأندلس، دراسة الباحث أحمد الطاهري عن **"عامة قرطبة في عصر الخلافة"**[4]، الذي بذل جهدا في تتبع تاريخ العامة الاقتصادي ودورهم في الكثير من الأحداث السياسية في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، غير أنه غفل عن العديد من القضايا والظواهر الاجتماعية في قرطبة التي خلفت أنماطا سلوكية غريبة في أوساط المجتمع العامي، إذ لا يمكن معرفة تلك الظواهر إلاّ بالتطرق إلى الرؤية السوسيولوجية والنفسية للأفراد، وكيف أفرزت تلك الرؤية سلوكات وأنماط مختلفة وغريبة راجت بين الفئات الشعبية أصبحت رهن التمثلات الذهنية لطبقة العامة.

وثمة دراسات كثيرة ربطت تاريخ العامة بدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع، وقد اقتصرت مثل هذه الدراسات على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للعامة

1-عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2015 .

2- ضمن كتاب تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.

3- ضمن كتاب الإسلام السري في المغرب الإسلامي، سينا للنشر، القاهرة، 1955.

4- دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، منشورات عكاظ، الرباط، 1955.

والخاصة، دون الوقوف على أهم القضايا المتعلقة بطبقات المجتمع ككل، ولعل ندرة النصوص كانت عاملا أساسيا من عوامل إحجام الباحثين عن التصدي لمثل تلك الموضوعات التي تشحّ فيها المادة المصدرية، فكل ما وصلنا عن العامة في الأندلس في العصر الموحدي مجرد شذرات مختصرة في ثنايا المصادر التاريخية وفي بعض الرسائل الموحدية[1] والوثائق الأندلسية[2].

وعليه، إنّ دراسة العامة لا يعدّ لونا جديدا في الكتابة التاريخية، ومهمتنا إعادة طرح بعض المسائل التي تعود إلى بعض الباحثين الذين درسوا العامة في العصر الموحدي، إلاّ أنّه يتوجب علينا تحيينها والنظر في الغموض الذي يكتنف هذه الطبقة، وإزاء هذا التغيير انفصلنا عن الدراسات التقليدية وعدلنا نحو التجديد اتجاه طبقة العامة في مختلف المجالات. كما أردنا استدراك تلك الحركات الاحتجاجية وما رافقها من تأزم العلاقة بين السلطة و بعض الفئات الساخطة عليها.

كما أنّ اختيار بلاد الأندلس إطارا مكانيا للبحث ضرورة تسمح بالتفاعل الموسع لمشاهد الطبقة العامة التي عاشت ظروفا اجتماعية عصيبة في ظل الاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية من جهة، وتأثير الكوارث الطبيعية من جهة أخرى، ومنه أخذت العامة في بعض الأحيان منحًا استقلاليا للتعبير عن سخطها بالتمرد والحركات الاحتجاجية، هذه الحركات التي طمست المصادر الموحدية أسبابها وأهدافها. ولم تظهر في ثنايا الأسطوغرافيا العربية لارتباط أصحابها بالسلطة، وهمشوا العامة باعتبارها الطبقة الأكثر إنتاجا، وغفلوا عن دورها الفعال في إحياء النشاط الاقتصادي والثقافي ومساهمتها الكبيرة في البناء والتشييد.

وبالمثل، اتخذت بعض كتابات المؤرخين منهجا مجحفا في كتابة تاريخ هذه الطبقة وراحت تنعتهم بالأوباش والسفلة والأوغاد وغيرها من الصفات التي تقضي على وجودهم كحق إنساني يسمح باحترام التركيب الاجتماعي.

ولقد ارتبطت دراسة العامة بالإطار الزماني الذي حصر في العصر الموحدي - بالأندلس- أي من سنة (541 -626هـ/1146-1228م)، لاعتبارات عديدة أهمها:

1- رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مجموعة ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2010/ رسائل موحدية، تحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، الطبعة الأولى،1995.

2- أبو إسحاق، إبراهيم بن احمد بن عبد الرحمن الغرناطي(ت579هـ/1183م)، الوثائق المختصرة، تحقيق إبراهيم بن محمد السهلي، مكتبة الملك فهد، السعودية، الطبعة الأولى، 2011.

- لم ينل العصر الموحدي في الأندلس حظه في دراسة مسائل العامة، هذه المرحلة التي تزعمتها حركة الإصلاح الديني الموحدي، وهي محاولة لتطهير المجتمع من المنكرات التي كانت سائدة في نهاية عصر المرابطين. كما شهدت هذه المرحلة الزمنية أحداثا هامة قام فيها العوام بإنجازات مهمة، واعتبروا القوة الفاعلة والمؤثرة في الأحداث السياسية والاقتصادية.

- تناولت عدد من الدراسات الأكاديمية الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في العصر الموحدي، ولكنها لم تدرج العامة كعنصر فعال في الاقتصاد والمجتمع وحتى في السياسة. فلا يمكن الحديث عن هذه الجوانب دون تخصيص دراسة مستقلة عن العامة، لأنها إحدى الطبقات الرائدة في صنع التاريخ.

- تسعى هذه الرؤية الموضوعية للعامة إلى استكمال الدراسات السابقة حول تاريخ العامة في الحواضر الإسلامية التي كانت تحت الحكم الموحدي، فكانت دراسة أحمد المحمودي عن "عامة المغرب الأقصى"، وتلتها دراسة فوزية كرراز عن "عامة المغرب الأوسط". وقد قمت بتعزيز هذه الدراسات بشكل خاص على الأندلس، وهي عملية تهدف إلى تجاوز المألوف والانتقال إلى الخصوصية التي ميزت حياة العامة في العهد الموحدي، والعوامل التي كانت تحكمها، والتي تثير مسألة الذهنيات، والبحث عن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية قصد تحليل المواقف السلبية للعامة تعبيرا عن تذمرها وفقدانها المكانة الاجتماعية والإنسانية.

ومن أجل تحقيق الهدف الأسمى للبحث في قضايا العامة ببلاد الأندلس، وجب صياغة إشكالية ترمي إلى إدراك العام والخاص والسلبي والايجابي في حياة العامة، والمعاينة تحتاج إلى الاشكالية التالية:

ما تأثير العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي على المرحلة التاريخية؟ كيف نظّرت المصادر التاريخية الموحدية لفئة العامة؟ وكيف كانت علاقة عامة الأندلس بالسلطة الموحدية التي أضفت طابع الموالاة والطاعة تارة وطابع الكره والمنافرة تارة أخرى، ففيما تجسدت تلك المظاهر؟ وماهي دلالاتها؟

فيم تجلت مظاهر التمايز الطبقي في أوساط المجتمع العامي؟ ماهي أهم المهن والحرف التي تعيش منها العوام؟ وهل كانت مكاسب تلك الحرف كافية للعيش؟ وهل يمكن أن تكون الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية سببا في هروب طبقة عريضة من العوام إلى ممارسة سلوكات إجتماعية متنوعة لتجاوز واقعهم المعيشي؟

واستنادا على ما تمّ جمعه من مادة تاريخية منتقاة من مختلف المصادر التاريخية، وبعد الاطّلاع عليها وتحليلها وتوظيفها، تم تقسيم الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

تضمن الفصل الأول **"العامة وعناصرها في ظل الحكم الموحدي"** وقد عرضنا فيه نبذة تاريخية عن دخول الموحدين إلى الأندلس، مع استعراض نظرة المصادر الموحدية لهذه العناصر الاجتماعية، وختمنا الفصل بعرض تركيبة عناصر العامة.

وخَصَّصْنا الفصل الثاني والمعنون بـ **"العامة بين الموالاة والمنافرة للسلطة الموحدية"** لدراسة العلاقة التي كانت تربط الخلفاء بوصفهم سلطة سياسية، والعامة باعتبارهم قوة مؤيدة لها حينا والرفض والتمرد أحيانا أخرى.

وعالجنا في الفصل الثالث **"مظاهر الحياة الاجتماعية للعامة بالأندلس"** والذي عرضنا فيه مختلف المظاهر الاجتماعية للعوام مع تحديد مستوى عيشها، لننتقل بعدها إلى رصد ملامح حياتهم اليومية، بالتطرق إلى الزواج وتكوين العائلة، وحاولنا تقصي تربية الأطفال ووضعية الأيتام ومظاهر أخرى تمثلت في عادات وتقاليد العامة بين الأفراح والأقراح.

وعالج الفصل الرابع **" أصناف العامة ودورهم في تنشيط الحركة الاقتصادية والثقافية في ظل حكم الموحدين "**وعرضنا فيه أصناف العامة بين المنتجين والخاملين، ثم قدمنا لائحة لأصناف الحرفيين والصناع، مع التركيز على أهم الأنشطة التي زاولها الحرفيون تكسبا للمعيشة ،وعلى وضعيتهم الاجتماعية عند توفر المادة التاريخية.

وخصصنا الفصل الخامس لدراسة **"التمثلات الذهنية للعامة بين الواقع وأفق التجاوز"** والذي تطرقنا فيه إلى مختلف الوسائل التي لجأت إليها العامة لتجاوز محن الحياة بين المسليات والدعابة والنزهة، وبين مجالس الخمور والرقص والاستئناس بالغلمان، أو الركون إلى السحر وبعض الاعتقادات الغريبة كشكل من أشكال التعبير والعجز عن مواجهة واقعهم المعيشي.

وختمنا الفصول بخاتمة أجملنا فيها النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث والدراسة.

ولاستغلال المادة التاريخية المحصل عليها من مختلف المصادر والمراجع، تمّ توظيف المنهج التاريخي التحليلي لتشريح مختلف الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، ومن تمّ إعادة بنائها للكشف عن آليات بناء الحياة الاقتصادية لهذه الفئة، واستنباط الديناميكية التي نجمت عن تفاعل العامة مع أحداث الفترة محل الدراسة.

كما استعنّا بالمنهج المقارن في العديد من المظاهر بداية من استقراء النصوص المتوفرة لدينا وكيف تم تداولها من طرف المؤرخين، ومقارنة هذه الروايات التاريخية فيما بينها، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن معظم مؤرخي العصر الموحدي هم مؤرخو البلاط. وهو الأمر الذي أفصح عن تلك المفارقات التي من شانها أن تكشف عن دور العامة في صنع مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني بصورة شاملة، كما يمكّن المنهج المقارن في هذا المجال من مقاربة ومقابلة بعض الآراء المتباينة، نتيجة لندرة النصوص الصريحة.

إلى جانب المنهج الوصفي والذي وظفناه خاصة في الفصل الخامس لوصف بعض الممارسات والسلوكات التي لجأت إليها العامة، والوقوف عند الإدراك العقلي لهذه الفئة وكيفية تواصلها وتجسيدها لهذا الإدراك كسلوك على أرض الواقع، ومدى تطوره في تلك المرحلة التاريخية.

أما المنهج الإحصائي فكان ضروريا في رصد أسعار السلع وترتيبها في جدول إحصائي حتى نتمكن من معرفة المستوى المعيشي، ومن ثمَّ تحديد الوضع الاجتماعي لهذه الفئة وانعكاساته.

وعن مصادر البحث فقد تنوعت بين كتب التاريخ والأدب والكتب الجغرافية والفقهية وكتب النوازل والحسبة والطبقات والسير والتراجم، وكتب الأزجال والأمثال، وقد رتبناها بحسب الاستفادة منها:

أولا-**كتب التاريخ**

1-"**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"لمؤلفه ابن عذاري المراكشي الذي كان حيًّا سنة(712هـ/1312م)وكان هذا المصدر اعتمادنا الأول في جزئه المخصص للدولة الموحدية، وبالرغم من أنّ المؤلف لم يكن معاصرا للحكم الموحدي، إلاّ أنّ كتابه يعتبر من أوائل المصادر التي فصلت وتتبعت تاريخ الدولة الموحدية منذ قيامها إلى سقوطها، كون المؤلف اعتمد على روايات كان أصحابها من كتاب البلاط الموحدي لذلك جاءت معظم الروايات مناهضة للعامة، إذ لا تكاد تخلو معظم الروايات التي اعتمدت عليها في كتابة الفصل الثاني والتي انفرد بها "ابن عذاري" من عبارات الشتم والإهانة للعامة؛ فظهر في كتابه وكأنه من مؤرخي البلاط الموحدي. ولقد ساعدنا هذا المصدر في كتابة كل أجزاء الرسالة خاصة الفصل الأول والثاني المخصص للعامة والسلطة، كما أفادنا في ضبط العلاقة التي كانت بين العامة والسلطة، والجدير بالذكر أنّ المصدر انفرد بذكر العديد من الثورات التي قامت بها العامة للوقوف في وجه السلطة، فقد أماط اللثام عن بعض الحقائق التاريخية في المجال السياسي. فضلا على أنه رصد العديد من الجوائح الطبيعية التي أصابت الأندلس وأثرها على العوام.

2-"**المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**" لمؤلفه عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، المعروف بابن صاحب الصلاة المتوفى عام (594هـ/1198م). القطعة التي وصلت إلينا من الكتاب تؤرخ للأحداث التاريخية التي وقعت في الغرب الإسلامي ما بين 544-568هـ/ 1149-1172م، ورغم هذا فهو من أهم المصادر التاريخية التي تتبعت تاريخ الدولة الموحدية؛ إذ تطرق فيه صاحبه إلى الكثير من الأحداث السياسية والأزمات الطبيعية والجوائح التي شاهدها، فقد كان معاصرا للكثير من

الأحداث بحكم قربه للموحدين وولائه لهم، وإشادته بالخلفاء وبانجازاتهم الحضارية. ولقد أفادنا هذا المصدر كثيرا في كتابة كل فصول الرسالة خاصة الفصل الثاني عند الحديث عن العامة والسلطة كما وُظّف في عرض أسعار المنتوجات خاصة في أوقات الغلاء كون المؤلف عاصر الكثير من الأحداث التاريخية.

3-**"المعجب في تلخيص أخبار المغرب"** لعبد الواحد المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م) ويعد هذا الكتاب من أهم مصادر العصر الموحدي، لأنّ صاحبه عاش في كنف الدولة الموحدية وعاصر الكثير من أحداثها، فعرض تاريخ وحضارة الموحدين في المغرب والأندلس معا، وغطى هذا الكتاب معظم فصول االرسالة، على الرغم من أن تأليفه جاء بعيدا عن بلاط الموحدين وذلك في بغداد بإيعاز من وزير الخليفة العباسي إلاّ أن مادته الخبرية جاءت غنية بالكثير من المعلومات القيمة التي خدمت كل فصول البحث.

ثانيا-الكتب الأدبية

1-**"المغرب في حلى المغرب"** لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي المتوفى عام(685هـ/1286م) ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي رصدت لنا معلومات تاريخية واجتماعية وحتى اقتصادية مهمة من خلال تراجمه عن عامة الأندلس في ظل الدولة الموحدية، كون المؤلف عاصر السنوات الأخيرة من عمر الدولة الموحدية في بلاد المغرب والأندلس، وانتقى معلوماته من كتاب الدولة الموحدية، لهذا جاءت مادة هذا الكتاب خصبة وثرية، وساعدت لكتابة كل فصول الرسالة، ويمكننا أن نقول بأنه لا يمكن لأي باحث في تاريخ الأندلس في العصر الموحدي الاستغناء عن هذا المصدر المهم كون مؤرخه شاهد عيان على كثير من الأحداث والمظاهر الاجتماعية.

2-**"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"** لمؤلفه أحمد بن محمد التلمساني المقري، المتوفى عام (ت 1041**هـ/**1631**م**)، ويقدم الكتاب مادة تاريخية وجغرافية طيبة، وتراجمه سجلت لنا جانبا كبيرا عن أخبار الأندلس الأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر الموحدي. وكان خير معين في تحليل الكثير من القضايا.

ثالثا-**كتب التراجم والسير**.

1-**"التكملة لكتاب الصلة"** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المتوفى عام (659هـ/1261م)، ويعتبر كتابه التكملة من المصادر الأولية في التاريخ لسيرة علماء الأندلس والحياة العلمية بها، أكمل به كتاب الصلة لابن بشكوال. ولقد أفادنا هذا الكتاب كثيرا في كتابة الفصل الثالث والرابع، والحديث عن المهن والحرف التي كان العوام يحترفونها.

2-"**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**" لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى سنة(703هـ/1303م)، نوّع ابن عبد الملك المراكشي من مصادره فوصلنا كتابه حافلا بالمصنفات التي حازها أو اطلع عليها، وتكمن أهمية هذا الكتاب في استدراكه على من سبقه في الترجمة لعلماء الأندلس خلال القرن السادس ومستهل السابع الهجريين، وقد أفادني هذا المصدر في تتبع الحياة الاجتماعية والثقافية للعوام في الأندلس في الفترة المذكورة.

3-"**أعلام مالقة**" لابن عبد الله محمد بن عسكر المتوفى سنة 636هـ/1238م، والذي أكمله أبو بكر بن خميس الذي كان على قيد الحياة سنة 638هـ/1240م، ويعتبر هذا الكتاب من أبرز المصادر التي اهتمت بالترجمة لأعلام الموحدين. واستفدنا منه في توضيح جوانب من الحياة اليومية لعامة الأندلس في العصر الموحدي.

4-"**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**" لأبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس المعروف بابن أبي أصيبعة (ت668هـ/1269م)، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي صنفت في الطب ورصدت لنا أخبار الحكماء والعلماء والأطباء، وقد كانت له أهمية كبيرة في معرفة أخبار العامة وحياتهم اليومية من خلال تراجم الأطباء ومعاملتهم اليومية لعامة المجتمع.

رابعا -الكتب الجغرافية

لقد كانت الكتب الجغرافية من أهم المصادر المعول عليها في هذا البحث وقد اعتمدت على:

1-"**الروض المعطار في خبر الأقطار**" لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري(ت726هـ/1325م)، وقد أفادنا هذا الكتاب في وصف أحوال المدن الأندلسية زمن الموحدين، وسرد بعض أخبارها خاصة في التعريف بالمواقع التي شهدت أحداثا تاريخية، إلى جانب التعرف على أسعار مختلف أنواع السلع والمنتوجات، وضبط المستوى المعيشي.

2-"**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" لأبي عبد الله محمد الملقب بالشريف الإدريسي المتوفى عام(560هـ/1164م)، وقد أفادنا في الحديث عن جوانب اقتصادية كثيرة لحياة العامة، هذا فضلا عن بعض الاعتقادات التي كانت سائدة وسط العامة بخصوص علاج الأمراض.

خامسا-كتب النوازل

تعتبر كتب النوازل من الوثائق المهمة التي تساعد في دراسة المواضيع الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، فهي من المصادر المهمة التي تساعد على تحليل الكثير من المسائل المبهمة، فمادتها تزخر بإشارات مهمة حول العديد من القضايا، وتقدم معلومات دقيقة عن الحياة

اليومية للمجتمع الأندلسي، غير أنّ الكثير من النوازل جاءت مبهمة ولم يعرض فيها أصحابها الزمن الذي وقعت فيه النازلة ولا مكانها، ولم نتمكن من الاستفادة من بعضها إلاّ نادرا كونها تخدم الموضوع وتأتي في مقدمة كتب النوازل:

1-"**نوازل ابن بشتغير** "لأحمد بن سعيد اللورقي المالكي (ت516هـ/1122م)، فقد عالج في نوازله قضايا المجتمع، ويعتبر كتابه من أجلّ الكتب التي تناولت المظاهر الاجتماعية والعمرانية للمجتمع الأندلسي، ورغم أنّ المؤلف عاش في فترة الحكم المرابطي بالأندلس إلاّ أننا وظفنا بعض نوازله التي وقعت في عصر المرابطين كون الفترتين متقاربتين زمانيا.

2-"**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**" لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي(ت914هـ/1058م)، يعتبر هذا الكتاب من أضخم الكتب التي أُلّفت عن الفتاوى لأنه يُبيِّن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تعيش فيه حواضر الغرب الإسلامي، وقد قمنا بتوظيف ببعض النوازل التي لها دلالات تاريخية على واقع المجتمع الموحدي خاصة ما تعلق منها بأمر الزواج والطلاق، لأنّ نوازل الونشريسي جاءت في أغلبها مبهمة وأحيانا لم يذكر فيها صاحبها اسم الفقيه الذي وردت عليه النازلة ولا مكان وقوعها، ومن ثمّ فإنّنا وظفنا بعض النوازل الفقهية التي يبدو أنها صالحة لكل زمان ومكان على واقع المجتمع، ولإعطاء صورة واضحة عن ذلك استعنت ببعض الفتاوى التي كانت في الغالب بعيدة زمانيا عن فترة الدراسة، ولكنها في الواقع لم تخرج عن إطار العرف الذي جرت عليه الحواضر الإسلامية .

3-"**مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**" للقاضي عياض(**ت544هـ/1149م**) وولده محمد(ت 575هـ/ 1179م) وتكمن أهمية هذه النوازل التي جمعها القاضي محمد بعد وفاة والده، أنها مثلت مرجعا فقهيا أفاد الرسالة في رصد الحياة الاقتصادية للمجتمع الأندلسي، كما أننا استفدنا من التذييلات الكثيرة والتعقيبات التي كان يضيفها القاضي محمد الذي عاش في زمن الموحدين على فتاوى والده، كأن يقول مثلا" المعلوم والمشهور عندنا"[1].

إضافة إلى كتب النوازل تم الاستعانة بالوثائق المختصرة لأبي إسحاق الغرناطي(ت579هـ/1183م) والتي تعتبر من أهم الوثائق في شؤون الحياة اليومية للمجتمع، وقمنا بتوظيفها في الفصل الثالث للحديث عن مظاهر الحياة اليومية للعامة خاصة ما تعلق بأمور الزواج، كما كان لكتاب الزجالي "أمثال العوام في الاندلس"[2]، فضلا في كتابة أجزاء مهمة من الموضوع، إذ تضمن هذا الكتاب الكثير من الامثال الشعبية التي كانت متداولة لدى

1-القاضي عياض، وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1990، ص159.

2-الزجالي، أبو يحي عبيد الله بن احمد الزجالي القرطبي، (ت694هـ/1295م)، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الثقافة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي (د.ت).

المجتمع العامي، فقد ساعدت تلك الأمثال والأزجال في نقل مظاهر الحياة اليومية لعامة الأندلس وأجوائهم الشعبية فهي منتقاة من عمق المجتمع.

سادسا:كتب الحسبة

تعتبر كتب الحسبة من أهم المصادر التي تخدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، كونها تعرفنا بكيفية تعامل المحتسب مع مختلف المهن، كما عرضت الأسواق ومجالات تنظيمها. فضلا على أنها أوردت العديد من الحرف التي مارستها العامة، ومن هذه الكتب اعتمدنا على رسالة في "القضاء والحسبة" لابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي(ق5هـ/11م)، وكتاب في "آداب الحسبة" لأبي عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي (ق6هـ/12م)، واستعنت بهما لكتابة الفصل الرابع من أجل إعطاء صورة واضحة عن السوق ومهام المحتسب اتجاه أصحاب المهن والحرف.

سابعا:كتب الطب

أفادت كتب الطب التي ألفها الأندلسيون في الكشف عن أنواع الأمراض التي كانت تصيب أفراد المجتمع خاصة فئة المستضعفين، فضلا عن تتبعها لطرق العلاج ومن هذه الكتب أذكر:

1-"التيسير في المداواة والتدبير"لأبي مروان عبد الملك بن زهر (ت557هـ/1072م) الذي كان من عائلة اشتغلت في الطب ومهرت فيه، وقد أفادت الدراسة في الإشارة إلى أنواع الأمراض التي انتشرت بين عناصر المجتمع، خاصة وأن المؤلف عاش في عصر الموحدين وخدم في البلاط الموحدي، وقام بتقديم الكثير من الوصفات العلاجية لبعض الأمراض.

2- "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" مخطوط لأبي جعفر أحمد بن علي المعروف بابن خاتمة (ت770هـ/1369م)والذي خصصه للتعريف بالوباء الذي اجتاح الأندلس سنة(749هـ/1369م)، فتحدث فيه عن المرض وأسباب ظهوره ونتائجه، وطرق علاجه، وتكمن أهمية هذا المخطوط كونه خدم الجزء المخصص للأمراض التي أصابت العامة، فوظفناه للتعريف بالوباء، وأسباب حدوثه والأضرار التي نجمت عنه، خاصة وأنّ الفئات المستضعفة قد تضررت كثيرا بوقوع وباء الطاعون بالأندلس في العصر الموحدي.

كانت هذه المصادر الأساسية التي عولنا عليها في تتبع أحوال عامة الأندلس في ظل حكم الموحدين، إضافة إلى العديد من المراجع والدراسات الحديثة التي أضاءت جوانب كثيرة وساهمت في إزالة بعض الغموض خاصة منها كتابات الباحث إبراهيم القادري بوتشيش، التي أثارت العديد من الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وفكت الغموض عن قضايا المجتمع أهمّها كتاب"المغرب والأندلس في عصر المرابطين(المجتمع، الذهنيات، الأولياء)"[1]، و"مباحث في

1-دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.

التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"[1]، إضافة إلى العديد من مقالاته التي كانت خير معين في كتابة هذه الرسالة أدرجتها في قائمة المصادر والمراجع.

ويعد كتاب "الموحدون وأزمات المجتمع"[2] للباحث محمد المغراوي من أهم الكتب التي ساعدت في إثراء الحديث عن الوجود الموحدي بالأندلسي، والأزمات التي خلقت معارضة للسلطة الموحدية؛ فضلا عن دراسة عز الدين موسى حول "النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري"[3]، والتي أفادت كثيرا دراسة التركيبة البشرية لعناصر المجتمع في العصر الموحدي، إضافة إلى دورها في دراسة الجانب الاقتصادي للمجتمع.
ولتذليل الصعوبات في رصد التمثلات الذهنية للعامة، اعتمدت الدراسة على كتاب "الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس"[4] لعبد الهادي البياض، الذي أثار العديد من السلوكات الاجتماعية التي انتشرت وسط المجتمع العامي في الأوقات العصيبة وجعلتها رهن تمثلاتهم الذهنية.

هذا وقد استفدنا من جملة المراجع والدراسات الحديثة والمقالات التي أعانتنا في إنجاز هذا البحث وساهمت في إثرائه من مختلف الجوانب.

ولعل كل بحث ينجز إلاّ وتعترض صاحبه العديد من الصعوبات، غير أنّ هذا لم يقلل أبدا من عزيمتنا، ولم يُثْنِها في سبيل إتمام الموضوع، والفضل في هذا راجع إلى الأستاذة الفاضلة المشرفة وتوجيهاتها وصبرها معنا طيلة فترة البحث، ويمكن حصر تلك الصعوبات في:

- ضآلة المادة العلمية التي تعالج قضايا العامة، وإن وجدت فإنها متناثرة بين السطور وينبغي التنقيب عنها واستنطاقها حتى يتم تقديمها في صورة متكاملة.

- أن مؤرخي العصر الموحدي هم مؤرخو السلطة لأنهم ارتبطوا ارتباطا وثيقا بالبلاط، فأخذت كتاباتهم تمجد الخلفاء وتبدي ولاءها للدولة الموحدية، ومن هؤلاء "ابن صاحب الصلاة"، و"ابن عسكر"، و"ابن الآبار"، ولم ترصد لنا هذه الكتابات تاريخ العامة وحركتها الاقتصادية ووضعها الاجتماعي إلّا نادرا، وذلك عند وقوع الجوائح الطبيعية أو الأوبئة والتي كان يذهب ضحيتها السواد الأعظم منهم، ومن ثمّ تشيد هذه المصادر بمؤازرة الحكام للرعية في هذه المحن وما يتقدمون به من صدقات وإعادة إعمار المدن والأسواق بعد خرابها لكسب العوام، بينما تنعت بصفات حقيرة إذا تمردت وطالبت بحقها.

1-دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى،1998.
2-جذور للنشر، الرباط، الطبعةالأولى،2006.
3-دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى،1983.
4-دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى،2008

-صعوبة استخراج المعلومات من كتب النوازل بسبب جهل هوية أصحابها، كما أنّ كتب النوازل أوردت العديد من النوازل التي تخدم الموضوع، لكن لم نتمكن من معرفة صاحب النازلة ولا الفترة الزمنية التي أرسلت فيها، ولذلك لم نستفد كثيرا من هذه الكتب لأنّ أغلب النوازل مجهولة الهوية وأمر إثبات وضبط الفترة الزمنية التي عاشوا فيها صعب، بسبب انعدام أدنى وسيلة تساعدنا في تحديد ذلك.

-عدم تفصيل كتب التراجم التي كانت اعتمادنا الأول في كتابة الفصل الرابع، حيث غلب على تراجمها القِصَرُ، فبعض التراجم الخاصة بالحقبة الموحدية لم تحدد مستوى معيشة العوام والمهن التي امتهنوها، والوضعية التي مارسوا فيها مهامهم، والأجور التي كانوا يتقاضونها، في حين جاءت بعض التراجم وافية كافية.

الفصل الأول: العامة وعناصرها في ظل الحكم الموحدي

أولا- نبذة تاريخية عن الموحدين في الأندلس

ثانيا -صورة العامة في المصادر الموحدية

ثالثا-تشكل عناصر العامة.

1-عرب الأندلس

2- عرب بني هلال

3- البربر

4- المولدون

5- العبيد

6- الصقالبة

7- الأغزاز

8- أهل الذمة

أولا-**نبذة تاريخية عن الموحدين في الأندلس**

عرفت الأندلس في الفترة الممتدة من (484-541هـ/ 1090-1147م) حكم الدولة المرابطية التي سعت إلى توحيد العدوتين الأندلسية والمغربية بكافة جهودها، ورفعت راية الجهاد ضد النصارى وردت زحفهم لسنوات عدة، ولكن سرعان ما آلت إلى الضعف والانهيار نتيجة للابتعاد عن الالتزام بالمبادئ التي قامت عليها الدولة وقويت بها وأصبح المرابطون غير قادرين على الصمود في وجه الصليبية التي حشدت لاحتلال الأندلس كل إمكانيات النصارى، وأصبح المسلمون يستيقظون على تساقط مدنهم واحدة تلو الأخرى[1]، وظهر الخلل داخل البيت المرابطي نفسه؛ إذ تفيد المصادر التاريخية [2] بأن الفترة الأخيرة من الحكم المرابطي قد شهدت اضطرابات سياسية وحروب داخلية بسبب التنافس على السلطة، عندما ظهرت أطماع كبار الأمراء الذين كانوا يتولون المناصب الهامة في الدولة، واستبدوا بالأمر ولم يعودوا يرون في علي بن يوسف بن تاشفين(500-537هـ/1106-1143م)الكفاءة، بل وأصبحوا يصرحون بأنهم أحق منه بتولي شؤون البلاد بقول أحد المؤرخين: "فصار كل منهم يصرّح بأنه خير من علي أمير المسلمين، وأحق بالأمر منه"[3].

فهذه الحالة الصعبة التي كانت تعيشها الدولة المرابطية أتاحت حرية تدخل النساء في شؤون الدولة والتمتع بالسلطة التي استطعن الاحتفاظ بها[4]، وأن تكون كلمتهن مسموعة، إذ يخبرنا "عبد الواحد المراكشي" بنوع من المبالغة بأنّ استبداد النساء بالحكم كان واحدا من عوامل الفساد عندما قال:" استولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل

1- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، طبعة 1997، ج4، ص461.

2- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، الطبعة الأولى،2006 ، ص135/ ابن الخطيب، لسان الدين السليماني، الإحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية،1973،.ج1، ص113

3- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص135.

4- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا(430-515هـ/1038-1121م) دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1998 ، ص136 / محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، دار قوافل للنشر، موريطانيا، الطبعة الثالثة،2017، ص55

امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور"[1].

وفي السياق نفسه يورد لنا" ابن خاقان " نصا آخر يصرح فيه عن سبب آخر من أسباب الفساد الذي عم البلاد بتفشي المناكر والخمر الذي أصبح متفشيا بين أوساط العامة، إذ يصور لنا ذلك في رسالة بعث بها أحد القضاة قائلا :"وقد استحل حرامها، واستسهل مرامها، وغذت في كل منزل قوتا، وبدت كؤوسها درّا يحمل ياقوتا"[2].

فهذه الأوضاع ساهمت بدور كبير في تدهور الأوضاع داخل المجتمع المرابطي، إضافة إلى تسلط الفقهاء والقضاة وبروزهم كقوة مناهضة للسلطة المرابطية؛ نظرا لما تمتعوا به من مكانة رفيعة فاستعادوا نفوذهم وعادوا إلى سابق سطوتهم وسلطانهم وازدادت ثروتهم ونفوذهم عما كانوا عليه؛ مما أدى إلى إعلانهم للعديد من الثورات على المرابطين[3].

لقد تمتع القضاة والفقهاء بنفوذ قويّ في عصر المرابطين جعلهم يقودون حركات ثورية من أجل استرجاع الأمن المفقود، بسبب إهمال علي بن يوسف بن تاشفين(500-537هـ/1106- م) أمور رعيته وانشغاله بالعبادة وضعفه، ومصداق ذلك ما ذكره "عبد الواحد المراكشي" عندما صرح بذلك قائلا: "وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين مما أدى بالعديد من ثوار الأندلس إلى الاستبداد بالحكم و إعلان الثورة على المرابطين بعد أن أهملت أمور الرعية وكادت الأندلس أن تتمزق وحدتها السياسية وتعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية"[4]، وهذا

1-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص135.
2- محمود مكي، "وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السابع والثامن،1959-1960، ص189.
3- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين،عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1998، ص26/ سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، (عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين)، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى،1985، ص166.
4- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق،ص154.

ما جعل القضاة يعلنون الثورة على من بقي من المرابطين درءا للفساد الذي قد ينجم عن اختلال أمر السلطة الحاكمة وسدا لأبواب التفرقة[1].

وكانت ثورة كبار قضاة الأندلس أو ثورة المريدين من أهم الأسباب التي عجلت بنهاية الدولة المرابطية، وعاملا مهما حث الموحدين على التعجيل بالعبور إلى العدوة الأندلسية واحتلالها، خاصة وأنّ هؤلاء الثوار الذين أشعلوا الثورة على المرابطين، أعلنوا ولاءهم للموحدين قبل أن تعبر الجيوش الموحدية للأندلس عندما عبر هؤلاء الثوار البحر إلى بلاد المغرب طالبين من الخليفة عبد المؤمن بن علي[2](524-558هـ/1129-1162م) العون والمساعدة لتخليصهم من المرابطين[3].

لقد انتهز عبد المؤمن بن علي فرصة ضعف المرابطين في سائر بلاد المغرب والأندلس، واستطاع إسقاط عاصمتهم مراكش سنة541هـ/ 1146م[4]، وبذلك انتهى وجود الدولة المرابطية ببلاد المغرب، أما في الأندلس فكانت الأحوال تتدهور يوما بعد يوم، خاصة باشتداد هجمات النصارى على أراضيها والذين استطاعوا أن يخترقوا الأندلس من شمالها إلى جنوبها في سنة 519هـ/1125م من غير مقاومة تذكر[5].

1- ينظر تفاصيل ثورة كبار القضاة في الأندلس في العصر المرابطي عند لخضر محمد بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2009، ص149/ والحبيب حاكمي، الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين(541-626هـ/1146-1228م)أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2017، ص24-26.

2- هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكومي من قبيلة كومية البربرية، أصله من تاجرة (تلمسان)، بويع بالخلافة بعد وفاة المهدي ابن تومرت سنة 524هـ/1129م، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص148/ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص183.

3- محمد الأمين بلغيث، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي-دولة المرابطين ومرحلة السقوط – دار البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الرابعة، 2013، ص35

4- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين،تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،1985، ص36/ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص244 / ابن الأثير، عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، طبعة 1966، ص522.

5-ابن الخطيب، المصدر السابق، ص113/عزالدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص45.

خلفت تلك الهجمات تشتت جهود علي بن يوسف بن تاشفين بين جهاد الممالك المسيحية في الأندلس وجهاد الموحدين في بلاد المغرب[1]، وبذلك استولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم[2]، مما أضعف هبة ومكانة المرابطين في الأندلس، واستهان الأندلسيون بحكامهم، وانضموا إلى الموحدين في التخلص من المرابطين[3].

بعد إحكام عبد المؤمن بن علي سيطرته على جميع الأمور في مراكش، وإحكام قبضته على المغرب الأقصى وجه اهتمامه إلى الشرق، حيث خرجت الجيوش الموحدية في حملات متتابعة ناحية الشرق، حتى وصلت إلى طرابلس في افريقية محققة انتصارات عسكرية متوالية، وبذلك نجح الموحدون في تحقيق وحدة سياسية للمغرب الإسلامي[4].

أما في الأندلس فقد بادر أهل إشبيلية بإرسال وفد لمبايعة عبد المؤمن بن علي عند دخوله مراكش في شوال عام 541هـ/1146م ورغّبوه في امتلاك الأندلس، فسيّر معهم جيشا في السنة نفسها، وعبروا مضيق جل طارق واستولوا على جزيرة طريف، ثم على الجزيرة الخضراء، ثم ساروا إلى شريش[5] فخرج حاكمها أبو الغمر بن عزون على رأس ثلاثمائة فارس، واستقبل الموحدين وأعلن الولاء والطاعة لهم[6]، ثم توجهوا إلى غرب الأندلس فلما فلما بلغوا مدينة لبلة[7]، أعلن حاكمها الثائر يوسف بن احمد البطروجي[1] الولاء والطاعة

1- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص137.

2- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص135/ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1996، ج1، ص233.

3 - عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1984، ص251/ حسين مؤنس، الثغر الأعلى في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في أيدي النصارى سنة 512هـ/1118م مع أربع وثائق جديدة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة(د.ت) ص29.

4- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس «عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، مصر،الطبعة الأولى،1980، ص44.

5- شريش من كور شذونة على مقربة من البحر، وهي حصينة ومتوسطة حسنة الجهات، الحميري، محمد بن عبد المنعم المنعم الصنهاجي، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، 1980، ص340.

6- السلاوي، أبو العباس أحمد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى،1997، ج2، ص104/إبراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي، العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف الى سقوطها في أيدي الاسبان(422-867هـ/1030-1462) دراسة سياسة حضارية، أطروحة دكتوراه منشورة، جامعة أم القرى،2007، ص172

7- لبلة مدينة بغرب الأندلس، وتعرف بالحمراء، وهي حسنة أزلية متوسطة القدر، ولها سور منيع ونهرها يأتيها من ناحية الجبل ويجاز عليه في قنطرة إلى لبلة، وبينها وبين البحر المحيط ستة أميال، الحميري، المصدر السابق، ص507-508.

للموحدين، ثم استولوا على مدينة بطليوس[2]، وميرتلة[3]،وشلب[4]، أما مدينة باجة[5] ويابرة[6]، فقد أعلن صاحبها سيدراي بن وزير[7] الولاء والطاعة.

بعد ذلك سار الموحدون إلى اشبيلية فحاصروها حتى فتحوها سنة 541هـ/ 1146م، ثم ملكوا قرطبة وغرناطة وما بينهما[8]، وبذلك استطاع الموحدون السيطرة على المدن الكبرى قبل نهاية عام 549هـ/1154م، بعد تعدد الوفود الأندلسية المطالبة بعبور الموحدين للأندلس، وذلك للحفاظ على أحوالها العامة من الفرقة والتناحر ومن خطر النصارى خاصة في المناطق الغربية[9].

وفي سنة 555هـ/1160م جمع عبد المؤمن بن علي جموعا عظيمة وعبر بنفسه إلى الأندلس، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح[10]، وأقام به يرتب أمور الأندلس، فولى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف[11]، وولى قرطبة وأعمالها أبوحفص عمر الهنتاني[1]، وولى

1- لم أقف على ترجمة وافية له، ويذكر ابن عذاري أنه أحد الثائرين بمدينة لبلة الأندلسية في عصر المرابطين، وكان صاحبها، ودخل في طاعة الموحدين، ابن عذاري، المصدر السابق، ص35.

2- بطليوس مدينة كبيرة من أعمال ماردة في الأندلس على نهر آنة غربي قرطبة، وهي مدينة عظيمة ذات أرض وزرع، أبو محمد الرشاطي، ابن خراط الاشبيلي، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق ايميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1990، ص33/ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي معجم البلدان، دار صادر،بيروت، (د.ت) ج1، ص447.

3-مارتلة هو حصن على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس، الحميري، المصدر السابق، ص521.

4- شلب مدينة بالأندلس، وهي قاعدة كورة اكشبونة، توجد بقبلي مدينة باجة، وعليها سور حصين، المصدر نفسه، ص342.

5- باجة مدينة تقع غرب قرطبة، لها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة، وتعتبر باجة من أقدم مدائن الأندلس، أبو محمد الرشاطي، وابن الخراط الاشبيلي، المصدر السابق، ص25.

6-يابرة، مدينة في كورة باجة من غرب الأندلس، المصدر نفسه، ص95.

7-سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير القيسي ،ثار مع ابن قسي ضد المرابطين، ثم غلب على ابن قسي سنة 540هـ/1145م،وانتزع منه مارتلة وبطليوس، وإنظم إلى الموحدين وحضر حصار اشبيلية مع الموحدين سنة 541هـ/1146 ،ملك شلب ثم تخلى عنها سنة 552هـ/1157م،ينظر ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعةالثانية،1985 ،ج2،ص271

8- المواعيني، أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة الاشبيلي، ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب، مخطوط رقم 1406 و2647، الخزانة الحسنية، الرباط، ورقة رقم 461/مارمول كربخال، كتاب إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، احمد التوفيق، مكتبة المعارف،1984، ج1، ص338/ يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص244.

9- حسام الدين بن صالح شاشية،غرب الأندلس أو البرتغال الإسلامية ومدينة ميرتلة في المصادر العربية، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج11،العدد الثاني،2014، ص120.

10- ابن عذاري، المصدر السابق، ص69/وجبل الفتح،هو الجبل الذي فتحت منه الأندلس، ويسمى في الكتب جبل طارق، ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى،1970، ص139.

11- هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي(580-585هـ/1148-1161م)كان محبا للعلم والعلماء، توفي بوعكة أصابته في إحدى غزواته بغرب الأندلس، ابن عذاري، المصدر السابق، ص86/عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص174.

غرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن[2]، ثم رجع إلى مراكش بعدما" ملأ ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند"[3].

استطاع عبد المؤمن بن علي ببراعته العسكرية أن يكوّن من تلك العناصر المختلطة التي عبرت معه إلى الأندلس قوة عسكرية متحدة ومتعاونة تقف في وجه النصارى، وأنشأ الدولة الموحدية الكبرى، فإذا كان المهدي بن تومرت[4] المؤسس الروحي للدعوة الموحدية فإنّ عبد المؤمن هو المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وعلى يديه توطد سلطانها ببلاد المغرب والأندلس وافريقية؛ وتوارثها أبناؤه من بعد وفاته سنة 558هـ/ 1162م إثر مرض أصابه عند خروجه للجهاد برباط الفتح، فحمل إلى تينملل[5]ودفن بجوار قبر المهدي[6].

وتولى الخلافة من بعده ابنه أبو يعقوب يوسف(558- 580هـ/1161-1190م) الذي واصل جهود والده في الأندلس، وعبر إليها سنة 566هـ/1170م ونزل بإشبيلية في جموع عظيمة من الموحدين، فأمر أخاه عثمان بن عبد المؤمن الذي كان واليا على غرناطة بتجهيز جيش والاتجاه نحو مرسية للقضاء على ثورة محمد بن سعد بن مرذنيش[7] أمير

1- هو عمر بن أبي زيد الهنتاني، يكنى أبا حفص، كان أحد وزراء أبو يوسف يعقوب، استشهد ببلاد الروم، المصدر نفسه،ص193.

2- يكنى أبا سعيد، ولاه والده عبد المؤمن بن علي غرناطة، وكان محبا للآداب مؤثرا لأهلها، يهتز للشعر ويثيب عليه، وقد اجتمع عنده من الشعراء والكتاب ما لم يجتمع عند غيره، نفسه، ص183.

3- نفسه، ص165.

4- ابن تومرت بربري من قبيلة هرغة، نشأ قارئا محبا للعلم، رحل إلى المشرق ولقي الغزالي، مرّ بالأندلس ودخل قرطبة، كان زاهدا متقشفا شجاعا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويلزم الناس بالصلاة، توفي عام 522هـ/1128م، الذهبي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت)،ص71/ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن أبو زيد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة،2006، المجلد6، ص266/ عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، تونس، 1995، ص55.

5- هو جبل استوطنته قبائل مصمودة ببلاد المغرب، فيه بنى ابن تومرت بيته ومسجده، البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، دار الغرب، الرباط،1971، ص43.

6- نفسه، أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق ومراجعة عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية،2004، ص121/ابن عذاري، المصدر السابق، ص79/ابن سماك العاملي، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء محمد، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص242.

7- هو محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مرذنيش الجذامي، أمير شرق الأندلس،اتصف بالطموح السياسي وحب الاستقلال والتوسع، فاصطدم بالموحدين، وحتى يتفرغ لمواجهتهم، عقد اتفاقيات صداقة مع الممالك النصرانية كي يأمّن جانبها، وتعهد بموجبها أن يدفع جزية سنوية، قضى عليه الموحدون وعلى جنوده بمدينةمرسية سنة 567هـ/1171م، ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص127/طقوس محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى،2005، ص534.

شرق الأندلس، الذي خرج لملاقاته في جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج الذين كان يستعين بهم في حروبه، والتقى الفريقان في موضع يعرف بالجلاب، على بعد أميال من مرسية، وكان النصر فيها حليف الموحدين، وتوفي ابن مرذنيش وهو محاصر بمرسية سنة 567هـ/1171م، ودخل ابنه هلال في طاعة الموحدين[1]، وانتهت بذلك ثورة ابن مرذنيش التي تحدّت السلطة الموحدية أمدا طويلا ليعود بعد ذلك أبو يعقوب يوسف إلى مراكش في أواخر عام 569هـ/1173م.

وفي سنة 579هـ /1183م كان جواز أبي يعقوب يوسف للأندلس برسم الجهاد، فقصد إشبيلية ومن ثَمَّ توجه إلى مدينة شنترين[2] التي كان يملكها النصارى، فحاصرها أبو يعقوب يوسف وبالغ في التضييق عليها وقطع عن أهلها المدد، لكن الحصار طال على المسلمين وخافوا من البرد ومن أن يعظم النهر فلا يستطيعون عبوره، فأمرهم أبو يعقوب يوسف بالرجوع إلى اشبيلية[3]، وكان هذا الانسحاب فرصة مواتية استغلتها قوات النصارى النصارى لبلوغ الخباء الذي يتواجد به أبي يعقوب يوسف، فقتلوا خلقا من المسلمين وطعنوا أبا يعقوب يوسف طعنة مات بعدها بأيام قليلة من عام 580هـ /1184م وانهزم النصارى ورجعوا إلى ديارهم[4].

وتولى الخلافة بعد موت أبي يعقوب يوسف ابنه يعقوب الملقب بالمنصور (580-595هـ/1184 -1198م) الذي اعتبرته المصادر التاريخية من أقوى خلفاء الأندلس، وفي عهده بلغت الدولة أوج قوتها ومجدها داخليا وخارجيا وعم الرخاء والاستقرار.

تولى يعقوب المنصور الحكم في وقت اشتدت فيه هجمات النصارى على الأندلس، فاضطر العبور إلى العدوة الأندلسية عام 585هـ/1189م، وتمكن من استعادة شلب سنة 587هـ/1191م[5]، ليعود إلى المغرب عاقدا العزم على محاربة القشتاليين فجهز حملة وعبر وعبر البحر في جمادى الآخرة عام 591هـ/1194م، والتقى الفريقان عند "حصن الأرك"[6]

1-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص183/ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص211/ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام بالأندلس-عصر الموحدين-الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ت)، ص18.
2- شنترين معدودة في كورة باجة من كور الأندلس، ومبتناها على نهر باجة بمقربة من انصبابه في البحر، ولها أرض كريمة، أبو محمد الرشاطي، ابن خراط الاشبيلي، المصدر السابق، 88.
3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص164/ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص188.
4- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص215/ ابن عذاري، المصدر السابق، ص164.
5- المصدر نفسه، ص205/ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص219.

الأرك"[1] في شعبان من السنة نفسها، ليكون النصر حليف المسلمين بقيادة يعقوب المنصور[2].

أكدت "معركة الأرك" قوة الموحدين العسكرية، عندما أوقفت زحف النصارى على مدن الاندلس[3]، واستطاع أن يصل يعقوب المنصور إلى مواضع لم يصل إليها ملك من المسلمين قط، ليقوم بعد ذلك بمهادنة ألفونسو ملك قشتالة لمدة عشر سنوات، ويعود بعدها إلى مراكش أين توفي بها عام 595هـ/1198م[4].

تولى الأمر من بعده ابنه محمد الناصر[5] (595-610هـ/1198-1213م)الذي كان راكنا إلى اللذات، فأقام فيها مصطحبا ومغتبقا[6]حتى أنه توفي مسموما في كأس خمر[7]، وبذلك مثل عهده انتكاسا لدولة الموحدين، وضياع الأندلس في معركة "حصن العقاب"[8] سنة 609هـ/1212م، وفيها اقتتل الطرفان اقتتالا شديدا، ولم يستطع الموحدون الصمود أمام قوة النصارى، وهزموا هزيمة فادحة، وقتل من المسلمين خلق كثير، واضطر إثر ذلك محمد الناصر الفرار إلى اشبيلية[9].

مثلت معركة "حصن العقاب" منعرجا خطيرا في تاريخ الأندلس، أين أصاب البلاد العجز والانحلال، ودبّ الضعف في أوصالها وتولى الحكم فيها حكام ضعفاء لا همّ لهم إلاّ التنازع على العرش، مما ساعد النصارى على شن العديد من الهجمات على المدن الأندلسية.

1- حصن الأرك، هوحصن منيع بمقربة من قلعة رباح، الحميري، المصدر السابق، ص220.
2- ابن عذاري،المصدر السابق،ص228/ ابن سماك العاملي،المصدر السابق،ص241.
3- ابن عذاري، المصدر السابق، 220/ا بن أبي زرع، المصدر السابق، ص221 / عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص206/ محمد سهيل طقوس، المرجع السابق، ص543.
4- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص207.
5- هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، قام بأعمال البناء والتشييد وواصل ما قام به أسلافه من محاربة النصارى غير أنه تلقى هزيمة كبرى في معركة حصن العقاب، ابن عذاري، المصدر السابق، ص236.
6- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص241
7-ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، ط1، 1973م، ج1، ص207.
8- العقاب موضع بين جيان وقلعة رباح، سميت الوقيعة العظيمة التي وقعت بين المسلمين والنصارى باسم الموضع، الحميري، المصدر السابق، ص416.
9-ابن عذاري، المصدر السابق، ص263/ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص235/ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص314.

وبعد وفاة محمد الناصر سنة 610هـ/1213م، تولى الحكم يوسف المستنصر(610-620هـ/1213-1223م)[1]وهو صغير السن، وكان هو الآخر مثل أبيه لينا مدمنا على الخلاعة وراكنا إلى اللذات[2]، واعتكف في قصره على اللهو واللعب والمجون[3]، ولم تكن له له غزوة تذكر لأنه عقد المهادنة والمصالحة مع النصارى[4]، وتوفي بمراكش بعد أن ضربته ضربته بقرة بقرنها عام 620هـ/1223م.

وبوفاة المستنصر انقسم أفراد البيت الموحدي حول تعيين الخليفة، فبعد أن بويع عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن[5] بمراكش عام 620هـ/1213م،خالفه ابن أخيه عبد الله الملقب

بالعادل[6]، حيث بويع بمرسية سنة 621هـ/1214م، وطاعت له بعض بلاد الأندلس، وفي سنة 622هـ/1225م قام والي قرطبة الموحدي عبد الله البياسي[7] بخلع دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين، واستعان بالنصارى عليهم وملّكهم بعض الحصون الإسلامية، وذكر عنه أمور شنيعة منها أنه دخل في دين النصرانية وكان شيخا مسنا[8]، مما أثار غضب غضب العامة عليه من أهل قرطبة، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى اشبيلية سنة 623هـ/1226م.

وما لوحظ في هذه الفترة أنه ظهرت صراعات دموية داخل البيت الموحدي من أجل السلطة ولأغراض سياسية، ولعل أكبر دليل على ذلك هو الصراع الذي دار بين أشياخ

1-هو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع بالخلافة بعد وفاة والده الناصر، وهو صغير السن ذو ستة عشر سنة، كان مولعا بالراحة، فتغلب عليه أشياخ الموحدين، وفي مدة حكمه تهدنت بلاد الأندلس وافريقية، ابن عذاري،المصدر السابق، ص265/ ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص245.

2- ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص243

3- نفسه، الذخيرةالسنية في تاريخ الدولة المرينية، نشره محمد بن أبي شنب، مطبعة الجزائر(د.ط)،1960،ص32/محمد المغراوي،المرجع السابق،ص141.

4 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص243

5-هو أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المأمون، لم يحسن تدبير أمور الأندلس، وعرفت فترة حمكه اضطرابات كثيرة، توفي سنة 640هـ/1242م، ابن عذاري، المصدر السابق، ص299-359/المقري، المصدر السابق،ص284.

6-هو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، تلقب بالعادل بالله، بويع بالخلافة وطاعت له بعض بلاد الأندلس، ووصلته بيعة أهل مراكش وبلاد الغرب، توفي سنة 624هـ/1227م، ابن عذاري، المصدر السابق، ص270/ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص247.

7-عبد الله البياسي، ولاه العادل بن المنصور ابن الخليفة يوسف ولاية قرطبة، فخلع دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم، ودلهم عورات تلك البلاد وأدخلهم حصن باجة ولوشة وغيرها من الحصون الإسلامية، قتل سنة 623هـ/1226م، ابن عذاري، المصدر السابق، ص271.

8- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الموحدين على الخليفة العادل بمراكش، فخلعوا طاعته وقتلوه سنة 624هـ/1226م وبايعوا المأمون أبو العلاء إدريس[1] والي اشبيلية، ثم عبر البحر إلى مراكش أين دارت بينه وبين يحي الناصر معارك طاحنة انتهت بانتصار المأمون وتوليه الخلافة سنة 626هـ/1228م لغاية 630هـ/1232م، أين تولى ابنه عبد الواحد الرشيد الخلافة الذي استعان بالنصارى للوقوف في وجه منافسيه على السلطة[2]، مما سهل على النصارى التوغل داخل الأراضي ولعلها كانت أهم العوامل التي أدت إلى استياء الأندلسيين من تلك الأوضاع الكارثية التي آلت إليها بلادهم، فخلعوا طاعة الموحدين وأشعلوا نار الفتنة وتمزقت البلاد من جديد، فثار ابن هود الجذامي[3]بمرسية سنة 625هـ/1227م وهزم واليها الموحدي، ثم ثار من بعده بمرسية عزيز بن خطاب[4] الذي كان ملكا جبارا سفاكا للدماء، فقتله زيان بن مرذنيش وصارت مرسية لبني هود والنصارى.

وفي بلنسية قام زيان بن مرذنيش[5] سنة 626هـ/1228م وهزم واليها الذي لجأ إلى النصارى، فانكمشت حدود الدولة ولم تستقر أوضاع الأندلس، وضعف أمر الثوار واستغل النصارى هذه الفرصة، فأعدوا حملة للهجوم على الأندلس، واستطاعوا أن يسقطوا العديد من مدنها، وأمراء الموحدين منشغلون بحروبهم في بلاد المغرب للتنافس على السلطة، و المدن تتساقط الواحدة تلوى الأخرى. لينتهي الوجود العسكري للموحدين في الأندلس سنة 626هـ/1228م عند خروج إدريس المأمون منها، وتسقط قرطبة سنة633هـ/1235م، بعد أن حاصرها النصارى وضيقوا عليها، وفي هذه الأثناء أقبلت نحو فرناندو الثالث ملك

1-هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور، بويع بالخلافة سنة 624هـ/1226 باشبيلية، كان عالما كاتبا أديبا فصيحا بليغا، كانت له وقائع كثيرة، وهو الذي بنى قصر السيد بمالقة، ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص248/ ابن الخطيب، المصدر السابق،ج1، ص223/ ابن عذاري، المصدر السابق، ص271./محمد المغراوي،المرجع السابق،ص144-145.

2-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص243

3-هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، يلقب بالمتوكل، كان في بداية أمره من أصناف الجند بمرسية، كان عاميا جاهلا مشؤوما على الأندلس، قتله وزيره بالليل في مدينة المرية، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،1997، ج2، ص206 /ا بن عذاري، المصدر السابق، ص348/ جمعة شيخة، العدوة الأندلسية في ديوان ابن الأبار، ضمن أعمال ملتقى ابن الأبار بأنذة، مجلة دراسات أندلسية، العدد الثاني خاص بابن الأبار، تونس، 1989، ص39.

4-أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن سليمان بن خطاب القيسي، كان عالما مشهورا بالزهد، كان سفاكا للدماء حتى كرهته القلوب، قتل بمرسية سنة 636هـ/1238م، ابن سعيد، المصدر السابق، ص207.

5-لم أقف على ترجمة وافية له.

قشتالة الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها[1]، ثم توجه إلى شرق الأندلس ودخل بلنسية سنة 636 هـ/1238م صلحا مع أهلها[2]، أما اشبيلية فقد حاصرها برا وبحرا مما أدى إلى تدهور حال سكانها ومات بالجوع الخلق الكثير، وسقطت بأيديهم سنة 646هـ/1248م[3].

سقطت اشبيلية التي كانت حاضرة للدولة الموحدية مدة قرن من الزمن، لينتهي سلطان الموحدين بالأندلس[4]، وتدخل البلاد في مرحلة أخرى من حكم ملوك بني الأحمر في غرناطة.

بعد عرض أهم الأحداث التاريخية التي مرت بها الدولة الموحدية في الأندلس والتي عرفت اضطرابات سياسية، واجه من خلالها الحكام تمردات عرقلت مواجهة النصارى وعجزت عن ردّ زحفهم، خاصة بعد وفاة الحاكم يعقوب المنصور 595هـ/1213م، أين دخلت البلاد مرحلة جديدة بتولي السلطة حكام ضعفاء همهم الوحيد هو السلطة، مما أدى إلى ظهور صراعات دموية داخل البيت الموحدي فأدّى ذلك إلى تفلت الأمن وتكالب النصارى على المدن، وبالتالي إهمال شؤون الرعية التي لم تكن بمعزل عن تلك التطورات السياسية، فساهمت في تحريك مجريات الأحداث التاريخية، جعلت مؤرخي السلطة الموحدية تتحامل على هذه الطبقة وتنعتها بمختلف الصفات إذا أرادت المطالبة بحقها. وعليه فقد شكلت العامة في زمن حكم الموحدين في الأندلس أحد العناصر الرئيسة في بلورة تاريخها السياسي والحضاري وهو موضوع هذه الأطروحة والذي نسعى في تناول قضاياه من مختلف المعالم.

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص331.
2-المصدر نفسه، ص349.
3-نفسه، ص380.
4-ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص37.

ثانيا-صورة العامة في المصادر الموحدية

لقد شكلت طبقة العامة السواد الأعظم من سكان الأندلس في العصر الموحدي، ولا يمكن إخفاء مساهمتهم الكبيرة في كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتطوير المجتمع، ومما لا شك فيه أن قضايا العوام في الأندلس في الفترة مجال البحث وردت في المصادر التاريخية عرضا من دون تفاصيل وافية، وذلك في سياق الحديث عن تاريخ السلاطين وأعمالهم وتخليد مآثرهم، مشيدين بانتصاراتهم و بانجازاتهم، فتدخل طبقة العامة في سياق الحديث عن هؤلاء.

العامة تضم فئات اجتماعية كثيرة ومتفاوتة فيما بينها، والمصطلح يدل على صيغة الجمع أي أنّ العامة هي جمهور من الناس، ولذا نجد عند "ابن منظور" العم من العامة أي الجماعة بمعنى عددهم كثير[1]، أما "الفيروز آبادي "[2]، فيجعل مصطلح العامة من العمّ وهي الجماعة الكثيرة، والعمم وهم عظم الخلق في الناس وغيرهم، وهي اسم جمع للعامة وهي خلاف الخاصة، وعمّ الشيء عموما شمل الجماعة.

وهذه التعريفات تتفق على أن العامة ضمت مجموعة من الناس تختلف فيما بينها، ولذلك وردت في مختلف المصادر التي تتحدث عن العامة بصيغة الجمع مثل السفلة، الرعاع، الأراذل، الغوغاء[3] وغيرها، ولكنها تؤدي إلى معنى واحد وهو عامة الناس.

في حين تَبين عند استقراء نصوص المصادر التاريخية بأنواعها، أنها توظف النعوت المشينة في حق العامة عندما تشكل عناصرها خطرا قد يحذق بزوال السلطة القائمة لذا

1- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب،المجلد 10، دار صادر بيروت،الطبعة الثالثة، 2004، ص2004.

2- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، ص1152.

3-الغوغاء هو ضرب من البعوض لا يؤذي، الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن، لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 2000، ص264.

نلاحظ التباين في النعت؛ إذ يطلق عليها صفات أخرى مثل أهل الأندلس[1]، والجمهور، والرعية، وعوام الناس[2] إذا طاعت وانصاعت للأمور.

إذن العامة جزء لا يتجزأ من المجتمع، إلاّ أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي السائد قسم المجتمع إلى عدة طبقات[3]، فكثيرة هذه المصادر التي وضعت تصنيفات لتلك الطبقات الاجتماعية وميزتها عن الطبقة الخاصة، وعلى ما يبدو فإنّ المعيار الاقتصادي هو المعيار الطاغي في تحديد الطبقات الاجتماعية وأدوارها في المجتمع[4]، وهو ما ستوضحه الدراسة.

كثيرا ما أطلقت المصادر كلمة العامة أو العوام، وكانت تقصد بهم رجال الحرف المختلفة من زراع وصناع وصغار التجار وكانوا يشكلون السواد الأعظم من السكان أي الجمهور الذي شكل سفح الهرم الطبقي لأن عددهم كبير[5].

ولا سبيل للإنكار أنّ العامة نسبت إليها كل الصفات القدحية، ونظر إليها نظرة احتقار واستفزاز، وينبغي توخي الحيطة والحذر من خطرها وهو ما أجمعت عليه مصادر الحقبة مدار الدراسة، التي وقفت موقفا معاديا من العوام، والتي كثيرا ما كانت تعبر عن سخطها للعامة بين الحين والآخر، وراحت تنعتهم بأقبح الصفات، ووضعتهم في مكانة وضيعة، وربما يكون هذا التحامل على هذه الطبقة بسبب حياة بعض المؤرخين داخل البلاط التي جعلتهم يتحاملون على العامة، إذ قامت هذه الأخيرة بالتمرد على السلطة والخروج عن الحكم، ولذلك فبديهي أن يصنفهم هؤلاء المؤرخون ضمن العصاة والسفلة، ولكنهم إذا أُجبروا على الخضوع للسلطة كرها فلا يكون لهم أي وزن في نظرهم ويضعونهم على هامش التاريخ[6]، ومن تلك الصفات"أراذل الناس السفلة الخساس"[7]، مع التركيز على جهلها

---

1 -ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص154 .

2-ابن زهر، أبو مروان عبد الملك، التيسير في المداواة والعلاج، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبعة فضالة، المحمدية،1991، ص275.

3-محمد بن عبود، جوانب من الواقع الاندلسي في القرن الخامس الهجري، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة تطوان،1987، ص19

4-فوزيةكرراز، المرجع السابق، ص57.

5-أحمد المحمودي، المرجع السابق، ص22.

6- إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وإمكانية التجاوز، ص28

7-ابن عذاري، المصدر السابق، ص276.

جهلها فوصفوا بأنهم جهال[1]، ومن الضروري إبعاد العوام عن السلطة والتحذير من احتشادهم وتجمعهم، وينبغي تفريقهم لأنهم"ما اجتمعوا قط إلاّ ضروا ولا تفرقوا إلاّ نفعوا"[2].

لقد اكتسبت هذه الفئة صيغ اجتماعية متنوعة في المصادر التي عاش أصحابها في ظل الحكم الموحدي لبلاد الغرب الإسلامي، عندما أجمعت على تحقير العوام وأطلقت عليهم مختلف عبارات القدح والاستهانة ووقفت موقفا معاديا منها كما أسلفنا سابقا، فهذا" ابن صاحب الصلاة" (ت 594هـ/1198م) الذي عايش الكثير من الأحداث بحكم خدمته في دواوين الموحدين، ينعت في كتابه العوام بالحثالة و البهائم والأشقياء[3]؛ وطبيعي أن يطلق عليهم هذه الصفات لأنه مؤرخ البلاط الموحدي، وقد كان من كتاب الدولة فإشاراته كلها تنم بالولاء للدولة الموحدية[4]. وإذا تمردت العامة على السلطة بديهي أن توصف هذه الطبقة من ضمن الخارجين عن الحكام وتصنف مع البهائم، فالمؤرخ "ابن عذاري" ورغم بعده عن الفترة الزمنية، إلاّ أننا وجدناه قد أنزل كل سخطه على العامة، فلا تكاد تخلو نصوصه بالولاء للموحدين، كما أنّ إشاراته حول العامة كانت كلها ذليلة، فقال عنها أوباش من سفلة الأسواق، أراذل الناس السفلة الخساس،العامة الجهال، السفهاء و الغوغاء[5]، كما أنه سجل ملاحظة في بالغ الأهمية عن العامة في عصر الخليفة يعقوب المنصور"عندما جلس في المسجد الجامع المجاور للقصر أنه حضر أناس من السوقة و التجار والسفال لتحقيق مطالبهم، ...ولما كثر تزاحم الغوغاء... قطع للعامة ذلك الجلوس "[6]. فقد دلّت العبارات الواردة في النص على همجية العوام وإثارة الفوضى ممّا أدى بالخليفة يعقوب المنصور إلى قطع اللقاء معهم، وبالتالي فهنا ليس للعامة أن تقترب من السلطة.

1- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص172

2-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، رسائل الجاحظ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2000، ج1 ،ص106

3-ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن احمد الباجي، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور المهدي بالموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الرابعة، 2012،ص 148-231-323.

4- المصدر نفسه، ص.139

5-ابن عذاري، المصدر السابق،ص 174-208-276.

6-المصدر نفسه، ص174.

أما المؤرخ "ابن القطان" (الذي كان حيا سنة 646هـ/1248م) فينعت العامة بالسوقة[1]، ويشير المؤرخ "ابن عبد الملك المراكشي" (ت 703هـ/1303م) إلى العامة بأنهم شرار البادية وجفاتهم والسفلة[2]؛ كما اتصفت العامة بالجهل فسماهم كلاً من "ابن سعيد الغرناطي "(ت 685هـ/1286م) بجهال العامة[3]، والمعلوم أنّ "عبد الواحد المراكشي" قد عاصر فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية وقد كان مقرّب من الحكام الموحدين وعمل على تدوين الكثير من الأحداث التي عاصرها وشاهدها لهذا نجده ينعتهم بالجهال، في حين يصفهم "ابن الإمام أبي عمرو عثمان بن علي"(ت 560هـ/1164م)، "بالأوباش من الهباب"[4].

أمّا المؤرخ "ابن أبي زرع "(الذي كان حيا سنة 726هـ/1326م) فوجدناه يصف العامة بالسفلة[5]، وقال عنهم "ابن المرابط أبو العلاء محمد بن علي "(ت 663هـ/1264م)، الذي ضم نصوص نثرية وأشعار ورسائل مهمة ترصد واقع الأندلس السياسي والحضاري في أواخر العصر الموحدي في الأندلس[6] بالعبامين[7]، وحكم على العوام "أبو حامد الغرناطي"، بأنهم لا يعرفون العقل عندما شبه عقولهم بعقول النساء[8].

والظاهر من هذه الصفات أنّ المؤرخين نعتوا العامة بكل الصفات الذميمة وبقيت كتاباتهم عن العامة تساهم بشكل واسع في تقديم مادة تصلح لتسلية الخواص أحيانا، متجاهلة دورهم الاجتماعي والاقتصادي وحتى العسكري.

1-ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص159.
2-ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، 1973، س6، ص26-155.
3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص172/عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص155.
4-ابن الإمام، أبي عمرو عثمان بن علي، المقتضب من كتاب سمط الجمان وسقط الأذهان، قراءة وتعليق حياة قارة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص54.
5-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص243.
6-ابن المرابط، أبو العلاء محمد بن علي، زواهر الفكر وجواهر الفقر، دراسة وتحقيق احمد المصباحي، منشورات وزارة الثقافة، المملكة المغربية، الطبعة الأولى،2010، ج1، ص131.
7-وتعني الكلمة الغليظ الخلقة في الحمق، وقيل العبيّ الأحمق، والعبم هو الذي لا عقل له ولا أدب ولا شجاعة ولا رأسمال، ابن منظور، المصدر السابق، مجلد12، ص380.
8-أبو حامد الغرناطي، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان الأقليشي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبعة 1989،ص15.

ويصف المؤرخ "ابن سعيد" العامة بالفضولية وإثارة الشغب والفوضى، ولعلّه لم يكن من الصدفة أن يصف عامة الأندلس بأنهم من أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم"[1]، وبهذا يفهم من النص أنّ عامة الأندلس في العصر الموحدي اتهمت بالشغب وعدم الرضا بأمورهم و بالخروج عن الطاعة وإثارة الفتن ومناهضة السلطة، وهو ما ذكره المؤرخ ذاته عن عامة قرطبة عندما وصفهم أحد ولاتها[2] بالجمل قائلا:"إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق، وأن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإنّي إنْ كُلِفتُ العود إليها لقائل:لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"[3].

وعليه كثرت نصائح الخاصة بإبعاد العوام عن السلطة، لأنهم لا يعرفون تسيير الأمور ولكن ينبغي التقرب منهم أحيانا ومدحهم لتجنب سخطهم، ويظهر ذلك في أمثالهم " امدح العوام ولو كانوا أعاديك"[4]، لذلك نجد عبد المؤمن بن علي يطالب باستمالة وتملك الهمج[5] الرعاع[6].

وبناءً على ذلك لا نستغرب أن تنعت العامة بالأوباش والغوغاء، والسفلة والجهال وغيرها من الصفات، وهو وصف من طرف المؤرخين أنفسهم الذين أنزلوا سخطهم على

1-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص154.

2-المقصودهنا الوالي أبويحي هو أخ السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور، كان أميرا لقرطبة، شيد فيها قصره المعروف باسمه، وقيل له: كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر،لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لي في بلادهم اثر اذكر به على رغمهم"، المقري، المصدر السابق،ج1، ص470.

3-المصدر نفسه، ص155.

4-ابن عاصم الغرناطي، أبو بكر محمد بن عاصم القيسي، حدائق الأزاهر، حققه وقدم له أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم،المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1992، ص311.

5-الهمج هو الذباب الصغير الذي يسقط على وجه الغنم، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص827.

6-ورد هذا في رسالة كتبها أبو جعفر بن عطية بأمر من عبد المؤمن بن علي يوصي فيها بإقامة الحدود وحفظ الشرائع، كتاب رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية،مجموعة ليفي بروفنسال، ص128.

طبقة العامة الخارجة عن طاعة الموحدين، وبهذا نجد أنّ العامة جردت "من الفضائل الاجتماعية، فلم يتركوا نقيصة إلاّ ونسبوها إليها ولا فضيلة إلاّ وسلبوها منها"[1].

ويمكن القول بأنّ المصادر التاريخية الموحدية أطلقت هذه الصفات الذميمة على العامة وهي دلالات كلها تعبر عن الاستهانة والازدراء، سواء كانت تلك المصادر التي أرخت للسلطة الموحدية، أوالمصادر التي كتبت عن تاريخ الأندلس في هذه المرحلة التاريخية، وهي في الحقيقة لا تعكس سوى منظور هؤلاء المؤرخين لطبقة العامة؛ فحسب منظورهم لا يحق للعامة إلاّ الطاعة والانقياد حتى يصطلح على تسميتها الرعية أو الناس أو الجمهور، أمّا غير ذلك فهم أوباش وهمج وسفلة وغير ذلك.

ومهما ما ورد في المصادر الموحدية من مصطلحات قيلت عن عامة الأندلس ومحاولة تجريدها من دورها الحضاري، إلاّ أنّ العامة فرضت وجودها وقامت بدورها الطبيعي في تنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، في مجتمع عرف تنوعا دينيا وعرقيا، امتزجت فيه كل الفئات بمختلف شرائحها.

ثالثا-**تشكل عناصر العامة**

بعد عملية توطين العناصر التي عبرت الأندلس مع الجيش الموحدي، لابدّ وأن نتطرق إلى تلك التركيبة البشرية التي كونت المجتمع الأندلسي في العصر الموحدي، لفهم العديد من المظاهر السائدة في المجتمع، خاصة وأن تلك العناصر البشرية التي اجتازت الأندلس كانت خليطا من الأجناس، فتنوعت بين القبائل البربرية التي شكلت الأغلبية الساحقة، ودخل معها عنصر جديد تمثل في قبائل بني هلال التي جاءت من المشرق، وعناصر أخرى سنذكرها بالتفصيل.

والسؤال المطروح هنا، هل الاختلاف الموجود بين العناصر الموجودة شكل القطيعة فيما بينها؟ أم أنها استطاعت تجاوز الاختلاف وتحقيق الاندماج؟ وهل عملت السلطة

1-دلال لواتي، المرجع السابق، ص104.

الموحدية على تقريب مجموعة معينة من المجموعات الإثنية التي كونت المجتمع الأندلسي؟

إنّ الدارس لتاريخ العامة في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية لا بد أن يتطرق إلى تركيبتها الاجتماعية والتي شملت عناصر متنوعة، ولكل عنصر ميزاته وخصائص تميزه عن غيره، وهذا التنوع والخليط لم يكن وليد حقبة زمنية معينة، بل تكون بمرور الزمن وتطور الأحداث التاريخية ببلاد الأندلس[1]، مما أدى إلى ظهور نتائج خطيرة على أوضاع المجتمع، في وقت تكالبت فيه هجمات النصارى على المدن الأندلسية من جهة وتحالف بعض القوى مع النصارى لإضعاف الموحدين والوقوف ضدهم من جهة أخرى.

والواقع أن عامة الأندلس في العصر الموحدي كونته عناصر متنوعة أثرت في مساره التاريخي وتمثلت فيما يلي:

1-عرب الأندلس

شكل العرب أبرز العناصر التي تكون منها مجتمع الأندلس، حيث كانوا العنصر القائد والمسيطر على البلاد منذ البداية، فمنذ دخولهم للأندلس قادمين من بلاد المشرق اختاروا أخصب الأراضي واستولوا عليها، واختلطوا مع العناصر الأخرى إما بالزواج أو بالمعاملة مما أسهم في بناء مجتمع متعدد الأجناس[2].

استقر العرب منذ الفتح الإسلامي بالحواضر الكبرى[3]، ويفيدنا" الحميري "أن أهل شلب كانوا من عرب اليمن[4]واستطاعوا أن يكونوا نواة الأرستقراطية العربية التي ظلت غالبة على الأندلس، فتمتعوا بالمكانة الرفيعة مع احتلالهم للمناصب العليا[5]، وفي هذا السياق

1- Francisco Javier Simonet. Historia de los Mozarabes de España,obra premiada en publicico certmen de la La Real de Academia de la historia y publicda a sus expensas, Madrid, 1903- 1998, p 33.

2- حسين يوسف دويرار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي(138-422هـ/577-1030م) مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى،1994، ص15.

3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص33.

4- الحميري، المصدر السابق، ص342.

5-السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، طبعة 1981، ص122، محمد بن عبود، المرجع السابق، ص20

نورد عائلات أندلسية تمتعت بنفوذ كبير، كأسرة بني سعيد في غرناطة، وأسرة ابن رشد في قرطبة، و بني زهرفي إشبيلية[1]، فارتبطت هذه الأسر ببلاط الحكام، وكسبت مكانتها الاجتماعية، وحظيت بالتوقير والحب من جانب السلطة، وقد جاء في تراجم هؤلاء ما يثبت ذلك.

غير أنه في حقبة موضوع الدراسة لوحظ بأن العرب قد تأثروا كثيرا بالفتن والحروب وبهجمات النصارى على المدن الأندلسية وسقوطها في أيديهم؛ مما أدى إلى تغيير مواطن استيطانهم ونزوحهم إلى المناطق المجاورة بحثا عن الأمن، فينبّه" ابن فرحون المالكي" إلى الفقيه أبي محمد عبد الحق الاشبيلي(ت 581هـ/1185م) الذي غادر بلده عند الفتنة الواقعة بالأندلس[2]، فيما يعبّر "ابن الأبار" عن ازدرائه من الحياة الجديدة بعد هجرة وطنه بلنسية بقوله :

من بحر البسيط

اَبْكي عَلَى اسْتئْــــصَال منْ خلقَته	وَاَطيلُ في الاَسْحَــــــــار وَالآَصَال
حَتَّى إذا فَارَقـــــــتُ اَرضَهُـــــم الّتي	كَـــانَـــت عقَـــالًا ثَانيًا كَعــــــــقَالي
وَدَعَـــاني الشَوْقُ المُذيبُ جَوَانحي	لمَــــنَـازلي فَاجَـــبتُهُ وَجَــــــــلّالي[3]

والواضح أنّ نزوح العديد من الأندلسيين إلى المناطق الأخرى، كان بسبب سقوط المدن وتعميرها من طرف النصارى الذين وجدوا في جلاء المسلمين فرصة سانحة لإعادة إعمار المدن؛ فالمؤرخ "ابن الأبار" كان واحدا ممن عاصر محنة سقوط بلدته بلنسية في أيدي النصارى سنة 636هـ/1238م فكتب شعرا يرثي فيه بلنسية قائلا:

1- ابن رشد(الجد)، أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد، فتاوي ابن رشد، قديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، السفر الأول، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1987، ص203.

2- ابن فرحون، أبو الوفا إبراهيم بن علي العمري المدني، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1966، ص277.

3-ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية،1986، ص 250/ جمعة شيخة، المقال السابق، ص44.

من بحر البسيط

يَا لَلجَزِيرَةِ أَضحَى أَهلُهَا جُزُرًا لِلحَادِثَاتِ وَأَمسَى جِدُّهَا تَعَسًا
تَقاسَمَ الرُّوُم لاَ نالَتْ مَقَاسِهُمْ إلاَّ عَقَائِلُهَا المَحْجُوبَةٌ أُنُسًا
مَدَائِنُ حَلَّهَا الإِشْرَاكُ مُبْتَسِمًا جَذْلاَنَ،وَارْتَحلْ الإِيْمَانَ مُبْتَئِسًا
يَا لَلمَسَاجِدَ عَادَتْ للعِدَا بَيِعًا وَلِلنّدَاء غَدًا أَثْنَاءُهَا جَرَسًا[1]

لقد أصبح أهل الأندلس عرضة لحوادث الدهر، حينما أقدم الروم على احتلال مدنها، وانتهاك حرمة مساجدها، وهددت الفتن وحروب الموحدين مع النصارى استقرار الأندلسيين في مدنهم وأجبرتهم على الارتحال بحثا على الأمن وهروبا من المضايقات التي تعرضوا لها من طرف النصارى.

2-عرب بني هلال

عرفت الأندلس في حدود القرن الخامس الهجري دخول قبائل عربية من بلاد المشرق وهي عرب بني هلال التي غزت إفريقية خلال القرن الرابع الهجري، وهي قبائل مشاغبة شغلت بال الخليفة الفاطمي المستنصر بالله(427-500هـ/1047-1106م)، ولذلك فكر أحد وزرائه في مصالحة تلك القبائل وإرسال رجالها إلى إفريقية لمحاربة قبائل صنهاجة والتخلص منها[2].

دخلت تلك القبائل مع سنة 442هـ/1050م، للقضاء على دولة بني زيري، ويبدو أنّ أعدادهم كانت ضخمة بلغت مائتي ألف نفس، وأنها اتخذت شكل موجات متتابعة بدأت الدفعة الأولى التي شجعها الفاطميون على غزو افريقية، ثم تلتها هجرات عربية أخرى

1- ابن الأبار، المصدر السابق، ص395.
2 - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،1992، ص247.

حتى يشاركوا فيما ناله من سبقهم من مغانم وأموال، وظلوا مصدر القلق في افريقية يقومون بعمليات نهب وتدمير عند دخولهم لأي مدينة، فأحدثوا بتلك البلاد آثارا مدمرة[1].

كان جواز قبائل بني هلال إلى بلاد الأندلس في عصر المرابطين وذلك في حدود سنة490هـ/1096م[2]، عندما أقدم يوسف بن تاشفين(453 - 500هـ/1061 -1106م) في جوازه الثالث إلى الأندلس على إدخال العرب الهلالية ومشاركتهم في موقعة أقليش[3] سنة 502هـ/1109م، ولكن المصادر التاريخية المطلع عليها لم تفدنا بشيء عن هذه القبائل، فهل بقيت في الأندلس مدة معينة أو أنها رجعت إلى العدوة المغربية مع الجيوش المرابطية؟.

يصرح المؤرخ "عبد الواحد المراكشي" أنّه بدخول الموحدين إلى الأندلس نقلوا معهم أعدادا كبيرة من تلك القبائل، فالخليفة عبد المؤمن عندما أراد العبور إلى جزيرة الأندلس؛ استنفر أهل المغرب عامة، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحي بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر فاستجاب له منهم جمع ضخم "[4].

أعجب عبد المؤمن بن علي بشجاعة العرب عندما اصطدم بهم لأول مرة عند افتتاحه لمدينة بجاية سنة 540هـ/1145م[5]، ثم المهدية سنة 553هـ/1161م[6]، فاستطاع أن يستميلهم إليه بالعفو عنهم تارة وبالإغداق عليهم تارة أخرى حتى أضحى في جيش الموحدين فرقة من العرب الهلالية[7].

---

1 - حسن محمد حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس «عصر المرابطين والموحدين «مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى،1980، ص308/ مبارك ابن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج2، (د.ت)، ص181.

2 - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص40

3 - أقليش مدينة بالأندلس من أعمال شنتبرية، وكانت ملكا للإفرنج، دارت معركة في حصن أقليش بين المرابطين والنصارى انتهت بانتصار المرابطين، ياقوت الحموي،المصدر السابق، ج1، ص237/ ابن القطان، المصدر السابق، ص63.

4 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص166.

5 - المصدر نفسه، ص152.

6 - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص197.

7 - فتحي زعروت، الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى،2005، ص117.

عرف عن هذه القبائل شغفهم بالحروب والرغبة في اكتساب الغنائم والأموال، ولهذا تطلع الخليفة عبد المؤمن لاكتساب طاقاتهم بعد أن اشتدّ عدوان النصارى وحلفائهم من المسلمين على ولايات الموحدين الأندلسية[1]، ولأنه كان يعرف صفات هؤلاء العرب وتميزهم بالشغب وإثارة الفوضى أجاز بهم إلى الأندلس حتى يشغلهم بأمر الجهاد، فكانت بذلك قبائل بني هلال هي أولى القبائل التي جازت إلى الأندلس ثم تلتها باقي القبائل المكونة من البربر[2].

عمل الموحدون على توطين كل العناصر التي عبرت معهم إلى الجزيرة، حيث أقدم عبد المؤمن بن علي عند جوازه على بناء مدينة جبل الفتح سنة 555هـ/1160م كموقع عسكري متقدم بالنسبة لجيوش العدوة المغربية عند عبورها إلى الجزيرة، ومن ثم أخذ يرتب تلك الجماعات ويعين مواضع مكوثها "فجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها[3]، وسكن البعض الآخر في بلنسية"[4].

والظاهر أن عملية استقرار عرب بني هلال في إشبيلية، قد نجم عنها ضغط سكاني كبير بالمدينة، أدّى ببعض فئات العامة إلى جعل المقابر مكانا لإقامتهم[5]، وفي ذلك رواية "لابن عذاري" يبين فيها أن الناس اشتكوا من ضرر السكن بالجبانة، ولم يكن أمام الموحدين من حل سوى إخراج " أهلها عن ديارهم وعوضوهم في المدينة، وكان هذا على الناس أشد من قتل نفوسهم وزيادة في كثرة همومهم وبؤسهم"[6].

وبذلك غير مستبعد أن يكون لتلك القبائل العربية المستقرة في الأندلس زمن الموحدين الأثر في ضيق العديد من المدن، بسبب حصول نزيف بشري أدى إلى تغير البنية الديموغرافية للمدينة، خاصة وأنّ تلك القبائل بقيت بتلك المواضع و انتشر من نسلهم خلق كثير حسب رواية أحد المؤرخين: " وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك

1-عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص222.
2- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص213.
3 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص167.
4- البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت، ص89.
5 - ابن عذاري، المصدر السابق، ص39.
6 -المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة وريح وجشم بن بكر وغيرهم نحو خمسة آلاف فارس سوى الرجالة"[1].

وبرز في العصر الموحدي دور عرب بني هلال التي احتلت منزلة بين طبقات المجتمع الموحدي، وكان هؤلاء العرب قوة فعالة في جيوش الدولة الموحدية، وقد عمل الحكام على استمالتهم آملين أن يخلدوا إلى الهدوء وان يكونوا ضمن الجيوش المجاهدة في الأندلس، ولذلك اتبع خلفاء عبد المؤمن بن علي سياسة اللين مع العرب، ليتمكنوا من السيطرة عليهم واستغلال كل طاقاتهم الحربية التي عرفوا بها وذلك عن طريق تقديم الهبات فكان" يأمر للفارس الكامل منهم خمسة وعشرين دينارا وغير الكامل خمسة عشر دينارا، والراجل سبعة دنانير"[2].

وقد ظهرت هذه القبائل كقوة محاربة في عهد الحاكم أبي يعقوب يوسف الذي بذل جهودا مضاعفة في سبيل استنفارهم للمشاركة في الجهاد، كما نجد أنّ الحاكم يعقوب المنصور عمل على جلب هؤلاء العرب عن طريق تقديم المال، وفي ذلك يزودنا "ابن عذاري" بنص في غاية الدلالة عن إحسان يعقوب المنصور إليهم بقوله:"وهؤلاء العرب تدارونهم وتلاطفونهم وتحسنوا إليهم ومن وفد عليكم منهم تعطوه وتحسنوا إليه غاية الإحسان وتشغلونهم بالحركات ولا تتركونهم للعطلة والراحات"[3]، ولكننا نجده يندم في آخر حياته على إدخاله لعرب بني هلال إلى المغرب لأنّه كان يعلم بأنهم أهل فساده بقول "ابن أبي زرع": "لما اشتد المرض بالمنصور قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأني أعلم أنهم أصل فساده"[4].

لا مراء في أنّ قبائل بني هلال شكلت أحد أهم عناصر الجيش الموحدي، ومن مظاهر قوتهم العسكرية هو دورهم البارز في القضاء على ثورة ابن مرذنيش حينما حاصر لورقة

---

1 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص167.
2 - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص348.
3 - ابن عذاري، المصدر السابق، ص232.
4- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص230.

وضيق على أهلها، وكان الانتصار حليف الموحدين الذين انتصروا في موقعة الجلاب سنة (567هـ/1171م) وقتلوا من معه[1].

ورغم تمتع العرب الهلالية بالشجاعة ومشاركتهم الفعالة في رد عدوان النصارى[2]، إلاّ أنّ ميلهم للشغب وحبهم للفوضى وعدم الطاعة كانت السمة الغالبة عليهم، وقد ورد نص"للزركشي" يؤكد عدم انصياغ عرب بني هلال لأوامر الخليفة عبد المؤمن بن علي عند عبورهم للجهاد بالأندلس، ونقضهم للعهد الذي اتفقوا عليه مع عبد المؤمن بقوله:" وأحضر أمراء العرب وأحلفهم في مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والسير معه إلى الأندلس لقتال العدو فلما ساروا نكثوا إيمانهم"[3].

3-البربر

عرفت الأندلس منذ الفتح الإسلامي توافد هجرات عديدة من البربر بهدف الجهاد، ومما لا شك فيه فقد شكلوا الأغلبية الساحقة من عدد الفاتحين وذلك لقرب بلادهم من الأندلس، مما سهل توالي هجراتهم إليها واستقرارهم فيها بعد الفتح في كافة نواحي الأندلس[4]، وخاصة في المناطق الشمالية المواجهة للنصارى[5].

إنّ توافد القبائل البربرية إلى الأندلس بهدف الجهاد تميز بالاستمرارية والكثافة من الفتح إلى القرن الخامس الهجري وازداد بكثرة مع دخول المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، حيث شهدت الفترة الأخيرة من القرن5هـ/11م تدفق هجرات كثيفة للعنصر البربري، وكانت أكثرها عددا سنة 535 هـ/1140م،حتى أن المؤرخ "ابن عذاري" وصف

---

1 - البيدق، المصدر السابق، ص88.

2- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص403.

3- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن لؤلؤي (ت بعد 932هـ/1525م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى، 1998، ص29.

4- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1982، ص443.

5- عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(92-422هـ/711-1031م)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2011، ص50.

تلك الهجرات "بالانجلاء العظيم إلى الأندلس"[1]، ولا يستبعد أن يكون انعدام ظروف الأمن وكثرة المجاعات التي شهدتها الأندلس أواخر عصر المرابطين، وراء جعل هذه الجموع البربرية تيمم وجهها شطر الأندلس، وعلى كل حال فإنّ هذه الأمواج البشرية الجديدة أضيفت إلى مجموع سكان البربر في الأندلس[2].

وقد استوطنت تلك القبائل البربرية في العديد من المدن الأندلسية، بقول "ابن أبي زرع":"سنة 580هـ/1184م أمر أمير المؤمنين الناس بالجواز إلى العدوة الأندلسية فجازت قبائل العرب أولا ثم قبائل زناتة ثم قبائل المصامدة ثم غمارة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر "[3].

واستنادا على ما ذكره "ابن أبي زرع" فإنّ هجرات هذه القبائل قد بينت الوضعية الديموغرافية الصعبة التي صارت عليها الأندلس بجواز القبائل البربرية والعربية معا، خاصة إذا علمنا أن الخليفة عبد المؤمن بن علي، قد ترك تلك المجموعات هنالك وعاد إلى العدوة المغربية ومن ثمّ تثبيت عملية الاستيطان.

وأقدم أبو يعقوب يوسف على تقسيم تلك القبائل وتعيين مواضع مكوثها في المدن التي عرفت اضطرابا وعدم الاستقرار خاصة الجهة الشرقية، حيث" أسكن زناتة بلنسية، وأسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وأسكن أهل تينملل لورقة، وأسكن في برشانة كومية"[4]، هذا ونالت مصمودة مكانة مميزة من بين القبائل البربرية الأخرى بعد قيام الدولة الموحدية، وذلك كونها من أولى القبائل التي شاركت في دعوة المهدي بن تومرت وساندته بالمال والرجال في بدايتها[5].

1- ابن عذاري، المصدر السابق، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة،1983، ج4، ص98.
2- إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص35.
3- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص213.
4- البيدق، المصدر السابق، ص89.
5- نوارة شرقي، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524/ 667هـ/1126-1267م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر،2008، ص30.

والواضح من توزيع البربر على تلك النواحي أنه لم يكن اعتباطيا وإنما الهدف منه هو السيطرة على جزء كبير من شرق الأندلس، خاصة من طرف المصامدة الذين شكلوا الأغلبية الساحقة[1]، كما أنّ تثبيت استيطانهم في هذه الجهة يثبت تكالب النصارى على أرض الأندلس مما جعل الموحدين يركزون تواجدهم في وجه الفتن والاضطرابات وهجمات العدو.

ومما لا شك فيه فإنّ هجرات البربر إلى الأندلس قد اشتدت مع دخول المرابطين وزادت مع الموحدين، ولعل هذا النزوح الرسمي والشعبي المتواتر نحو الأندلس يفسرحدوث ضغطٍ سكانيٍّ كبيرٍ، قد خلّف نتائج كثيرة أحدثت تغييرا في التركيبة البشرية، فضلا عن تغيير مواطن استقرار أهل الأندلس، فحلت محلها عناصر بربرية وهذا ما حدث في مدينة باجة سنة 570هـ/1174م عندما استعاد الموحدون هذه المدينة من النصارى أعادوا إليها أهلها واسكنوا معهم قبائل من الموحدين، وفي ذلك رسالة لأبي يعقوب يوسف وجهها لأهل باجة يصرح فيها: "تمشون إن شاء الله إلى بلدكم وتسكنونها بعد نظرنا لكم في زوال روعكم والتئام صدعكم، ويرجع جند أهل بلدتكم وريعتها، وأهل تلك الحصون المجاورة لكم للاستيطان بها كما كنتم ونتبعكم أثر هذا بقبيل من الموحدين المنجدين بفرسانهم ورجالهم يسكنون معكم بأولادكم وعيالهم"[2].

ولا يستبعد أن تكون الفترة التي شهدت فيها العديد من المدن الأندلسية ازدحاما من قبل البربر، قد تزامن مع وقوع وباء الطاعون بالمغرب وذلك في حدود عام 571هـ/ 1175م عندما أقبل أهل مراكش على الهجرة هروبا من هذا الوباء[3].

والظاهر أن العنصر البربري في عصر الموحدين قد أخذ مكانه وسط شرائح اجتماعية متعددة، وتعزز نفوذه خاصة من قبائل مصمودة بل وأصبح يطلق على الدولة

1-البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص30 / علي عبد الله علام، الدولة الموحدية على عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف،القاهرة،1971،ص224.
2-ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص132.
3-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الموحدية اسم دولة المصامدة[1] نسبة إلى أكبر قبيلة بربرية، وهذا ما يدل على النفوذ التي تمتع به المصامدة في المجتمع الأندلسي، خاصة وأنّ عبد المؤمن بن علي لما عاد إلى مراكش "كان قد ملك من أقطار جزيرة الأندلس و ترك بها رجالا من المصامدة"[2]، ومن ثمّ امتدت سيطرة الموحدين على الأجهزة الاستشارية والإدارية خاصة العسكرية .

ويبدو أنّ البربر الوافدين للأندلس قد احتفظوا بلغة تخاطبهم البربرية ويظهر ذلك جليا في لغة الخطاب والتي كانت باللسان البربري[3]، وفي بعض المأكولات التي حملت أسماء بربرية كالطبخة الصنهاجية[4]، فضلا عن اختلاط العرب بالبربر عن طريق المصاهرة، وذلك بالزواج الذي تم بين العرب والبربر، إلاّ أنّ هذا الواقع لا يعكس أبدا الصراع الذي ظل قائما بينهما منذ الفتح الإسلامي[5] واستمر إلى غاية الوجود الموحدي بالأندلس، وفي هذا إشارة للفيلسوف ابن رشد الحفيد[6] (ت 595هـ/1198م) الذي يعبر عن كرهه للبربر في كتابه قائلا:"وأما البغضة والعداوة فإنها تكون للجنس فإنّا نبغض البربر ويبغضوننا"[7].

وقد طالعنا أحد الباحثين عن أحوال هؤلاء البربر الذين تولوا أعلى المناصب في الدولة كالوزارة والقضاء[8]، مقابل ذلك يصرح "ابن رشد "الحفيد في كتابه بالمنافرة التي كانت بين العرب والبربر في المجتمع، وأنّ ما قام به الحاكم أبو يوسف يعقوب المنصور اتجاه ابن رشد لما بلغه من وصفه له بملك البربر في كتابه "الحيوان" عند وصفه للزرافة إلاّ دليلا على ذلك، عندما قال:" وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر ويعني

1- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص147،146.
2- المصدر نفسه، ص164.
3- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص524.
4- ابن رزين التجيبي، أبو الحسن بن علي الأندلسي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان،حققه وقدم له محمد بن شقرون،دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الثالثة،2012، ص193.
5- Pierre Guichard, Structures sociales « orientales et occidentales » dans L'Espagne musulmane, civilisation et societé, Mouton, Paris, 1977-p315
6-هو محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن رشد القرطبي، يكنى أبا الوليد الحفيد، كان متقدما في علم الفلسفة والطب توفي عام 595هـ /1198م، ينظر ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى،1998، ص480/ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، السفر السادس، ص21.
7- ابن رشد(الحفيد)، أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد القرطبي، تلخيص الخطابة لأفلاطون، تحقيق محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، طبعة 1967، ص311.
8-عبد القادر بوبابة، المرجع السابق، ص181.

المنصور،مما أدى بالحاكم يعقوب المنصور إلى النقم عليه وإبعاده بالرغم من أنّ ابن رشد قدم اعتذاره وان الأمر مجرد تصحيف لكلمة "ملك البرين" وليس "ملك البربر"[1].

غير أن هذا التبرير الذي قدمه ابن رشد للحاكم يعقوب المنصور، لا يغطي أبدا ذلك الكره الذي كان يكنه العرب للبربر منذ الفتح الإسلامي لغاية حقبة موضوع هذه الدراسة، وقد ورد ذلك في أكثر من موضع حينما ينعت البربر من طرف الأندلسيين بصفات غير لائقة [2].

4-المولدون

بعد الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس،وامتزاج دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد،نشأ جيل جديد عرفوا بالمولدين أو الأسالمة،فأسلموا وتدينوا بالإسلام،وقد سكن العديد منهم في البوادي[3]، واحترفوا مهنا متنوعة كتربية المواشي والزراعة والصيد وصناعة السفن[4]، فكانوا يمارسون حياتهم اليومية كغيرهم من سكان الأندلس[5].

شكل المولدون نواة هامة من مجموع العامة وكان لهم دور بارز في المجتمع الموحدي، وقد احتفظت بعض العائلات المولدية على أسمائها الاسبانية مثل بني قسي[6]، وبني مرذنيش، ورغم إسلامهم إلاّ أنّ ذلك لا يخفي حقيقة تعصبهم لأصلهم الإسباني، ويظهر ذلك في تحالفهم مع النصارى في العديد من المرات، مع ميولهم للإنفصال عن السلطة وقيامهم بتمردات وثورات متعددة، مستغلين ضعف الدولة المرابطية.

1- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص480/عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224.
2- قيل عن البربر: «البربري والفار لا تعلمهم باب الدار"،الزجالي، المصدر السابق، ص45، مثل رقم 175.
3- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، بيوتات فاس الكبرى، نشره عبد الوهاب بنمنصور، دار المنصور، الرباط، 1972، ص24/ابن الأبار، المصدر السابق، ص197.
4- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص24.
5- URVOYD, une étude sociologique des mouvements religieux dans l'Espagne musulmane de la chute du califat au milieu du XIIIe siècle, una mézcla de la casa de Velázquez –Madrid, 1972page 248
6- منهم الثائر أحمد بن الحسن بن قسيّ يكنى أبو القاسم، من بادية شلب، وهو من أصل رومي، عمل تاجرا ثم تزهد وباع وباع ممتلكاته وتصدق بثمنها، وساح في بلاد الأندلس، لقي ابن العريف وقرا كتاب الغزالي وكان لابن قسي مريدون ادعى الهداية وتسمى بالإمام، قتله ابن المنذر سنة 546هـ/1151م، ابن الأبار، المصدر السابق، ص197/ ابن خلدون، المصدر السابق، ص276.

لعب المولدون في العصر الموحدي دورا كبيرا في الحياة السياسية، وتمكنوا من إقامة دويلات مستقلة عن السلطة، فقد شهدت الفترة الأولى من الحكم الموحدي انطلاق ثورات مولدية قوية، لعب فيها الطموح الشخصي لهذه الفئة، الدور البارز في ظهور تلك التمردات، ومن ذلك نذكر ثورة أحمد بن قسي الذي كان يطمح لإقامة دولة مستقلة، عندما أعلن ثورة المريدين من شلب ضد المرابطين في أواخر حكمهم للأندلس عام 539هـ /1144م، عرفت بثورة المريدين[1].

تزعم ثورة المريدين ابن قسي وطائفة كبيرة من المتصوفة، وبإعلانه للثورة اتصل به جماعة من أعيان شلب منهم ابن المنذر[2]، الذي يعتبر من أشهر البيوتات المولدية في شلب، وسيدراي ابن وزير القيسي، فازدادت قوة ابن قسي بانضمام أعيان شلب، فأعلنوا الثورة على المرابطين في أخر أيامهم، واستولوا على حصن مارتلة[3]، وامتدت ثورته لتصل إلى قرطبة واشبيلية، لكن قوات المرابطين أوقفت زحف الثوار مما جعل ابن قسي يستعين بالموحدين في بلاد المغرب فاجتاز البحر إلى عبد المؤمن الذي قام بدوره بإرسال جيش من الموحدين إلى شلب وفتحوها عام 540هـ/1145م وعينوا ابن قسي واليا عليها، ويبدو أنّ ابن قسي لم يتخل عن طموحه في إقامة دولة أندلسية مستقلة بعيدا عن سيطرة المغاربة؛ "فالروح الوطنية والنزعة القومية مازالت تتأجج في أعماق النفوس في العدوة الأندلسية"[4].

الأندلسية"[4].

1- ابن الأبار، المصدر السابق، ص198/السلاوي، المرجع السابق، ج2، ص117/ هشام أبو رميلة، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدولة الإسلامية في الأندلس، الطبعة الأولى، الأردن، مطبعة جمعية دار العمال التعاونية (د.ت)، ص70/ لخضر محمد بولطيف، المرجع السابق، ص149.

2- هو محمد بن عمر بن المنذر، من بيت قديم في المولدين، كان من أحسن الناس وجها، ولازم التعليم باشبيلية في صغره حتى تميز بالمعارف الأدبية والفقهية، وولي خطة الشورى ببلده، تزهد وتصدق بماله وصاحب أحمد بن قسي الداعي،ابن الأبار، المصدر السابق، ص203.

3- هو حصن على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس، الحميري، المصدر السابق، ص521

4-C heikha ,Jomaa , Silves(Shilb) Alongo de Historia Segundo as Fonts Arabes , Xarajib N .2 , 2002 , p. 45

فهذا الطموح الشخصي جعل ابن قسي يرجع عن دعوة الموحدين بعد تعيينه واليا على شلب، ويتحالف مع ملك البرتغال ألفونسو إنريكوس[1]، مما أثار عليه أهل شلب بقيادة ابن المنذر، الذي دبّر مع أعيان شلب أمر التخلص من ابن قسي، وتمّ لهم ذلك في حدود سنة 546هـ/1151م[2].

و يرجح أن تكون العصبية المولدية هي الدافع الرئيس الذي أنعش هذه التمردات خاصة وأنّها اندلعت في المرحلة الأخيرة من الحكم المرابطي[3]، والذي شهد ت فيه الأندلس أوضاع اقتصادية واجتماعية متدهورة أدت إلى وقوع ثورات عديدة في العديد من المدن الأندلسية[4]، و يبدو رأي أحد الباحثين أقرب إلى الصواب في نظرنا، عندما اعتبر ثورة المولدين ثورة ذات طابع قومي، فعكست بذلك التذمر الناتج عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الدولة المرابطية في أواخر أيامها بالأندلس[5].

وما ثورة ابن مرذنيش الذي ملك شرق الأندلس و كان مناهضا للسلطة الموحدية، وثورة ابن همشك[6]الذي تحالف مع اليهود ضد الموحدين، إلاّ دليلا قاطعا على مناهضة المولدين للسلطة منذ عصور سابقة ورغبتهم في الانفصال عنها، وفي تأسيس إمارة مستقلة لفترة زمنية طويلة، إلّا أنّ نزعتهم المتأصلة للثورة كانت الرغبة منها إيجاد كيان مستقل لهم وسط المجتمع الإسلامي[7]، وهذا ما يبين عصبيتهم القومية وتحالفهم مع قوى النصارى مما ساهم في انحلال وإضعاف سلطان الموحدين؛ وللأسف لم يقف المولدون ككتلة واحدة

1- وتسميه المصادر التاريخية ابن الرنك، وهو ملك البرتغال، بعد عقده للتحالف مع ابن قسي أهداه فرسا وترسا، ينظر ابن عذاري، المصدر السابق، ص201/ابن الأبار، المصدر السابق، ص207.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- ينظر محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، دار البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر،2011، ص187

4- رباح حامد بحر، الشعر في شلب، من عصر الطوائف حتى سقوطها، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها قدمت بجامعة الخليل، فلسطين،2009، ص23.

5- إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص44.

6- هو إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك، يكنى أبا إسحاق، لقب بهذا الاسم نسبة إلى جده همشك النصراني الذي أسلم، أسلم، وهمشك معناها مقطوع الأذن، حارب ابن همشك الموحدين مع ابن مرذنيش، توفي بمكناس عام 572هـ/1176م، ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص125.

7-تواتية بودالية، البيئة في الأندلس عصري الخلافة الأموية وملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2014، ص108.

لمواجهة الأعداء النصارى بل تحالفوا معهم ضد السلطة الموحدية لإضعافها والوقوف شوكة في جنبها لغاية سقوطها.

5-العبيد

ضم المجتمع الأندلسي في العصر الموحدي كغيره من المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط، طبقة العبيد والتي شكلت عنصرا أساسيا في بناء عناصر العامة، وقد احتلت أدنى طبقة في السلم الاجتماعي، غير أنّرصد معلومات تفصيلية عن العبيد خلال الحكم الموحدي لبلاد الأندلس يبقى ضئيل جدا، نظرا لشح المادة التاريخية وتبعثرها في ثنايا نصوص المصادر التاريخية.

وعلى الرغم من الدور الذي قام به العبيد في الأندلس نظرا لحاجة القصور إلى خدمتهم، تمّ استعمالهم بكثرة كطاقة حربية لخدمة الجانب العسكري خاصة وأنّ الدولة الموحدية قد قادت حملات عسكرية عدة لمواجهة أعدائها، فقد شكل العبيد غالبية الجيش الموحدي[1]، كما تمّ استعمالهم في المجال الزراعي[2]، وفي عملية البناء وتزيين حدائق الحكام[3]، فتحملوا بذلك أعباء البناء وأسندت إليهم كل الأعمال الشاقة غير أنّ المصادر التاريخية لا تشيد بدور هذه الطبقة إلا نادرا.

ونظرا لتوفر العبيد بكثرة فقد تم تسخيرهم في الخدمات المنزلية وجميع الأعمال[4]، وللإشارة فقد تمتعت دور الفقهاء والعلماء بالعبيد والخدم؛ وقد وردت إشارة عند" ابن عسكر" في ترجمته لأحد فقهاء مالقة وهو أبو بكر يحي بن الحسن بن محمد بن أحمد القيسي(ت 621هـ/1224م)؛ الذي كان لديه "خدام يتفقدونه بحوت نفيس رغبة في وجاهته

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص225/محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص310.

2- OULD TELMIDI Mohameden « L’esclavage entre le phénomène et le texte sublime : Analyse, discussion de l’œuvre d’Ahmed Baba Toumboucti ; OUSSOUR Aljadida-n10-2013, p28-29.

3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2،ص136.

4- أبو حامد الغرناطي، المصدر السابق، ص43.

وطلبا في عنايته"[1]، كما كان" يحسن إليهم ويقسم عليهم المال"[2]، وبالتالي يتضح من خلال النص أن مسألة امتلاك العبيد وتسخيرهم لخدمة البيوت في الأندلس كان أمرا طبيعيا، بينما ضمت بلاطات الموحدين أكبر عدد من العبيد حتى أطلق عليهم عبيد الخاصة[3]، لأنهم اختصوا بقصور وبلاطات الطبقة الحاكمة فكانوا يلبون كل احتياجاتهم، لذلك تطلبت القصور توفّر عدد ضخم من الرقيق، فانتشرت بذلك تجارة العبيد[4]، إذ وفرت أسواق النخاسة والتي غالبا ما أشرف عليها اليهود[5] موردا مهما لهم، بل أصبحوا يباعون بأبخس الأثمان نظرا لكثرتهم حسب ما يفهم من رواية "ابن سعيد"[6].

أسند ت للعبيد كل الأعمال الشاقة، وظلوا موضع السخرية، ولم يتورع الشاعر أبو القاسم بن العطار[7] أحد أدباء اشبيلية، عن التعبير على مقته وكرهه للعبيد عندما دخل الحمام الحمام وجلس إلى جانبه غلام جميل الصورة ثم قام وقعد في مكانه عبد أسود فقال:

من بحر الكامل

مَضَتْ جَنَّةُ المَأْوَى وَجَــــاءَتْ جَهَنَّمُ فَهَا أَنَا أَشْقَى بَعْدَ مَا كُنْـــتُ أَنْعَـمُ

وَمَا كَانَ إلاَّ الشَّمْـــــسَ حَانَ غُرُوْبُهَا فَأَعْقَبَهَا جَنْــحٌ منَ الَّليْل المُظْلِــم[8].

5- ابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، ودار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى،1999، ص367.

6-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص176.

2- OULD TELMIDI Mohameden, op-cit, p29

3-إبراهيم القادري بوتشيش، مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ضمن كتاب الإسلام السري في المغرب العربي، ص235/عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي (22-462هـ/ 662-1070م)، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001، ص94

4-اشترك أبو جعفر احمد بن عبد الملك مع عثمان بن عبد المؤمن في هوى حفصة الركونية، التي أحبت عثمان بن عبد المؤمن" وكان اسود اللون، فبلغه أنّآبا جعفر قال لها ما تحببين في ذلك الأسود وأنا أقدر اشتري لك من السوق بعشرين دينارا خيرا منه" والمقصود هنا هو العبيد السود الذين امتلأت بهم الأسواق حتى بيعوا بعشرين دينارا، ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص136.

5-لم أقف على تاريخ وفاته.

6-ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، الطبعة الأولى،1987،ص61.

وبقيت نظرة الاحتقار والازدراء تلاحق العبيد من طرف العامة ومختلف العناصر الأخرى، والتي عبرت عن ذلك في أمثالها الشعبية بنوع من السخرية، فقالت:" أسود على أسود، هم لا يرفد "[1]، وأيضا"من خالط الخدم، ندم"[2]، و"الخديم ما يولي نديم"[3].

بالمقابل هناك من العبيد من ربطته علاقة ودية مع سيده وحسن المعاشرة، فنجده يشرف على تجهيز بنت أحد خدمه بعد أن توفي والدها فأشرف على تكاليف زواجها[4]، وتمتعت بعض الجواري بقسط وافر من اهتمام أسيادهن، فكانوا يشرفون على تأديبهن وبيعهن بأغلى ثمن حتى وصل سعر إحدى الجاريات المؤدبات ألف دينار[5]، وفي السياق نفسه ينبّه "ابن سعيد" إلى امتلاك أبو علي بن يبقى[6] لجارية فقام بتأديبها وتعليمها الغناء[7].

وبهذا يمكن القول بأنّ العبيد لم يقتصر دورهم على الأعمال المنزلية أو البناء، فقد أشار أحد المؤرخين إلى دورهم البارز في مبايعة الحكام[8]، باعتبارهم أحد العناصر الأساسية في المجتمع، غير أنّ هذه الشريحة في العصر الموحدي لم تحظ باهتمام المؤرخين لأنهم لم يقوموا بأي حركة مناهضة للسلطة لهذا لم يلتفت إليهم أهل القلم وكتاب البلاط .

6-الصقالبة:

7-الزجالي، المصدر السابق، ص64، مثل رقم262.
8-المصدر نفسه، ص329، مثل رقم1420.
9-نفسه، ص29، مثل رقم109.
1-ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص368.
2-ابن الزبير، أبو جعفر احمد بن إبراهيم بن الزبير، صلة الصلة، ضبط وتعليق جلال الأسيوطي، المجلد السادس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2008، ص369.
3-لم أقف على ترجمة وافية لأبي علي بن يبقى ولا على تاريخ وفاته، كل ما ذكره ابن سعيد أنه ولي أعمال مالقة حين كان واليها أبو العلاء مأمون بن عبد المؤمن الموحدي سنة 624هـ/1226م، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص354.
4-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5-ابن عميرة، أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي، رسائل ابن عميرة الديوانية (القرن السابع الهجري) دراسة وتحقيق أحمد عزاوي، مطبعة الرباط، الطبعة الأولى، 2008 ص32-33.

الصقالبة أجناس كثيرة ومختلفة[1]، وفي الأصل هم رقيق من أوربا كان يشتريهم المسلمون ليزيدوا بهم جيوشهم عددا وقوة، وليكونوا خدما داخل القصور، فيجلبون من أسرى الحروب، ويباعون رقيقا بأرض الأندلس[2]، وأطلقت عليهم المصادر التاريخية أسماء أسماء مختلفة كالفتيان[3]، أو الخصيان، وقد تزايد عددهم بمرور الوقت، وجاء أغلبهم أطفالا أطفالا من الجنسين، وتطور الأمر إلى استخدامهم في الحرس والحاشية والجيش، فأخذت أعدادهم تتزايد بكثرة[4].

كان استخدام الصقالبة في الأندلس منذ العهد المرابطي، عندما سعى يوسف بن تاشفين إلى تقوية جيشه والاستفادة من تقنياتهم العسكرية، خاصة وأنهم تدربوا على استخدام السلاح من الدروع والبيضات والسيوف[5].

ويبدو من خلال أمثال العوام أنهم لم يكونوا منسجمين مع المجتمع الأندلسي في العصر الموحدي، وأصبحوا موضع السخرية وأظهروا تعصبهم اتجاه الصقالبة ويظهر ذلك من خلال أمثالهم الشعبية، فوصفوهم بالكسل وخلودهم للقيلولة في فصل الشتاء؛ وهذا كناية عن الخمول بقولهم "لس يقال للفتى فتى، حتى يقيل في الشتا"[6]، مع كثرة كلامهم " غنى الفتيان عشرة يقفز وواحد يستمع"[7].

غير أنه ثمة إشارة تبين بأن الحكام الموحدين قد قربوا الصقالبة إليهم سواء كان ذلك في الحاضرة مراكش[8]، أو في بلاد الأندلس، عندما قاموا بتدريبهم على أعمال القصر وفي إشارات" لعبد الواحد المراكشي" ما يثبت ذلك، عندما أشار إلى وجود خصيان قد تولوا

1- محمد بن علي البرسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،2006، ص436.
2- المقري، المصدر السابق، ج1، ص145.
3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص21.
4- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص259.
5- محمد بن علي البرسوي، المصدر السابق، ص436.
6- الزجالي، المصدر السابق، ص270،مثل رقم1166.
7- المصدر نفسه، ص393، مثل رقم 1718.
8- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص324.

منصب الحجابة لحكام الأندلس منهم كافور الخصي[1]، الذي كان أحد حجاب أبي يعقوب يوسف وعنبر الخصي[2]، وريحان الخصي[3]حاجبا أبي يوسف يعقوب المنصور[4].

كما يزودنا "الحميري" بنص في غاية الدلالة على تقريب الحاكم يعقوب المنصور الموحدي للصقالبة عندما قام سنة 596هـ/1190م بتغريب أهل قصر أبي دانس[5] إلى مراكش، وهم ينتمون إلى الروم والصقالبة وغير ذلك من سكان البلاد فيقول:"تحرك-أي المنصور الموحدي-حين بلغه سقوط شلب سنة 585هـ/1195م في يد الروم فجهز الجيوش وعبر إلى الأندلس سنة 586هـ /1196م من إشبيلية إلى قصر أبي دانس من غرب الأندلس فنزلوا على حكمه فاحتملهم إلى مراكش"[6].

من خلال ما ورد يبدو أنّ الصقالبة كانوا من ضمن العناصر التي قربتها السلطة، وبالرغم من أنهم شكلوا نسبة قليلة من مجموع العناصر التي استقرت بالأندلس إلاّ أنهم شكلوا إحدى فئات المجتمع.

7-الاغزاز

الأغزاز هم الأتراك الذين قدِموا من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب في شكل رقيق[7]، بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال الحاكم يعقوب المنصور؛ وعندما فشلت تلك الحملة توزعت جنودها في المغرب العربي فاستقطبها يعقوب المنصور ثم أدخلها في خدمته[8].

1- لم أقف على ترجمة له.
2- لم أقف على ترجمة له.
3- لم أقف على ترجمة له.
4- عبد الواحد المراكشي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5-هو موضع غرب الأندلس، وهو حصن كبير وفيه كانت الوقيعة على المسلمين سنة 614هـ/1271م، الحميري، المصدر السابق، ص92.
6- المصدر نفسه، ص107 / حسن علي حسن، المرجع السابق، ص325.
7- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص123.
8- فتحي زغروت، المرجع السابق، ص333.

عرف الأغزاز بالشجاعة ونكايتهم في عدوهم، وهو ما دفع بالحاكم يعقوب المنصور باستخدامهم في جيشه[1]، فإزداد عدد الغز ببلاد الأندلس في أيام أبي يعقوب وابنه يوسف[2]، يوسف[2]، واستمروا على ذلك إلى عهد يعقوب المنصور الذي أحسن استخدام هذه الطائفة من الجند، فأغذق عليهم الهبات والعطايا، وبالغ في تكريمهم، حتى عرف عهده تكاثر الغز؛ وفي هذا رواية "للمقري" توضح مدى اهتمام الحاكم يعقوب المنصور بهم بقوله: "وفد شعبان بن كوجيا وهو من غز الموصل على يعقوب المنصور ملك الموحدين ورفع له أمداحا جليلة، فقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس"[3]. ويضيف "عبد الواحد المراكشي" بأنّ "المنصور قد منحه بعض قرى الأندلس والتي بلغ إيرادها في السنة نحو تسعة آلاف دينار"[4].

والثابت أن الأغزاز قد حضوا بمكانة مميزة عند الحكام الموحدين، فبالغوا في تكريمهم فأقطعوهم الإقطاعات وولوهم ولايات المدن، وكانوا ضمن الجيش الموحدي لمواجهة النصارى[5]، بل وميزوهم عن باقي الجند، فكان يعقوب المنصور يستشيرهم في أمور الحرب، وهذا ما يدل على حنكتهم في مجال القتال، بقول "ابن أبي زرع": "دعا المنصور أوّلا أشياخ الموحدين فاستشارهم ثم أشياخ العرب ثم أشياخ زناتة ثم الأغزاز"[6].

ولما كان يعقوب المنصور على فراش الموت وصى في معاملة الأغزاز معاملة حسنة بشهادة "ابن عذاري" عندما قال:"وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا لأنّ الموحدين لهم سهام يرجعون إليها وليس للأغزاز سهام"[7].

1- تفاصيل دخولهم إلى المغرب وردت عند عز الدين موسى، المرجع السابق، ص123/ فتحي زغروت، المرجع السابق، ص118.
2- القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة(د.ط)،1922، ج5، ص167.
3- المقري، المصدر السابق، ج3، ص133.
4- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص210.
5-المصدر نفسه، الصفحة نفسها / رسائل موحدية، مجموعة ليفي بوفنسال، ص224.
6- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص223.
7-ابن عذاري، المصدر السابق، ص232.

ورغم وجود روايات تبين بأنّ الأتراك الغز شكلوا شريحة اجتماعية من مجموع السكان، وقاموا بدور مهم في الجيش العسكري الموحدي، إلاّ أنّ المصادر المطلع عليها لم تسعفنا في الحصول على معلومات تخص دورهم في مجتمع غلب عليه التنوع، وضم خليطا من العناصر البشرية.

8-أهل الذمة

شكل أهل الذمة أحد أهم العناصر التي تألف منها المجتمع الأندلسي الموحدي، كاليهود والنصارى، وإذا كانت المصادر تقدم مادة تاريخية هامة عن اليهود، فإنّ المعلومات حول أخبار النصارى ضئيلة.

استقر اليهود في العديد من الحواضر الأندلسية الكبرى، أهمها قرطبة والتي كان لليهود فيها حي خاص بهم يقع في الجهة الجنوبية الغربية قريبا من قصر الخلفاء[1]، أما اشبيلية فقد ضمت مجموعة مرتفعة العدد من أهل الذمة؛ بل مثلوا مع المولدين غالبية سكانها[2]، كما كانت مدينة اليسانة القريبة من قرطبة موطنا لهم، إذ يذكر "الإدريسي "بأن "اليسانة مدينة يسكنها اليهود ولا يداخلهم فيها مسلم البتة"[3]، ولليهود بها حذر وتحصن ممن ممن قصدهم[4]، كما عرفت غرناطة استيطان العنصر اليهودي حتى عرفت بـــــــ"أغرناطة اليهود"[5].

لقد عامل المسلمون في الأندلس اليهود معاملة حسنة، وأقاموا علاقات صداقة فمثلا المؤرخ "ابن سعيد" كان صديقا ليهودي شاعر بقوله:"وخرجت مرَّة مع أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي إلى مرج الفضة بنهر إشبيلية، فتشاركنا في هذا الشعر": **من بحر الكامل**

1-عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، دار الكتاب الحديث، الطبعة الأولى، 1993،ص46.
2-ابراهيم القادري بوتشيش، أثر الإقطاع في التاريخ الأندلسي السياسي من منتصف القران الثالث الهجري إلى ظهور الخلافة(250-316هـ)، منشورات عكاظ الرباط،1992، ص295.
3-الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل،لندن(د.ت)، ص570.
4-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص488.
5-الحميري، المصدر السابق، ص45.

غَيْرِيْ يَمِيْلُ إلـىْ كَلاَمِ اللأَحـيْ وَيَمُدُّ رَاحَتَهُ لغَيْرِ الرَّاحِ[1]

حتى أنّ والده قال له:"حتى رضيتَ أن تكون زاملة ليهودي شاعر"[2]، والواضح من خلال المصادر المطلع عليها بأن اليهود كانوا يخالطون المسلمين ويقرأون عليهم ويحضرون دروس العربية، ومن ذلك رواية "المقري "عن اليهودي إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الذي كان يقرأ مع المسلمين علم العربية ويخالطهم حتى أنه اقتنع بفكرة الإسلام، فأسلم ومات غريقا في البحر سنة 649هـ/1251م[3].

مارس اليهود مهنة التجارة، فكانوا يتحكمون في أسباب التجارة بين الأندلس والقارة الأوربية من جهة، وبين المشرق الإسلامي من جهة أخرى[4]، كما كانوا يستغلون فرصة انهزام المسلمين أمام النصارى لشراء أسرى المسلمين منهم، وقد ورد هذا عند "الضبي" بقوله :" كان مع جيش الأسبان في معركة الأرك (591هـ/1195م) جماعات من تجار اليهود، قد وصلوا لشراءِ أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدُّوا لذلك أموالاً فهزمهم الله تعالى، واستوعب القتل أكثرهم، وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلتهم الذميمة"[5].

غير أنّ هذا لا ينفي بأن اليهود في العصر الموحدي قاموا بدور خسيس ضد حكام الأندلس، وتحالفوا مع النصارى وظلوا شوكة في ظهر الدولة الموحدية وهو ما سنذكره لاحقا.

أما النصارى فهم السكان الأصليون لشبه جزيرة ايبريا، من أصول مختلفة اصطلح على تسميتهم بالمستعربين، وظلوا يمثلون غالبية سكان الأندلس طيلة المدة التي بقي فيها الحكم الإسلامي هناك، وتمتعوا بقسط وافر من الحرية والتسامح فمارسوا شعائرهم الدينية

6- المقري، المصدر السابق، ج2، ص307.

7-ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص141.

8-المقري، المصدر السابق، ج3، ص525.

1-جيمس.كولان، الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري المصري، القاهرة، الطبعة الأولى،1980، ص96-97.

2-الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2005ص45-46.

بكل حرية [1]، وتعايش المسلمون معهم في مجتمع متعدد الأعراق، فتعلموا من المسلمين اللغة العربية، بل وكانوا يتنقلون إلى مدن أخرى بحثا عن أشهر المعلمين، إذ يخبرنا "ابن الخطيب" عن أحد العلماء الغرناطيين وهو عبد الله بن سهل الغرناطي(ت 553هـ/1158م) الذي كان"معلما للعربية تقصده النصارى من طليطلة تتعلم منه أيام كان ببياسة وله مع قسيسهم مجالس في التناظر"[2].

وظل التأثير متبادلا بين العرب والنصارى ويظهر ذلك جليا في مشاركة المسلمين احتفالات النصارى، كاحتفالات رأس السنة الميلادية، وعيد العصير، والنيروز وتعلم لغتهم الأعجمية[3].

ومن المفيد الإشارة إلى أنّ الجيش الموحدي كان يتزود بأسرى الحرب من النصارى، وفي هذا تنبيه "لابن سماك العاملي"عن وجود طائفة من النصارى ضمن الجيوش الموحدية[4]، ويضيف"الضبي" أنه بعد "معركة الأرك" تزود الجيش الموحدي بأربعة وعشرين ألف أسير نصراني؛ غير أنّ يعقوب المنصور قام بالإفراج عنهم وإطلاق سراحهم، إلاّ أنّ هذا التصرف أغضب قادة الموحدين، فندم المنصور بعد ذلك"[5].

ومقابل ذلك فقد كان النصارى يقومون ببيع أسرى المسلمين في الأسواق بعد كل حرب مع المسلمين، وثمة نص في بالغ الأهمية للرحالة "ابن جبير"(ت614هـ/1217م) يفصح فيه عن ذلك بقوله: "هبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومي مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منا فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين الرجال والنساء يباعون في السوق"[6].

3-محمد الأمين ولد آنة، النصارى واليهود من سقوط الدولة الأموية إلى نهاية المرابطين(422-539هـ/1030-1141م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2013، ص90.
2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص308
1-ابن جبير، محمد بن احمد بن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، حققه وقدم له علي كنعان، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، (د.ت)، ص21.
2- ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص222.
3-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص230. .
4-ابن جبير، المصدر السابق، ص21.

وقد عرف العصر الموحدي في الأندلس اشتداد هجمات النصارى المتكررة على العديد من المدن الأندلسية، ولهذا كان موقف الموحدين مع أهل الذمة متشددا وعملوا على اضطهادهم، ويبدو ذلك من خلال إصدار عبد المؤمن بن علي أوامر إلى جميع عمال مملكته بالأندلس والمغرب؛ بأن يخيّروا بين اعتناق الإسلام أو الجلاء عن البلاد وضرب لذلك أجلا معلوما، وسار على سنة هذا الحاكم معظم أبنائه الذين تولوا الخلافة، فلم تنعقد ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قيام دولة المصامدة[1]، ولا ريب في أنّ هذه السياسة قد دفعت هذه العناصر للعمل على تقويض أركان الدولة الموحدية[2].

ومن نافلة القول أنّ التركيبة البشرية للأندلس الموحدية ضمت عناصر مختلفة تعددت أصولها وانتماءاتها الاثنية والدينية، في عصر عرف تدفق هجرات سكانية كثيفة ومستمرة بدْءا بالقبائل البربرية التي شكلت الأغلبية الساحقة، والتي أصبحت في عصر الموحدين القوة السياسية المسيطرة حتى أصبح يطلق على الدولة الموحدية "دولة المصامدة"، وعناصر أخرى جديدة أرغمتها الظروف السياسية المضطربة وعدم الاستقرار إلى الهجرة وتمثلت في عرب بني هلال، إضافة إلى الأتراك الغز الذين تدفقوا إلى بلاد المغرب ومن تمّ استخدمتهم السلطة الموحدية في الجيوش، وأدخلتهم إلى بلاد الأندلس للجهاد مما ساعد على تنوع عناصر المجتمع.

كما اتضح من خلال ما ورد عن عناصر المجتمع، أنّ مظاهر التعصب للجنس الآخر قد استمرت إلى عهد الموحدين، فالعداوة والبغضاء التي كان يكنها العرب للبربر قد استمرت منذ الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس وازدادت إلى غاية الفترة موضوع الدراسة، بل وحملت أحقادا دفينة رغم جهود الموحدين في توحيد العدوتين المغربية والأندلسية .

ويمكن القول أنّ الاضطرابات السياسية التي عرفتها الأندلس بعد وفاة الحاكم يعقوب المنصور 595هـ/1213م، أدت إلى دخول البلاد مرحلة جديدة بتولي السلطة حكام ضعفاء أدى ذلك إلى ظهور صراعات دموية داخل البيت الموحدي، فاضطربت الأحوال وتفلت

1-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224.
2-عز الدين موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى،1983، ص105.

الأمن وتكالب النصارى على المدن فأهملت شؤون الرعية التي وجدت في خضم تلك الظروف فرصة مواتية للوقوف في وجه السلطة.

الفصل الثاني : العامة بين الموالاة والمنافرة للسلطة الموحدية

أولا:- مظاهر الموالاة بين العامة والسلطة

1- مشاركة العامة في الدفاع على أمن المدن

2- نظر السلطة في أحوال العامة الأمنية

3- السلطة ودعمها المادي للعامة.

4- السلطة وسياسة الاعمار.

ثانيا-مظاهر المنافرة بين العامة والسلطة.

1- ثورات العامة

أ- حركة عمر بن سحنون

ب-حركة أبو عبد الله علي بن محمد بن رزين الجزيري

2- دفع المغارم والمكوس

3- تذمر أهل الذمة من السلطة

تجمع معظم المصادر التاريخية على دور العامة في الأحداث السياسية، والتي أبدت في العديد من المرات موقفا معاديا للسلطة والذي سرعان ما تطور في شكل ثورات وتمردات أدت إلى حدوث تباعد بينهما، ولعل ما يكشف على أن العامة كانت قوة لا يستهان بها، دَأَبُ الحكام الموحدون على استقطابها واستمالتها والتقرب إليها بعدة طرق، كون العامة هي المادة الأساسية للخلفاء، والمحرك الأساسي للنشاط السياسي ودورها الكبير في ترسيخ قواعد الدولة، لهذا عملت السلطة الموحدية باستمرار على احتوائها لتجنب سخطها.

أولا: ـ مظاهر الموالاة بين العامة والسلطة

تكشف لنا دلائل كثيرة على أن الحكام الموحدين عملوا على تقريب العامة، فالمصادر التاريخية تعج بمعلومات عن الروابط التي جمعت العامة بالخاصة، عندما أبدت العامة حبا كبيرا لبعض الحكام الموحدين الذين أبدوا بدورهم معاملة حسنة للرعية، وقد تجسدت مظاهر الموالاة ودلالاتها في عدة مواضع منها:

1 – مشاركة العامة في الدفاع على أمن المدن

لعل أهم الدلائل التي تثبت المساندة الحقيقة التي أبداها العامة للخلفاء في الكثير من المواقف التي أصبحت فيها الدولة الموحدية تهددها أخطار النصارى، عندما أصبحت العامة القوة الأساسية في الدفاع عن أمن المدينة ورد زحف العدو، وبرهنت في الكثير من الأحيان عن مساندتها للسلطة، وفي نص لابن "صاحب الصلاة "ما يبين ذلك بقوله:"فعندما ظهر الخلل في حال ابن مرذنيش، واعتلت نفسه بالفكر والمرض ورأى الناس أن حاله قد حالت وزالت فقامت العامة من أهل مدينة لورقة على النصارى، وعلى من معهم من أصحابهم بدعوة الموحدين وقاتلوهم في المدينة"[1].

كما يزودنا "ابن عذاري" بنص مهم عن دور العامة خاصة أصحاب البوادي والرعاة في الدفاع عن إشبيلية بقوله" لما زحفت قوات النصارى على أراضيهم وخربت زروعهم سنة 585هـ/ 1189م فبادروا-أي العامة-لمقاتلة النصارى والدفاع عن أمن اشبيلية"[2].

والملاحظة المسجلة أن العامة أصبحت في بعض الأحيان قوة لا يستهان بها تدافع عن أمن مدينتها والتصدي لواليها واتخاذ القرارات الصائبة للصالح العام، وماحدث في إشبيلية ومرسية سنة 622هـ/ 1225م إلاّ دليلا على ذلك، عندما" قتل من أهل مرسية

1-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص403

2-ابن عذاري،المصدر السابق،ص202.

نحو العشرة آلاف كانوا قد خرجوا لإعانة حصن دلاية[1]، فهزمهم العدو وقتل من أهل المدينتين ألوفا لا تحصى حتى خلت المساجد والأسواق"[2].

لقد عانت إشبيلية كثيرا من هجمات النصارى لأنها كانت تحتل موقعا خطيرا، فقام أهلها عام 629هـ/1231م على عماد الدولة أبي النجاء سالم بن هود الوالي على إشبيلية وأنظارها من قبل أخيه المتوكل فأخرجوه منها وبقي أمرهم شورى بينهم[3]، وفي المنحى ذاته ثارت العامة من أهل قرطبة سنة 623هـ/1226معلى عبد الله البياسي، الذي خرج عن طاعة الموحدين وقتلوه وبعثوا برأسه إلى إشبيلية[4].

لقد بينت النصوص السابقة على الدور الثقيل الذي كانت تقوم به العامة في المجال السياسي ومساندتها للسلطة، في أصعب الظروف التي مرت بها الأندلس بعد انهزامها وضعفها في معركة حصن العقاب(609هـ/1212م) ومن تمّ وجدت السلطة سندا قويا من العامة يقف في وجه كل من يريد المساس بأمن الدولة.

ومن مظاهر الثقل السياسي للعامة، هو مبايعة الحكامباعتبارها الطرف المهم والرئيس وفي تقديم البيعة للخلفاء[5]، وقد أظهرت النصوص في عدة مواضع دور العامة في المبايعة، فعندما توفي المهدي ابن تومرت، بايعت العامة عبد المؤمن بن علي سنة 524هـ/1129م، ثم اجتمع أمر المصامدة عليه[6]، ولما توفي أبو يعقوب يوسف سنة 580هـ/1190م"بايع عامة الناس من جميع الأصناف أبي يوسف يعقوب المنصور سنة 595هـ /1098م[7]، كما بويع أبو عبد الله الناصر(595-610هـ/1198-1213م) بيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه"[8].

ومن الطبيعي أن يشارك العوام في الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام للحكام استبشارا بقدومهم منتصرين من غزواتهم، فيحظى هؤلاء باستقبال حار من طرف العامة، التي تبدي حماسا كبيرا في الاستقبال وهي تتشوق لاستقبالهم بالتكبير من جهة والنساء يولولن ويضربن بالدفوف[9].

1- دلاية، بلد قريب من المرية من سواحل بحر الأندلس، ياقوت الحموي، المصدر السابق،ج2،ص460.
2- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص274.
3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص296.
4-المصدر نفسه، ص273
5- أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص186
6-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص147
7- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص194
8-ابن عذاري، المصدر السابق، ص236
9-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص212

فإذا كانت سياسة الحكام قد نجحت إلى حد ما في تقريب واستمالة العامة والالتفاف حولها بكل الوسائل والطرق، فإنها أخفقت في الحد من ظاهرة التفاوت الطبقي الذي كان سائدا، مما ولد فتنا وتمردا تٍ على السلطة وجدتها بعض الفئات المنحرفة من العوام فرصة للتعبير عن حالات التذمر، وهو ما أحدث تباعدا وشرخا بينها وبين السلطة التي قامت في العديد من المرات بقمعها.

2-نظر السلطة في أحوال العامة الأمنية

المتعارف عليه أنّ الدولة الموحدية قامت على أسس دينية، وأخذت على عاتقها تطبيق القانون وأحكام الشريعة الإسلامية والمبادئ التي دعا إليها زعيمهم الأول أبو عبد الله المهدي محمد بن تومرت، وهي صفاء العقيدة، والتوحيد الخالص، والتمسك بالدين وتطبيقه، وهذا لحماية المجتمع من مظاهر الفوضى والتفلّت الذي كان يعيشه مع أواخر الدولة المرابطية[1].

ونجد في رسالة وجهها عبد المؤمن بن علي إلى الولاة بالأندلس، يحثهم فيها على العدل بين الناس وحذّرهم من مغبة قتل المسلمين واستباحة أموالهم وأعراضهم وإبطال ما كان يؤخذ عنهم من مغارم بمختلف أنواعها[2].

والواضح أنّ سياسة عبد المؤمن تهدف إلى استمالة العامة وإعادة الأمن إلى الأندلس، خاصة وأنها مقبلة على مرحلة جديدة من حكم قبائل المغرب، بعد سلسلة من الأحداث الخطيرة التي عرفتها الدولة مع نهاية الدولة المرابطية.

ولذلك تجمع المصادر التاريخية[3]على نية الحكام في تحسين أحوال العامة الأمنية والنظر في شؤون الرعية والتقرب إليهم لتطهير المجتمع من المنكرات التي كانت سائدة قبل بداية الدعوة الموحدية، فقد كان أبو يعقوب يوسف يحسن للعامة كفعل أبيه فاتصلت به[4]، وتقرّب الحاكم يعقوب المنصور من عامته فكان يقعد للناس عامة ولا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير، حتى "اختصم إليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما"[5].

1-محمود علي مكي، وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، "وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السابع، والثامن،1959-1960،ص189.

2-رسائل موحدية، تحقيق أحمد عزاوي، ج1،ص64.

3-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص173/ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص165/عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص208.

4-ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2009، ص4.

5-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص208.

لقد اتبع الحاكم أبو يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور أسلوب الترغيب لإرضاء العامة والتقرب منها، كما لجئوا أحيانا إلى أسلوب الترهيب وإراقة الدماء أحيانا في تعاملهم معهم لاستمالتهم، خاصة إذا تعلق الأمر بارتكاب المحرمات، فلطالما ظهر الحكام بمظهر الحكام المعتدلين وهذا ما أكسبهم حب وثقة الرعية.

ومن الدلائل ما يثبت ذلك أنّ الخليفة عبد المؤمن بن علي لم يتردد أبدا في قتل وزيره أبو جعفر أحمد بن عطية[1]سنة 553هـ/1158م لما ارتكبه من مظالم في حق الرعية ولأشياء نقمت عليه[2]، وأقدم الخليفة نفسه على إخراج أخوي المهدي بن تومرت بإشبيلية بعد "استطالة أيديهما على أهلها وعلى الأندلسيين المجاورين لها وظهر منهما مذهب في قتل الناس وإباحة الدماء وأخذ الأموال واتصال الاعتداء"[3]، كما أمر باعتقال أبي زكريا يحي بن يمور[4] سنة 549هـ/1154م

وإعادته إلى المغرب بسبب اعتدائه على أهل لبلة، حيث أقدم على "إنفاذ السيف في برهم وخبيثهم، ولم يصغ إلى صوت مستغيثهم"[5].

ولم تكن سياسة العنف تسلط على الرعية فحسب، بل كان عبد المؤمن بن علي يعاقب كل المخالفين للشريعة الإسلامية، حتى وإن تعلق الأمر بحاشيته أو بعض المسؤولين في الدولة، فقد اتّبع في بداية الأمر سياسة العنف وإراقة الدماء اتجاه الرعية حتى وصفه "النويري" بأنه "كثير السفك لدماء المسلمين على صغار الذنوب"[6].

وللإشارة فإن أبواب الشكاوى كانت مفتوحة للعامة من طرف الحاكم يعقوب المنصور الذي كان يجلس بنفسه لخطة المظالم لسماع شكاوي المتظلمين؛ ويسمع لمطالبهم فعندما جلس في المسجد الجامع المجاور للقصر حضرت أناس من جميع الأصناف لتحقيق مطالبهم[7].

والواضح أنّ إصرار هؤلاء الحكام عند توليهم سدة الحكم لسماع شكاوى العامة لأنهم يعلمون أنهم بوصولهم إلى السلطة-وهي فترة انتقالية من حاكم لآخر-تنتشر الفوضى ويكثر الإهمال وتضطرب الأحوال، ولذلك لابد من فتح الأبواب أمام العامة

1-أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي، كان من أشهر كتاب عبد المؤمن بن علي، وكانت نهايته على يده، ابن الخطيب، المصدر السابق،ج1، ص127

2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص 58/ يوسف أشباخ، المرجع السابق،ج2، ص53

3- ابن عذاري، المصدر نفسه، ص 39-98.

4-لم أقف على ترجمة وافية له، وما يفهم من رواية ابن عذاري أنه كان مترددا بالنظر والحماية في اشبيلية، المصدر نفسه، ص52

5- ابن عذاري، المصدر السابق، ص39-52

6-النويري أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1984،ص427

7- ابن عذاري، المصدر السابق، ص174

لامتصاص غضبهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى حرصا من الحكام على نشر العدل وتحقيقه والحفاظ على الأموال، فكان الحاكم يعقوب المنصور "يؤكد على العمال والولاة بتأنيس الرعية وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم وكف أيدي الظالمين عنهم"[1].

وهناك نص للمؤرخ "ابن عذاري " في غاية الدلالة على استماع الخليفة أبي يعقوب لشكاوى عامة باجة الذين تضرروا من إهمال المسؤول، وسوء سياسته وتدبيره مما أدى إلى عزله بقوله:" رأى أعيان باجة سوء أحوالهم رفعوا إلى أبي يعقوب يوسف بأحوالهم ما لحق بهم من سوء سياسة وتدبير واليها أبو بكر ابن وزير فأمر الخليفة بعزله، مما أدى إلى غبطة سكان باجة"[2].

ومن قرائن اهتمام الحاكم أبي يعقوب يوسف بأمر العامة ما نقله "ابن عذاري "في أحداث سنة 568هـ/1172م، عندما أقدم على قتل عامله عمر بن سحنون(ت568هـ/1172م) والي باجة لاستبداده وظلمه للرعية[3]، كما أمر هذا الحاكم سنة 571هـ/1175م بمصادرة أموال مشرف إشبيلية محمد بن عيسى وتسليط أسوأ العقاب عليه بعد أن ثبتت خيانته، ثم عذب وقتل ولف في حصير ورمي في وادي اشبيلية.[4]

وحصيلة القول أنّ فترة حكم أبي يعقوب يوسف تميزت بالصرامة في مراقبة العمال وتحذيرهم من تحميل الرعية ما لا طاقة لها؛ وعلى نفس هذه السياسة سار إبنه الحاكم يعقوب المنصور ، إذ يذكر المؤرخ "ابن عذاري" أنه بإستقراره في اشبيلية عام 593هـ/1196م، كلف لجنة لمراقبة بعض عماله، ولما كشف خيانتهم قام بإستصفاء أموالهم[5]، وهنا يظهر هدف الحاكم من معاقبة عماله لصالح رعيته، لأنه يعلم أنّ الرعية هي المادة الأساسية لحكمه، وبدونها لن يكون داع لخلافته فلا بدّ له من استمالتها وكسب ثقتها عن طريق الحد من جشع العمال وكبار الموظفين.

ولا شك في أنّ هذه الإجراءات أراد من خلالها الحاكم يعقوب المنصور، محاصرة مظاهر التفلّت والفوضى التي كان يعيش فيها المجتمع، وأظهر عزمه على محاربة الفساد، ومن أمثلة ذلك أنه أمر بجلد أحمد بن يحي بن أحمد بن مسعود العبدري

1- ابن عذاري، المصدر السابق ، ص173
2- المصدر نفسه، ص134.
3- نفسه، ص 128
4- نفسه، ص135
5-نفسه، ص224

القرطبي(ت599هـ/1202م) أربعين جلدة لما ثبث عليه من شرب الخمر[1]، وأقدم على قتل أخيه أبي حفص عمر والي مرسية سنة 583هـ/1187م لأشياء نقمت عليه[2].

لقد كانت هذه الإجراءات التي اتخذها الحاكم يعقوب المنصور توضح قمع الحاكم لكل من سولت له نفسه ارتكاب المحرمات، والغرض واضح هنا هو محاربة انتشار ظاهرة شرب الخمر في البلاد، ولتحقيق ذلك لا بد له من أن يلتجئ إلى العنف وإراقة الدماء في تعامله مع من ارتكب ذلك حتى لا يعمّ الفساد.

ويحدثنا "ابن صاحب الصلاة "عن أهل قونكةCuenca، وعلى وضعهم المزري عندما استقبلوا الحاكم الموحدي أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على رأس جيشه سنة (567هـ /1172م)، وكانوا قد تعرضوا لحصار النصارى قرابة خمسة أشهر، فأمر الخليفة بأن يكتب أسماءهم، فأحصوا وكان عددهم سبعمائة نسمة بين مقاتل وامرأة وصبي وطفل، فأمر لهم بمال وُزِّع عليهم وأمدهم بأسلحة وطعام[3].

ونستنتج من سياسة الحكام أنهم أبدوا اهتماما بالعامة، وعملوا على مراقبة أحوالها بمعاقبة كل من يتعرض لها، وهي الصورة التي يقدمها "ابن الأحمر"عند حديثه عن هؤلاء الحكام الموحدين الذين تولوا مهمة" الحد من انتشار ظاهرة التعدي على قوافل التجار والمسافرين من طرف قطاع الطرق عندما كثر النهب والسلب بالأندلس"[4]، وانتشرت اللصوصية في الأحياء وظاهرة التعدي على المنازل، فأبدت السلطة اهتماما واضحا بهذا الشأن، فعملت على تأمين الطرقات والشوارع لضمان الأمن والاستقرار للعامة، ومن تم تثبيت الأمن المفقود[5].

كما شدد عبد المؤمن بن علي عند توليه السلطة في أمر قطاع الطرق وتوعدهم بعقوبات قاسية، وأثبت حسن نيته وعزمه على محاربة الفساد ومظاهره المختلفة[6]، ولهذا شهد عهد ابنه أبو يعقوب يوسف أمنا واستقرارا، فتمهّدت البلاد وتأمّنت الطرقات وضبطت الثغور وصلح أمر الناس في البادية والحاضر[7].

ومن المفيد الإشارة إلى دور السلطة في تأمين الشوارع من خطر اللصوص، عن طريق تسخير الحراس والعسس إضافة إلى " فئة الدرابين الذين كانوا يقومون بمهمة الحراسة وتفعيل خطة الطواف بالليل"[8]، وهذا للتخفيف من ظاهرة التعدي على المنازل

1- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ،س1، ق2، ص566
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص229/ محمد المغراوي، المرجع السابق، ص72
3- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 397.
4 – ابن الأحمر، المصدر السابق، ص31.
5-محمدالمغراوي، المرجع السابق، ص25.
6-ابن القطان، المصدر السابق، ص193
7- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص206
1-المقري، المصدر السابق،ج1، ص219

المنازل وقتل صاحب الدار[1]، خاصة بعد أن انتشرت ظاهرة السرقة في العصر الموحدي.

ومجمل القول أنّ السلطة الموحدية وظفت كل جهودها من أجل استمالة العامة، فأبدت اهتماما واضحا اتجاه الرعية وأقدمت على محاربة المنكرات وظاهرة التلصص بتأمين الطرقات، ومراقبة العمال والحد من تسلطهم على الرعية لنشر الأمن في البلاد.

3-السلطة ودعمها المادي للعامة:

تعتبر السياسة المالية التي لجأ إليها الحكام من تقديم الأموال والهدايا وتفريق الصدقات في العديد من المناسبات، من أكثر مظاهر القرب التي جمعت العامة بالسلطة، فكثيرة هي القرائن التي تبين بأن الحكام الموحدين شاركوا العامة في العديد من المحن وأبدوا تعاطفهم معهم، فقد وُصف الحاكم أبو يعقوب يوسف بأنه كثير الصدقة، إذ"تصدق بأربعين ألف دينار أخرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي في القرابة"[2].

ولم تكن هذه الرواية الوحيدة التي تدل على حب أبي يوسف يعقوب لرعيته وإخراج الصدقات حتى على الغرباء والوافدين إلى الأندلس، وفي نص" لابن صاحب الصلاة" ما يبرهن ذلك بقوله:"كان يتصدق على الضعفاء والوافدين الغرباء وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفاء، وحاز بصدقته الأجر من الله وعند الناس بجميل الثناء فمن رجل ترى بيده ثلاثين دينارا صدقة وآخر كذلك إلى جميع من كتب اسمه من الصنف المسكين فرحل عن الضعفاء الفقر والإعدام وتخيلوا الصدقة كأنها أحلام"[3].

كانت السلطة الموحدية تبدي تضامنا حقيقيا مع الفقراء والمساكين خاصة في أوقات الشدة من خلال الإحسان وإمداد الأسواق بالمؤن الضرورية، فإذا كان أحد المؤرخين ينعت شخصية الحاكم يوسف المستنصر(610 -620هـ/ 1213-1223م)، "بالضعف وإدمانه على الخلاعة وركونه إلى اللذات ووصفه بتفويض أمر مملكته ومهمات أموره إلى السفلة"[4]، فقد نسبت إليه أعمال الخير والعطاء في أحلك الظروف التي مرت بالأندلس في عهده، فلما علم ما حلّ بالمسلمين في بلاده سنة 614هـ/1217م من المجاعة جراء غلاء السعر والشدة "أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء،

2-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
2- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص209
3-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص421
4- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص243

وبالجملة فإنه تصدق منها شيئا كثيرا وأعطى من الأموال عطاء جزيلا فحسنت أحوال الناس بذلك"[1].

ولعل في هذه النصوص ما يكشف عن اهتمام هؤلاء الحكام بالوضع الاجتماعي والمادي للعامة، والنظر في أمرهم والعمل على التخفيف من معاناتهم رغم الضائقة الاقتصادية التي كانت تمر بها الأندلس، فإنّ الإجراءات التضامنية وضعت حدا لمعاناة الفقراء، ويبدو من وراء هذه الهبات أنهم كانوا يبتغون من ورائها أغراضا سياسية.[2]

ولا يخامرنا شك في أنّ تخفيف المغارم من الدلالات القوية على حرص الحكام على استمالة قلوب العامة، إذ يشير"الحميري "أنه لما صار الأمر للموحدين "قطعوا القبالات وأراحوا الناس منها واستحلوا قتل المتقبلين"[3]، ومن ثمّ لم يتردد أحد المؤرخين بوصف أيام أبي يعقوب يوسف "بأنها أعيادا وأعراسا ومواسم وكثرة خصب وانتشار امن ودُرُورَ أرزاق واتساع معايش".[4]

ومن أعمال هذا الحاكم التي جعلت العامة تتقرب منه وتبدي حبها له، هو حرصه على إدخال البهجة في نفوس المحرومين الذين لم يتمكنوا من شراء أضحية العيد، فحرص بنفسه على توزيع الأضاحي عليهم سنة594هـ/1197م، "ففرق على الجند والأمراء والفقراء ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز[5]، هذا التصرف جعل قلوب العامة تتولع به"[6].

ومن الطبيعي أن تكون مثل هذه التصرفات قد أدت بالعامة إلى التقرب من السلطة التي كانت ترفق بالرعية، وهو ما زاد في توثيق الروابط بينهما لدرجة أن العامة تعلقت بالحاكم يعقوب المنصور لِما أظهره من فضل وحب واهتمام لهم، إذ بلغ في عهده ذروة الحاكم الذي تقرب إلى قلوب العامة، وإلاّ كيف نفسر تستّر حاشيته على وفاته وهو عائد من غزوته إلى أن بلغوا إشبيلية[7]، وصلّوا على جنازته دون إن يعلموا بأنه الأمير[8]، وبذلك فقد نجحت سياسته في ضم العامة، ولمّا توفي أنكروا وفاته، وكذبوا خبر وفاته وراحت تنسج حول وفاته قصص عدة[9].

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص267
2- عز الدين موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، ص291
3- الحميري، المصدر السابق، ص541
4-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص188
5-المقري، المصدر السابق، ج3، ص104
6-المصدر نفسه، ص104
7-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص194
8- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق ، ص191
9- ابن عذاري، المصدر السابق، ص234

وفي السياق ذاته لابد من الإشارة إلى دور الأحباس في الخدمات الاجتماعية لمساعدة الفقراء والمساكين، لمحو آثار الفقر الذي مس السواد الأعظم بسبب الغلاء الفاحش وانتشار الأمراض والوباء العظيم الذي عانت منه الأندلس، حتى اضطر العديد من الناس إلى الهروب من الوباء القاتل[1]، فساهمت بذلك العديد من أموال الأحباس في أعمال البر والخير، إذيفيدنا "الونشريسي" في نازلة عن "أملاك موقوفة ببلش على المسجد الأعظم والمساكين"[2].

ويمكن القول أنّ الأحباس باعتبارها من الصدقات الجارية قامت بدور فعال في مجال توفير الخدمات الصحية والتعليمية في الأندلس، فساهمت في تحقيق مبدأ التكافل والتضامن الاجتماعي، إذ يخبرنا "عبد الواحد المراكشي" أنه مع أواخر العصر المرابطي وبداية الدولة الموحدية جعل أحد الشعراء أراضيه الزراعية وقفا للشعراء بحيث كانت غلتها كل سنة مئة دينار إلى أن اجتمعت له سبعمائة دينار وهبها لأحد الفقراء الذي دخل عليه جائعا فقيرا وخرج من عنده شبعانا غنيا"[3].

ولذلك يمكن اعتبار أنّ السياسة المالية والمساعدات المادية التي تقدمها الدولة للرعية، هي من أكثر مظاهر الموالاة بين العامة والسلطة وأهمها في تحديد العلاقة بينهما، لذلك عمل الحكام على استمالة قلوب العامة رغبة في إرضائهم وامتصاص غضبهم، في ظل التفاوت الاجتماعي الذي كان سائدا، وبذلك لما شعر الحاكم يعقوب المنصور بتذمر العامة حاول التقرب بمشروعاته الاجتماعية وعطاياه المالية[4]، وهذا ما ما يثبت صحة ما ذكره "ابن خلدون" في مقدمته عن سياسة الحاكم اتجاه الرعية بقوله:" والملك إذا كان رفيقا برعيته متجاوزا عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب، وأمّا النعمة عليهم والإحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير من التحبب إلى الرعية"[5].

1- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص255-272.

2-الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، 1981م.،ج7،ص157/ كمال السيد أبو مصطفى، الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة، ضمن سلسلة بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مركز إسكندرية للكتاب،1997،ص203

3-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص158

4-عز الدين موسى، المرجع السابق،ص350

5-ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، (د.ت)،ص209

4-**السلطة وسياسة الاعمار**

لقد ساهم الحكام في رفع الضر الذي أصاب العوام من جراء الكوارث الطبيعية التي كانت تدفع ثمنها الطبقة الفقيرة جراء تهدم منازلهم، فكانت تتقرب إليهم بتشييد ما خربته الكوارث الطبيعية، أو ما أفسدته هجمات العدو على أراضي المسلمين، والنصوص التاريخية قد أحصت لنا المشاريع العمرانية التي أمر الحكام بتشييدها لإسعاد العامة والتخفيف من تضررهم، فقد انفق الحاكم أبو يعقوب يوسف في إنجاز بعض المشاريع العمرانية لصالح العامة من ماله الخاص، وكان ذلك عام 564هـ/ 1168معندما أمر ببناء سور اشبيلية من جهة الوادي من ماله بعد هدم السيل العظيم له الخارج على جنباتها وجهاتها، وقد بناه بالحصى والجيار من الأرض إلى أن علاه، وهذا حتى يجنب المدينة فيضان واديها[1].

ولم تكن الكوارث لوحدها سببا في تضرر مساكن العامة، بل تسببت هجمات النصارى على أراضي العوام في تخريب مساكنهم، وقد كشف لنا "ابن عذاري"عن تعرض سكان مدينة باجة إلى هجمات عنيفة على يد النصارى سنة 557هـ /1161م، كانت تنتهي بدمار وتخريب أسوار المدينة ومنازل سكانها مما أدى بالحاكم أبي يعقوب يوسف لإعادة إعمار المدينة فأدخل الغبطة في نفوس سكانها[2].

بينت المصادر التاريخية حب الحكام للبناء والتشييد فأبو يوسف يعقوب كان محبا للبناء مهتما به وفي أيامه لم يخل من قصره يستجده أو مدينة يعمرها، و كان له الفضل في بناء العديد من المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس[3]، فساهم بذلك في توسيع العديد من المنشآت التي كانت مصدر رزق العامة كالأسواق التي نشّطت الحركة التجارية، عندما أقدم الحاكم يعقوب المنصور على بناء أخرى جديدة مكان الأسواق القديمة التي هدمت والحوانيت بأوثق البنيان[4].

وبهذه الإجراءات استطاع يعقوب المنصور استمالة فئة التجار والحرفيين، الذين كانت الأسواق تمثل عصب الحياة بالنسبة إليهم ومورد عيشهم، كما عرفت إشبيلية عملية توصيل المياه إلى داخل المدينة، وبناء خزان للماء داخلها يتوزع على مختلف أحيائها[5]، فعمل الحاكم أبو يعقوب يوسف على جلب الماء من قلعة جابر[1] حتى أدخله إشبيلية وأنفق في ذلك أموالا لا تحصى[2].

1-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص234.
2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص134
3- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص217
4- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص485
5-المصدر نفسه، ص377.

ولعل هذا الانجاز الرائع قد حل مشكل الماء من جهة، كما أنه أدخل الغبطة في نفوس العامة، التي تزودت بخزانات مائية كانت بأمس الحاجة إليها، فضلا عن ذلك شهدت المدينة نفسها عملية ترحيل سكانها الضعفاء بعد أن كثرت همومهم وطال بؤسهم وتضرروا من العيش في سكنات هشة كانوا يقطنونها بجوار المقابر، فتم ترحيلهم إلى سكنات لائقة بقصبة إشبيلية[3].

كما نشهد تقرب الحكام من العامة من خلال بناء المساجد التي أصبحت تضيق بالمصلين، وحسبنا دليلا أنّ جامع إشبيلية صار يضيق بالناس" فأمر الحاكم أبو يعقوب يوسف ببناء الجامع الكبير العتيق لاتساع الناس فيه عن ضيقهم في جامعها"[4].

ولكسب تأييد ولاء العامة للسلطة، عمل بعض الحكام على توفير الخدمات الصحية، خاصة وأنّ العصر الموحدي شهد انتشار بعض الأمراض المعدية كالجذام والجرب وغيرها من الأمراض، وما تسببه من أخطار تهدد صحة الناس، مما استدعى بناء البيمارستانات للمرضى[5]. وخصصت لهم أماكن معينة حتى لا تنتشر مثل هذه الأمراض المعدية [6]، ولذلك أولت الدولة الموحدية رعاية صحية للجذمى ببناء البيمارستانات، و"حبست عليها أوقافا لترميمها وإطعام المرضى والمساكين"[7] لتقريب العامة إليها.

ودعم الحاكم الموحدي يعقوب المنصور خزانة الأشربة والمعاجين التي أنشأت في قصر الحاكم الأندلسي الخليفة الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م) من أجل توفير الأدوية والعقاقير للعامة، حيث تولى مسؤولية إدارتها في العصر الموحدي الصيدلاني أبو يحيى بن قاسم الإشبيلي والذي "كان خبيرا بقوى الأدوية المفردة والمركبة"[8]، وقد بقي الصيدلاني أو يحيى في منصبه إلى أن توفي في مراكش في عهد الخليفة يوسف المستنصر(610-620هـ/1213-1223م)، وكان له ولد قد أخذ مكان أبيه في إدارة خزانة الأشربة[9].

1--قلعة جابر تقع على مقربة من اشبيلية، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج1،ص291
2- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص211
3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص39/احمد الطاهري، البناء والعمران الحضري في اشبيلية العبادية، إعادة تركيب المدينة من خلال المصادر العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعةالأولى،2006، ص179
4-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص235/ ليوبولد طريس بالباس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي الحواضر الأندلسية، ترجمة محمد يعلى، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى،2007، ص153
5- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص218
6-العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة احمد عباس، المجمع الثقافي أبو ظبي، الطبعة الأولى،2002، ص230**6**
7- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص84
8-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص491.
9-المصدر نفسه، ص534.

كما لا يمكننا أن نستثني دور الزراعة وأهميتها الغذائية عند العامة؛ فقد عمد الموحدون إلى عملية استصلاح الأراضي وغرسها بمختلف النباتات، وفي هذا الصدد أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي استصلاح أراضي جبل طارق وغرسها بمختلف أنواع الفاكهة كالعنب والتين والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج[1]، وجلب إليها الماء العذب، وكذلك تم استصلاح أراضٍ واسعة في مدينة إشبيلية بناء على أوامر الحاكم أبي يعقوب بن يوسف؛ ثم غرسها بأشجار الزيتون وكافة أنواع الفاكهة الأندلسية[2].

ومن هنا يبدو واضحا سياسة الموحدين في تقريب كل شرائح المجتمع إليها وتأليف قلوب أهلها، وذلك بإنشاء المساجد والمستشفيات والمدارس وبناء المساكن وتوصيل المياه إلى الأماكن البعيدة وتوسيع المدن والأسواق، وهذا ما يصوّر العناية الكبرى بالعامة وتوفير كل الخدمات التي تحتاجها في الحياة اليومية.

ثانيا: مظاهر المنافرة بين العامة والسلطة.

رغم أن العامة جمعتها بالسلطة الموحدية مظاهر موالاة عديدة تنوعت دلالاتها فإنّ مظاهر المداراة أخذت هي الأخرى أشكالا متعددة، غير أنّ المعلومات الواردة عن مظاهر المداراة بين السلطة والعامة لا تتجاوز إلّا بعض الإشارات العابرة، وقد يعود سبب ذلك إلى الإشكال المنهجي في حركة التدوين التي أولت أهمية كبرى لطبقة الخاصة على حساب الطبقة العامة، ومن تمّ صعوبة تكوين تصور شامل عن دلالات المداراة، ولهذا حاولت استنطاق بعض النصوص للتوصل إلى استنتاجات حول ذلك.

لقد كانت العامة الطرف الأساسي في استتاب الأمن أو إثارة الفوضى، ذلك هو حال عامة الأندلس عندما عبّر عنها" ابن سعيد" بأنها «من أكثر الناس فضولا، وأشدهم تشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك"[3]، لذلك وجدت بعض النصوص التي تبين المعارضة الحقيقة التي أبداها العوام للسلطة.

ظهر موقف العامة المعادي للسلطة عندما ظهرت حركات سياسية متمردة وقفت في وجه الدولة الموحدية، ولعل في قمع الموحدين لثورة عامة لبلة في بداية دولتهم، ما يبين حجم الفجوة واتساعها بين العامة والسلطة عندما اشتعلت ثورة أهل لبلة سنة549هـ/1154م، قاومها عبد المؤمن بن علي بجهود جبارة وأمر أن ينتقم منهم

1-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص137-141 / هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص391.
2-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 465-469/ هشام أبو رميلة، المرجع السابق، ص390.
3-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص154

بهمجية بالغة "حتى بلغ عدد القتلى في ذلك الموضع ثمانية آلاف رجل وفي أحوا زها أربعة آلاف ثم يبعث نساءهم وأبناءهم جميعا وسلبهم أموالهم وأمتعتهم"[1].
وفي هذه الظروف أصبحت الدولة تواجه معارضة ليس من طرف العامة فحسب، بل من طرف الحاشية، عندما ظهرت صراعات دموية داخل البيت الموحدي من أجل السلطة ولأغراض سياسية مهملين أمور الرعية، مما جعل الدولة الموحدية في دوامة من الصراعات الداخلية وحتى الخارجية، ولعل أكبر دليل على ذلك هو الصراع الذي كان قائما بين الرشيد الموحدي(630-640هـ/1232-1243م)أخو يعقوب المنصور الذي وقف في وجهه وتحالف مع النصارى، خاصة مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة ضد أخيه[2] هذا من جهة، ومن جهة أخرى أصبح الوقوف في وجه الأعداء النصارى وصد هجماتهم وتثبيت الأمن من أصعب الأمور[3].

إذن كان للصراعات التي ظهرت داخل السلطة أثرها الواضح في عدم السيطرة على الوضع مما أدى إلى تدهور الأحوال، في وقت أصبح علية القوم يتنافسون لجمع المال و يبتزون أموال الناس، ذاك هو حال مدينة مرسية عندما قام الرشيد الموحدي بالتعدي على حقوق الرعية وأخذ أموال التجار بالباطل وإذاية الناس، وأراد الرشيد جمع المزيد من الأموال فطلب من أحد عماله ويدعى ابن رجا[4]جمع أموال الخراج وتحميل الرعية ما لا طاقة لهم به [5]، ولما عجز ابن رجاعن القيام بذلك أمر الرشيد بجلده حتى الموت، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تبع تلك الأحداث فرار بعض موظفي الدولة من ظلم الرشيد، منهم على سبيل المثال كاتبه حكم ابن محمد والذي استدرجه الرشيد بالعودة إليه وعهد إلى أحد رجاله بقتله ودفنه سرا[6].

لقد كان لهذه الظروف الحالكة التي تمر بها الأندلس أثر في تفاقم الأوضاع وتدهور الأحوال، فاستغلت العامة تلك الظروف عندما بدأ موقفها يتبلور في شكل حركات تمردية وثورات سياسية تدافع بها عن مصالحها، وتعبر عن تأزمها من الأوضاع السابقة الذكر، فالتفت حول المتمردين لتحقيق مطالبها.

1-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص195
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص199
3-المصدر نفسه، ص110
3-هو المشرف المالي لمدينة مرسية والمسؤول أمام الخليفة عن جباية الأموال، نفسه، ص199.
4-ابن عذاري، المصدر السابق، ص199/ليلى النجار، المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية(580-595هـ/1184-1198م)رسالة دكتوراه، في التاريخ الإسلامي، قدمت بجامعة أم القرى،1989، ص154
5-ابن عذاري، المصدر السابق، ص199.

1 -ثورات العامة

عرفت الدولة الموحدية منذ ظهورها في بلاد الغرب الإسلامي حركات معارضة لها، واشتعلت الكثير من الثورات التي قادتها العامة خاصة في بلاد المغرب الأوسط[1]والمغرب الأقصى، هذه المنطقة التي عرفت سلسلة من الثورات تفاقمت حدتها وقوتها مع ازدياد المشاكل وانتشار اليأس بين صفوفها وتعميق الفوارق الطبقية، وبالرغم من أن هذه الثورات اتخذت في غالب الأحيان شكلا قبليا، إلاّ أنها في الحقيقة كانت تعبر عن الشرائح المسحوقة التي تجمهرت والتفت حول قيادات تنتمي إلى أصول اجتماعية مختلفة، ونجحت في خلق مشاكل للسلطة الموحدية[2].

و شهدت الأندلس حدوث اضطرابات سياسية وفتن داخلية من قبل العامة التي انضوت تحت تيارات معادية للسلطة خرجت عن طاعة الموحدين، والملاحظة المهمة هنا هو سكوت المصادر الموحدية عن الثورات المناهضة للعامة في الأندلس، مما يوضح ولاء المؤرخين المعاصرين للسلطة؛ لأنّ الكتابة التاريخية في العصر الموحدي ظلت أسيرة البلاط السلطاني، حيث أطنبت في مدح السلطة مشيدة بإنجازات الحكام وانتصاراتهم والاحتفالات التي يقومون بها ابتهاجا بتحقيق النصر على الأعداء، متغاضية عما يجري في ساحات العامة والحديث عن الحركات والتمردات التي قام بها العوام والتي غالبا ما حركتها دوافع بيولوجية حتمية، وربما كان ذلك التغيب لأبعاد سياسية إيديولوجية رسمية، أو كان ذلك مستهدفا باعتبار العامة فئات متمردة أو جماعات شاردة مما يستوجب إقصائهم وإبعادهم من دخول دائرة التاريخ[3].

وقد كان لدعم مؤرخي البلاط لسياسة الحكام الموحدين أثره في طمس الحقائق التاريخية التي كشفت عنها نصوص "ابن عذاري"، والتي بينت موقف العوام المعادي للسلطة خلال مرحلة حكم الموحدين وهنا اكتفينا برواياته للتفصيل في هذا الشأن.

ومما لا شك فيه فإنّ التباين الاجتماعي الذي عرفته الأندلس في الفترة محل موضوع هذه الدراسة، أدى إلى ظهور فئات غير منتجة كاللصوص وقطاع الطرق يوحي بقيام ثورات عليها، ومن ثم أخذ نشاط العامة يتخذ أشكال حركات تمرد على السلطة، تتسارع فيها الفئات الدنيا المكونة من السفلة واللصوص وقطاع الطرق لاستهداف الطبقة الحاكمة، ذاك هو حال شرق الأندلس الذي انحصر الصراع فيها بين

1-تطرقت الباحثة فوزية كرراز إلى ثورات العامة في المغرب الأوسط، ضمن دراستها حول عامة المغرب الأوسط في ظل حكم الموحدين، فوزية كرراز، المرجع السابق، ص118.

2-يمكن مراجعة ثورات العامة في المغرب الأقصى عند أحمد المحمودي، المرجع السابق، ص186

3-ابراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، إشكالية نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2014، ص328

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي من جهة وولاة الموحدين من جهة أخرى، وازدادت الأمور تعفنا عندما ظهر نشاط عصابات من اللصوص و قطاع الطرق انضوت تحتهم فئة من العوام وكان المؤرخ "ابن الأبار" واحدا ممن تعرض إلى السلب وهو في طريقه من بلنسية إلى شاطبة بقوله:

من بحر البسيط

لاقى بـــي الجدُّ العُثُور عـــصَابَة ذَهَبَـــت بمَا لـــي كَي يَسُـــــــوءَ مَـــآلي
فَاستَأنَفَت نَفسي بحُكـــم شَقَائــــه خــوضَا لأَـــــوَال عَـــــــلَى أهـــوَال[1]

وفي السياق ذاته ينبه "ابن عذاري" إلى ظهور قطاع الطرق سنة 625هـ/ 1227م، بقوله: "وضمهم أبو عبد الله محمد بن يوسف الجذامي وجعل تحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة الخساس، وصاروا له أعوانا وجساسا، فكان يقطع بهم الطرقات في تلك النواحي والجهات كأنهم مغاورون فيها للروم المجاورين إليها حتى اشتد ضرره هنالك بالأرض ومن عليها" على حد تعبير هذا المؤرخ[2].

والحقيقة أنّ هذه الحركات نشطت عندما وجدت من يساندها وأصبحت تزعج السلطة، في الوقت الذي اشتد فيه الصراع داخل البيت الموحدي خاصة سنة 625هـ/1227م وظهرت الفوضى في السلطة المركزية، وأصبح أشياخ الموحدين يتلاعبون بملوكهم؛ فخلعوا عبد الواحد بن يوسف الأول، ثم قتلوه وبايعوا بعده العادل ثم خنقوه، وبايعوا المأمون ثم نكثوا، وبايعوا ابن أخيه يحي[3]، وأحسن من عبّر عن هذه الوضعية "المقري" عندما قال :"إن بني عبد المؤمن لما غيروا رسم مهديهم وصيروا الخلافة ملكا وتوسعوا في الرفاهية أهملوا الرعية"[4]، وهذا ما شجع فئة أخرى من العامة أن أصبحت عصابات تنشط لاستهداف التجار المسلمين واعتراض سبيلهم[5].

ومما سبق نخلص إلى أنّ هذه الحركات كان الغرض منها هو السلب والنهب، في ظل انشغال الحكام الموحدين بالصراعات الداخلية ورد هجمات النصارى، وتسلط قابضي الخراج وقسوة المعاملة وإتباع أسلوب العنف ضد العامة، وتفشي بعض مظاهر الفساد[6]، مما ولّد سلوكات عدوانية اتخذت شكل التلصص وقطع الطريق

1-ابن الأبار، ديوان ابن الأبار، ص205.
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص276.
3-محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة،2000، ص11-12.
4-المقري، المصدر السابق، ج4، ص65.
5-ابن عذاري، المصدر السابق، الصفحة نفسها.
6-عندما استقر المنصور باشبيلية وصلته أخبار عن استطالة أيدي بعض عماله وتطاولها على رعيته، فكلف لجنة لمراقبة بعض عماله، المصدر نفسه،ص224.

والقيام بثورات أو إشعال الفتن والتفاف حول جهات معينة كأسلوب للتعبير عن رفضها للسلطة، وهنا يزداد الشرخ اتساعا بين العامة والسلطة ولا يمكن التعبير عنه إلاّ بإعلان حركات احتجاجية، فجاءت حركة عمر بن سحنون وأبو عبد الله الجزيري لتظهر للسلطة موقفها المعادي.

أ -حركة عمر بن سحنون

تعتبر حركة الثائر ابن سحنون[1] من أهم الحركات الاحتجاجية التي شهدها عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن(558-580هـ/1161-1190م) والتي أدت إلى حدوث اضطرابات في مدينة باجة، وللإشارة فالمعلومات حول هذه الحركة ضئيلة جدا، وقد ارتكزت على أخبار "ابن عذاري" الذي فصّل في أحداثها، مع العلم بأنه أنزل جامّ سخطه على هؤلاء الملتفين حول الحركات الاجتماعية، وراح ينعتها بأنذل الصفات، وكنا قد أشرنا سابقا إلى المصادر التي أخذ منها معلوماته، والتي كانت من البلاط الموحدي.

لقد تمكن ابن سحنون من ضم جماعات كبيرة من الأوباش وسفال مدينة باجة بقول" ابن عذاري": " اتصلوا به فقربهم لنفسه وأنالهم من محل مجلسه التباغض بين عامتها وخاصتها "[2]، وبالتالي استطاع هذا الأخير امتلاك قوة أصبحت تزعج السلطة الموحدية التي أمرت بالقضاء عليه.

ويبدو أنّ هذه الحركة الاحتجاجية نجحت في خلق الكثير من المشاكل في المدينة حتى أقلقت السلطة، وقد كان بطل هذه الثورة ابن سحنون الذي وصفه "ابن عذاري" بأنه" رجل سخيف العقل قصير القامة صغير الهامة كوسج أعرج لا يفهم ولا يفهم "[3] ؛ ولكن شخصيته ساهمت بقدر كبير في استقطاب عدد لا يستهان به من العامة واستغلالهم في إثارة الفتنة بهذه المدينة، خاصة بعد أن" استخلص لنفسه رجلا بدويا من سفال باجة، فجرّه على سفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل وضربهم بالسياط على أقل الأشياء، وأعان معه على ذلك قاضي البلد عمر بن زرقاج، وكان رجلا كثير الحركة والطيش فصوب إليه إيذاءه والبطش، وانضاف إلى هذا القاضي قوم أراذل من شهود الناس بالظلم من شهود الزور"[4].

والواضح من رواية "ابن عذاري" أن رد فعل السلطة الموحدية اتجاه عمر بن سحنون لم تتم إلاّ بعد سنة 568هـ/ 1172م عندما استبد بالأمور وبدأ في سفك دماء

1-عمربن سحنون، كان واليا على مدينة باجة ولكنه تسلط على سكانها واستبد بهم ممارسا كل أعمال الظلم والجور، نفسه، ص128.
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص128
3-المصدرنفسه، ص129
4- ابن عذاري، المصدر السابق، ص129.

المسلمين، وأخذ أموال الناس بالباطل وعقد عقود الزور، ونظرا لخطورة الوضع في المدينة، أمر أبو يعقوب يوسف بقتله سنة 568هـ/ 1172م، ولكنه فرّ ولم يعثر عليه حتى أُصيب بمرض الجذام[1].

لقد استطاع ابن سحنون جذب الفئات الدنيا من العامة المكونة من اللصوص وقطاع الطرق الذين استغلهم لإثارة الفوضى، وتوسيع قاعدة أتباعه وبذلك لم يجد بقية العوام الذين كانوا يعيشون تحت ضغط الاضطرابات السياسية والأوضاع الاجتماعية المتدهورة، من سبيل سوى الانضمام والالتفاف حول الثائرين للتعبير عن واقعهم المعيشي المتدهور.

ب-حركةأبو عبد الله علي بن محمد بن رزين الجزيري

كان أول ظهوره بمراكش، وأراد الاقتداء بثورة المهدي بن تومرت وإحياء سنته[2]، كان يسعى لنشر أفكاره، وعندما وصل خبره إلى الحاكم يعقوب المنصور بإشبيلية أمر بطرده، فمشى يتغرب ويتجول في الأقطار إلى أن ظهر بمدينة فاس وامتزج بفئة من العوام المكونة من "الأوباش من الناس"كما وصفهم "ابن عذاري"[3]، وعند اكتشاف أمره لاذ بالفرار مرة أخرى، إلى أن تواترت الأنباء بأنه جاز إلى الأندلس فأمر يعقوب المنصور بالكتب إلى جميع الجهات بالبحث عنه، إلى أن عثر عليه بمالقة وعلى أصحابه، فملئت منهم السجون وأمر يعقوب المنصور بسوقهم إلى اشبيلية؛ وكان الجزيري في جملة المسجونين ولكنه استطاع الفرار[4].

لقد استطاع الجزيري أن يستقطب فئة من العامة ويستغل وضعيتهم الاجتماعية المتأزمة، إذ يشير المؤرخ ذاته أنه التف حوله "الأوباش من سفلة الأسواق"[5]، ومن هنا يبدو واضحا أن العامة التي قادت الحركات الاجتماعية في الأندلس اعتبرت مصدرا للفتن وقلق للسلطة الموحدية؛ إذ حركتها دوافع اقتصادية، ورغم كل الجهود التي بذلتها السلطة من أجل القضاء على هذه الحركة والتصدي لشوكة العامة والقضاء على زعيمها، إلاّ أنها لم تستطع فعل ذلك؛ خاصة بعد أن نسجت حول شخصية الجزيري أساطير عدة، وذكرت عنه الأخبار المستحيلة، مفادها أن هذا الثائر يتصور في صورة الحيوان الذي لا يعقل مثل الحمير والكلاب والسنانير، فصحّ عند المستضعفين من

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص129.
2-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص246.
3-ابن عذاري، المصدر السابق،ص208
4-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5- نفسه، الصفحة نفسها.

العوام تصحيح ذلك الكلام، وكانوا متى رأوا سنورا منكرا في منازلهم لم يشكوا أنه الجزيري طالبا للاختفاء والفرار[1].

كانت ثورة الجزيري حركة اجتماعية اتسمت بالضعف، ووجدتها الطبقة الدنيا من العامة فرصة سانحة للانخراط فيها والتعبير عن وضعها المادي المتأزم، في ظل انشغال السلطة الموحدية بصراعاتها الداخلية، ولا يمكن إنكار أنه استطاع استقطاب جمهور عريض من العامة.

انتهت حركة الجزيري بالقبض عليه بمرسية، حسب رواية "ابن عذاري"، بينما يذكر كلا من" ابن سعيد" و"المقري"[2]، أنه قبض عليه في حصن قولية من عمل قرى بسطة[3]، غير أن رواية"ابن سعيد" و"المقري" بعيدة عن الصواب لأنّ "المقري" والذي كان كثير الاقتباس من كتاب" المغرب في حلى المغرب" يذكر أنّ حركة الجزيري كانت في مدة الناصر بن عبد المؤمن(595-610هـ/1198-1213م) بقوله:"أن بني عبد المؤمن لما غيروا رسم مهديهم وصيروا الخلافة ملكا وتوسعوا في الرفاهية وأهملوا الرعية جعل يتستر – أي الجزيري- وشاع سره في مدة الناصر بن عبد المؤمن فطلبه ففر ولم يزل ينتقل متخفيا مع أصحابه إلى أن قبض عليه في حصن قولية وقتل هناك"[4].

ولذلك تعتبر رواية "ابن عذاري" الرواية الأقرب إلى الصواب لأنّ حركة الجزيري ظهرت سنة 568هـ / 1172م في زمن الحاكم أبي يعقوب يوسف(558-580هـ/1161-1190م)، ولا يعقل أن تستمر لغاية الحاكم الناصر ابن المنصور الموحدي (595-610هـ/1198-1213م)، لذلك

أرجح رواية"ابن عذاري "القائلة بأن الجزيري قبض عليه بمرسية وسيق إلى إشبيلية فأخرج إلى موضع جلوس الموحدين وطيف به على جن، ثم وعذب و صلب[5] عام 586هـ/1190م؛ ويضيف "ابن سعيد"أن رأسه حمل إلى مراكش[6]، ليبقى عبرة لمن سولت له نفسه التمرد أو التفكير في تحريض العامة.

والحقيقة أنّ هذه الأحداث ساهمت بقدر كبير في حدوث فوارق كبيرة بين السلطة والعامة؛ هذه الأخيرة التي عبرت عن الواقع المر الذي كانت تعيشه بعض الفئات الاجتماعية الهشة، التي تجمهرت والتفت حول هؤلاء الثائرين لمواجهة السلطة، وسط

1- ابن عذاري، المصدر السابق ،ص207-208/ ابن سعيد، المصدر السابق، ج1،ص246.
2-المصدر نفسه، الصفحة نفسها/المقري،المصدر السابق، ج4،ص65.
3-بسطة مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي من أعمال جيان، وهي متوسطة المقدار، حسنة الموضع ذات أسواق عامرة وبها تجارات وصناعات متنوعة، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1،ص422.
4-المقري، المصدر السابق،ج4، ص65
5-ابن عذاري، المصدر السابق، ص207-208
6-ابن سعيد، المصدر السابق، ص246.

رهانات سياسية مليئة بالصراعات الداخلية والخارجية تكبدت نتائجها الفئات المستضعفة.

2- دفع المغارم والمكوس

إذا كانت السلطة في بعض الأحيان قد أمرت بإزالة المغارم المفروضة على العوام، وهذا ما تعرضنا إليه سالفا كمظهر من مظاهر سياسة الإحتواء التي عول عليها حكام دولة الموحدين، غير أنها أقرّت في الوقت نفسه في العديد من المواضع سياسة مجحفة في دفع المستحقات من أمور الجباية، وهو ما اعتبرته العامة ظلما في حقها، خاصة وأنّ المجتمع في ذلك العصر عرف سلسلة من الاضطرابات الاقتصادية دفع ضحيتها السواد الأعظم من السكان، ومن ثمّ فإن دفع المكوس والمغارم بالنسبة إليهم يعتبر أمرا صعبا وهو ما أحدث نوع من التباعد بينهم وبين السلطة.

على الرغم من أنّ الحكام حرصوا على الحد من جشع قابضي الخراج والعمل على قطع القبالات وإراحة الناس منها في فترات الرخاء والازدهار التي عاشتها الدولة، إلاّ أنّ مشاهد الظلم التي عانى منها العوام كانت واضحة على العامة في العديد من المدن، فأهالي مالقة تضرروا كثيرا من ظلم قابض الخراج والمكّاس، عندما تفاقمت الأوضاع وارتفع الخراج ولم يستطع العوام تسديدها، حتى قام أحد قضاة مالقة برفع شكوى إلى عبد المؤمن بن علي يخبره بما "يعانيه سكان مالقة من جور المكاس وقابض الخراج"[1].

وفي السياق ذاته عرف سكان قرية شلب، ظلم صاحب الخراج، حتى تزعمت الشاعرة الشلبية، حملة على الولاة وأرباب الوظائف المالية، وكتبت إلى السلطان أبي يعقوب المنصور في صلاة يوم الجمعة تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجه، وما حل بأهل بلدتها من صنوف الظلم على أيدي عمال الدولة الموحدية وما أصابهم من بلاء بسبب تعسفهم[2].

ولم تكن مرسية أحسن حالا من المدن الأخرى، عندما تضرر سكانها من زيادة الخراج، وقد أسلفنا الحديث عن تعسف واليها الرشيد الموحدي بتحميل رعيتها ما لا طاقة لهم، ومقابل ذلك أدى تطور السياسة الجبائية المتبعة من طرف ولاة الأندلس إلى تفاقم أوضاع سكان شرق الأندلس الذين عانوا من ظلم أميرهم ابن مرذنيش، عندما أثقل كاهل الرعية بمغارم جديدة لم يعهدوها من قبل؛ وفي نص"ابن الخطيب" ما يبرر ذلك بقوله "تحيّف ابن مرذنيش الرعية بكل وجه من وجوه الجور واستكثر من

1-ينظر النص كاملا عند ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص1224
2-المقري،المصدر السابق، ج4،ص294

القبالات، ورسم بدائع من المكوس، وقرّر في المواشي عددا يلزم المئتين، وفرض على الأدم والبقول والحبوب معادن ثقيلة تقارب أصول الأثمان"[1].

عموما السياسة الضريبية التي أقرها الولاة في غياب مراقبة السلطة، بينت حجم المعاناة التي كانت تعيشها طبقة العامة، والتي ساهمت بشكل واسع في تدهور أحوال الرعية وتذمرهم من هذه السلوكات المشينة التي مارسها الولاة وعمال الجباية، وبذلك وجدت العامة عدة فرص للخروج عن الطاعة والانضمام إلى الحركات المناهضة والمتمردة عن السلطة.

3-تذمر أهل الذمة من السلطة

منذ الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس لغاية نهاية عصر المرابطين، وأهل الذمة يتعايشون مع المسلمين في ظل التسامح الديني[2]، فعوملت هذه الشريحة الاجتماعية بكل عدل وإنصاف سواء من طرف الحكام[3]، أو من طرف المسلمين الذين عاملوهم معاملة حسنة[4]، ولم يُجبروا على الدخول في الإسلام، فنعموا بالأمن في ظل الحكم الإسلامي.

غير أن هذا الوضع لم يستقر لأهل الذمة بمجيء الموحدين، الذين أخذوا في معاملة أهل الذمة معاملة خاصة، لأنهم أصبحوا يشكلون خطرا على السلطة الموحدية، بعد تضييق الخناق عليهم، ولم تنعقد عند الموحدين ذمة ليهودي ولا نصراني، وخيروا بين الإسلام أو السيف[5]، ولهذا منهم من دخل إلى الإسلام عن كره[6].

1-ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية،1956، ص261

2-كان أحد اليهود في عصر ملوك الطوائف يتولى مهام خازن أموال باديس بن حبوس، عبد الله بن بلكين، كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحرير علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، ص68/ وفي عصر المرابطين كانوا يقومون بمهمة جباية الضرائب، وهو ما يبين المكانة الهامة التي احتلوها في هذا العصر، ينظر الأبيات الشعرية التي عبرت عن ذلك عند السلفي، أبو طاهر احمد بن محمد صدر الدين، أخبار وتراجم مستخرجة من معجم السلفي، أعدها وحققها إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى،1963، ص38، ص163/ ويضيف دوزي بأن الدولة المرابطية قد اعتمدت عليهم في سد النقص من الناحية المالية، ينظر رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية للطباعة،1995،ج3، ص162.

3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص199/ ليلى النجار، المرجع السابق، ص154

2-ينظر ابن سعيد، المصدر السابق، ص99،(ت رقم 91)عن معاملة أحد الحكام الأمويين ليهودي والتي اتسمت بالعدل والتسامح.

4-صفي الدين محي الدين، الحياة الاجتماعية في الأندلس على عهد الدولة الاموية138-422هـ/755-1032م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2015، ص31

5- ابن الأثير، المصدر السابق،ج11،ص500 / عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي،ص133.

6- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص199

وبعدسيطرة الموحدين على الأندلس سنة (541هـ-1146م)[1]، وقف اليهود من الموحدين موقفا سلبيا، وراحوايخوضون حربا جهادية ضد المسلمين، ومن ثم لعب أهل الذمة دورا خسيسا في هذا المجال، فأخذوا يتجسسون على المسلمين، عندما تآمر اليهود مع إبراهيم بن همشك أحد أمراء شرق الأندلس، الذي خرج عن طاعة الموحدين بالدخول إلى غرناطة بمساعدة مشرفها ابن دهري اليهودي، حيث اتفق ابن همشك معهم على أن يأتيهم في ليلة معينة إلى باب الربض بغرناطة، فيكسروه له فيدخلها مع جنوده، وقد تمّ له ذلك حسب الاتفاق، لكن الخليفة الموحدي بعث إليهم جيشا سنة 558هـ/1162م، واستعادها وفتك بالخارجين ومن معهم من المتآمرين اليهود الذي استطاع أن يجمع هو الآخر حوله طائفة من اليهود الساكنين بها، والذين أسلموا عن كره وتمكنوا من انتزاعها من يد الموحدين عام 557هـ/1161م[2].

عانت غرناطة كثيرا من هجمات النصارى عليها خاصة بعد أن تحالف ابن مرذنيش وابن همشك مع اليهود ودخلوها، وقاموا بتعذيب من كان فيها من المسلمين سنة 557هـ/1161م[3]، وقد كان تحالف أهل الذمة مع أمراء الأندلس لإسقاط الموحدين والنيل من المسلمين ردّا على سياسة الحكام الموحدين الذين تشددوا في معاملة اليهود والنصارى، خاصة بعد أن أصدر الخليفة عبد المؤمن بن علي أوامره إلى جميع عمال مملكته بالأندلس والمغرب؛ بأن يخيروا اليهود والنصارى بين اعتناق الإسلام أو الجلاء عن البلاد وضرب لذلك أجلا معلوما، وسار على سنة عبد المؤمن بن علي معظم أبنائه الذين تولوا الخلافة من بعده[4].

وفي السياق نفسه يفيدنا "الضبي" بنص في بالغ الأهمية عن وقوف يهود المناطق الأندلسية المحتلة من الأسبان موقفا عدائيا من الموحدين وخاضوا حربا ضدهم، إذ يقول في معرض حديثه عن جيش ألفونسو الثامن:" كانت هزيمة اذفونش بن شانجة على مقربة من قلعة رباح سنة 591هـ/1194م وكان عسكره يضم خمسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدوا أمولاً، فهزمهم الله تعالى"[5].

فهذا النص يمكن أن يعطينا صورة عن موقف اليهود المعادي للمسلمين حيث كانوا يترصدون انهزامهم أمام النصارى، حتى يقوموا بشرائهم كأسرى، والملاحظة المسجلة هنا أنّ أهل الذمة وجدوا من يقف في صفهم لمواجهة الموحدين خاصة و أنهم

1- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص125.
2- المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

3-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224
5- الضبي، المصدر السابق، ص45

قد أجبروا على الدخول في الإسلام في هذه الفترة، فأسلموا مكرهين، وهذا ماصرّح به "ابن صاحب الصلاة"[1]، إضافة إلى التشدد الذي أبداهالحكام الموحدين فضيقوا عليهم الخناق لما لما قاموا به من ممارسات غير شرعية، وقد كان يعقوب المنصور أشد الحكام الموحدين وطأة في معاملته لليهود وكان شاكا في إسلامهم، ولهذا أمر بتمييزهم بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك"بثيابٌ كحيلة، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت آذانهم"[2].

وبقوا على هذا الوضع في عهد ابنه أبي عبد الله محمد الناصر(595-610هـ/1198-1213م) الذي كان هو الآخر متشددا معهم وميز اليهود بهذا الزي وكان يقول:"لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين"[3]، ولكنهم طلبوا من الخليفة أن يغير لهم هذا اللباس فأمرهم بلباس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا "[4]، وكان يقصد المؤرخ أواخر عهد الخليفة أبي عبد الله وهو سنة 621هـ/1224م.

وفضلا عن اللباس الذي بيّن المظهر الاجتماعي البارز في التشدد والعداء الذي كان قائما بين الموحدين وأهل الذمة، كانت مواطن استيطان اليهود مركزا تنفي إليه السلطة الموحدية كل عنصر غير مرغوب فيه لمعاقبته، ومن أمثلة ذلك نفي الحاكم يعقوب المنصور لأبي الوليد بن رشد إلى اليسانة بقول "ابن عبد الملك المراكشي": "أمرأبوالوليد بسكنى اليسانة لقول من قال أنه ينسب في بني إسرائيل، وأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس"[5].

وفي المنحى ذاته يروي لنا" ابن سعيد" في ترجمته لأبي القاسم بن حسان الإشبيلي أنّ الخليفة أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب(626-630هـ/ 1228-1232م) رأى أبو القاسم، وقد صار له باشبيلية موارد ومصادر، فنفاه وأسكنه اليسانة مدينة اليهود وأدام فيها مدة، إلى أن عفا عنه بالشفاعات"[6].

تسببت السياسة الموحدية اتجاه أهل الذمة والتي كانت قائمة على الضغط والاضطهاد وسوء المعاملة، في تذمر هذه الشريحة التي وجدت في تحالفها مع أعداء

1- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص125
2- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224
3- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص224.
4-المصدر نفسه،الصفحة نفسها.
5-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص26، ترجمة رقم 51.
6-ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص149، ترجمة رقم34 .

الموحدين فرصة للانتقام منهم، والاضطرار إلى الهجرة فرارا من تسلط الموحدين الذين دفعوا بصغار المهاجرين اليهود إلى الأسر المسلمة[1].

وصفوة القول أنّ أهل الذمة وقفوا شوكة في جنب الدولة الموحدية، عندما ضعفت سلطتهم وتكالبت عليهم هجمات الأعداء، الذين ازدادت قوتهم بانضمام العديد من العناصر الخارجة عن طاعة الموحدين، بالإضافة إلى مؤامرات اليهود على الحكام و خيانتهم، لذلك تشدد الحكام في معاملتهم لليهود نظرا لتجاوزاتهم الخطيرة على المسلمين.

استطاعت العامة بتعدادها أن تصبح قوة فاعلة ومؤثرة على مسرح الأحداث السياسية ولذلك عمل الحكام الموحدون على استمالتهم بشتى الوسائل، وتجسد ذلك في عدة مظاهر، فكانت العامة قريبة من السلطة تعمل على مساندتها والدفاع عن أمن المدن عندما تشتد هجمات العدو عليها فمثلت بذلك القوة الأساسية في الدفاع ورد الهجمات، كما كانت أحيانا تعارض السلطة وتقف في وجهها محاولة نشر الفوضى والاضطراب في شكل حركات سياسية متمردة والانضمام إلى الثوار الخارجين عن الطاعة، عندما تشتد أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ويكثر التذمر والجور في فرض الضرائب، فتثور لكي تلتفت إليها أنظار الحكام وتحقق مطالبها.

1- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص114.

مظاهر الحياة اليومية للعامة بالأندلس

أولا-محددات مستوى عيش العامة

1-أثر الأسعار

2-مستوى الأجور.

ثانيا-الملامح الاجتماعية لحياة العامة

1- تكوين العائلة
2- تربية الطفل
3 -رعاية الأيتام
4-وضعية نساء العامة
5-مساكن العامة
6-اللباس.

ثالثا-عادات وتقاليد العامة بين الأفراح والأقراح

1- الأعياد والمناسبات.
2- الموت والعادات الجنائزية

تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات هامة عن حياة الخواص في القصور، وكبار الموظفين من وزراء وقضاة، غير أنها لا تمدنا بما يكفي الموضوع عن حياة العوام الذين كانوا يعيشون حياة بسيطة، ورغم ذلك فقد حاولت لم شتات المادة التاريخية المبعثرة في نصوص المصادر التي عَنِيَت بدراسة تاريخ الدولة الموحدية في المغرب والأندلس لاستخراج المظاهر الاجتماعية لعامة الأندلس، وكان في مقدمة تلك المصادر "أمثال العوام" للزجالي" والتي اعتبرت من أهم المصادر المعوّل عليها في كتابة هذا الفصل، لأنّ مؤلفه عاش في زمن الموحدين، وأمثاله منتقاة من عمق المجتمع؛ فقد ساعدت تلك الأمثال والأزجال في نقل مظاهر الحياة اليومية لعامة الأندلس وأجوائهم الشعبية ولغتهم المحلية، فأضفى عليها الطرافة والقيمة، فضلا عن كتاب" المن بالامامة"؛ "لابن صاحب الصلاة" الذي كان أحد كتّاب البلاط الموحدي، فجاءت نصوصه لتوضح مدى معاناة المجتمع من آثار الفتن والحروب ونتائجها على مستوى معيشة الأفراد، كونه شاهد عيان على العديد من المجاعات التي ضربت الأندلس في الحقبة مجال البحث، إضافة إلى روايات "ابن سعيد" في كتابه "المغرب في حلى المغرب"، والتي جاءت تراجمه الخاصة بالحقبة الموحدية خصبة وثرية حول واقع العامة الاجتماعي، وقد كانت لإشادات "ابن عسكر" و"ابن خميس" في كتابهما حول "أعلام مالقة" وكتاب "الوثائق المختصرة" "لأبي إسحاق الغرناطي" و"نوازل ابن بشتغير" دور مهم في معرفة بعض الظواهر الاجتماعية كمقدار المهر وتكاليف الزواج وغيرها من المظاهر.

أولا-محددات مستوى عيش العامة

لا شك في أن معالجة موضوع المستوى المعيشي للعوام، يضطرنا إلى البحث أولا عن الوضع السياسي للبلاد خلال موضوع بحث هذه الدراسة، وقد قدّم كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لــ"ابن عذاري" مدلولا كبيرا في رصد الوضع السياسي للأندلس في عصر الموحدين، الذي عرف كثرة الحروب التي أسهمت بدور كبير في هلاك السواد الأعظم من العوام، إضافة إلى الوضع الاقتصادي الذي عرف تدهورا

كبيرا بسبب التغيرات المناخية التي شهدتها الأندلس في الفترة الموحدية، وما أعقب ذلك من غلاء أسعار المواد الموجهة للاستهلاك، كل هذا أظهر تفاوتا كبيرا بين مستوى العيش عند الطبقات الدنيا من العامة وبين طبقات الخاصة؛ لم تخف آثاره الاجتماعية على العامة في إيجاد فوارق اجتماعية بين أبناء المجتمع، والتي تراوحت بين الغنى والفقر، والعسر واليسر، فنكبت الطبقة الدنيا بقلة الأقوات وانتشار الأمراض واحتكار المواد الغذائية وتلاعب المحتكرين بالأسعار في غفلة السلطة الموحدية، وبيعها للناس بأغلى الأثمان مع ندرتها أحيانا وهذا ما حدث في أوقات الشدة التي مرت بها الدولة.

1-أثر الأسعار

تتأثر الأسعار في الغالب بالوضع الاقتصادي المتأثر بالظروف السياسية والطبيعية، فترتفع وتنخفض وفق ظروف العرض والطلب، وتجدر الإشارة إلى أن الأسعار وردت عرضا في أوقات الشدة والضيق ضمن كتب التراجم والرحالة الجغرافيين وكتب التاريخ العام، إذ لم تكن الأسعار ثابتة فقد خضعت للحالة الاقتصادية والسياسية والعسكرية للبلاد كما أنها اختلفت من مدينة لأخرى.

ومن المؤسف أن تشح المصادر التاريخية بالحديث عن الأسعار العادية لبعض المنتوجات ولا تذكر ذلك إلاّ في فترات الرخاء أو الغلاء الذي تسببه الأزمات والكوارث الطبيعية، ممّا صعب علينا ضبطها، ولكن ينبغي التنبيه إلى أنّ ارتفاع الأسعار وتكاليف المعيشة ظل نغمة متواترة ابتداء من النصف الثاني للقرن السادس الهجري[1].

ويمكن تصنيف تاريخ الأسعار في الأندلس إلى حالتين:

1-ابراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص210.

أ-**الرخاء والرخص**:

إنّ فترات الرخاء التي عرفتها بلاد الأندلس، والتي تميزت برخص أسعار المواد الاستهلاكية وردت عرضا في المصادر الجغرافية التي وصفت بعض المدن بالرخاء وأن قيمة المواد كانت في متناول الجميع، أمّا المصادر الأخرى المطلع عليها فلم تسعفنا كثيرا في كشف الحجاب عن الأسعار في الأيام العادية وخاصة بالنسبة للمواد الموجهة للاستهلاك المعيشي؛ بحيث لا تذكرها إلاّ في حالة رخصها أو غلائها[1]، فنصوص الرحالة والجغرافيين تعطينا صورة تقريبية عن وضعية الأسعار في فترات الرخاء أثناء وصفهم للمدن الأندلسية بالرخص، إذ أننا وجدناهم يصفون مدينة جيان بأنها"أكثر خصبا ورخصا للأسعار واللحوم والحبوب"[2].

أما مدينة باجة فوصفها:"بأنها رخيصة الأسعار جدا أمحلت البلاد أو أخصبت، فإذا أخصبت البلاد لم تكن للحنطة فيها قيمة"[3]،فضلا عن قلعة أيوب بأنها رخيصة الأسعار[4]، أما بلنسية فكانت راخية الأسعار كثيرة الفواكه[5].

وبالتالي يتبين من هذه النصوص بأن البلاد شهدت رخاء اقتصاديا في الفترة التي عرفت فيها البلاد أمنا واستقرارا، وهو نفسه ما أشاد به "ابن صاحب الصلاة" بقوله: "فزاد الإنبساط، والنشاط عند الناس، وزادت المخازن ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة ودرت على الناس الخيرات درورا واغتبط العالم به وببيعته وكثر المال في الأيدي من توالي سمحه وبركته"[6].

أما الحالة الثانية فهي التي عرفت فيها البلاد ضيقا وغلاء شديدين، تكبدت آثاره طبقة العامة التي كانت رهنا لغلاء الأسعار، فعجزت عن عمل أي شيء نتيجة الظروف الصعبة التي مرت بها الأندلس.

1- ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص210
2- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص42/ الحميري، المصدر السابق، ص183/الإدريسي، المصدر السابق، ص202
5-الحميري، المصدر السابق، ص75
4- المصدر نفسه، ص469.
5- نفسه، ص97.
6-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص347

ب-الغلاء والضيق

مست الأندلس في سنوات عديدة أزمات غلاء شديدة،ترددت موجاتها خلال الحقبة المدروسة،وكأنها صارت بالنسبة لعوام الأندلس خلال العصر الموحدي ظاهرة طبيعية تعايشوا معها، وكانت دوافع هذا الغلاء كثيرة أهمها الحروب وما تعرضت إليه المدن من حصار أدى إلى حدوث مجاعات عظيمة،وذلك منذ بداية الحكم الموحدي وقد فسّرت نظرية "ابن خلدون" هذا الواقع؛ عند حديثه عن نشأة الدولة وسقوطها وما يترتب عنها من اختلالات كثيرة وفتن ومجاعات عظيمة تؤثر على البنية الديموغرافية للمجتمع[1]،إذ عرف عهد عبد المؤمن بن علي أوقات شدّة، وتجسد ذلك في مدينة اشبيلية التي شهدت سنة 543هـ/1148م ارتفاعا مهولا في الأسعار على حد تعبير "ابن عذاري":" فعظمت المجاعة بها بسبب الحصار البري والبحري الذي حال دون وصول الأطعمة والأقوات إليها والناس بها في شدة عظيمة من عدم القوت حتى بيعت خبزة بدرهم ونصف، وبيع قدح القمح بستة وثلاثين درهما وباع الناس أموالهم باشبيلية بالأيسر اليسير واستولى الغني بها على الفقير وبيع أصل زيتون بالشرف بنصف درهم، ودار تساوي مائة دينار بعشرة دراهم" [2].

إذن كان لنشوب الحرب عامل مهم في ارتفاع الأسعار فينشغل الناس بالفتن والحروب وينفلت الأمن، وبالتالي يقعدون عن الزراعة والصناعة وتزويد الأسواق بحاجياتها من المواد الأساسية.

و بالمثل تعرضت مدن أخرى كمدينة شلب إلى حصار، فضاق أهلها بالحصار وخافوا الغلبة عليهم[3]،ولم تسلم مدينة بطليوس من غارات النصارى عام 565 هـ/ 1169م فاشتدّ إرهاقها وقطع المؤن عنها حتى شعر أهل المدينة بالضيق، فلما علم الحاكم أبو يعقوب يوسف بذلك في اشبيلية قررأن يرسل إليها مددا وافرا من المؤن[4].

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص334
2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص38
3-الحميري، المصدر السابق، ص342
4-محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص43

إضافة إلى الحروب التي كانت العامل الرئيس في تدهور الأوضاع المعيشية للعوام، أسهمت مضاعفات القحوط والأوبئة والمجاعات التي ألمت بالأندلس في تأثر فئات عريضة من المجتمع، جراء غلاء الأسعاروانعدام الأقوات حتى استعصت على الفقراء؛ ومصداق ذلك ماحدث في عهد أبي يعقوب يوسف عندما نزلت ببلنسية مجاعة عظيمة سنة 567هـ/1171م أدت إلى ارتفاع أسعار المواد بها ؛ وهاهو "ابن صاحب الصلاة "شاهد عيان باعتباره واحدا ممن مسته تلك الظروف القاسية التي مر بها السكان جراء الغلاء كما أسلفت الذكر سابقا قائلا:"وزاد بالناس الجوع والعدم، والضعف والألم، ووصل الدقيق أربعة دراهم للرطل الواحد منه، ومد الشعير المراكشي أربعة درهم، وكذلك القمح غير موجود، وتقدم الناس لطلب القوت والحياة بعد هذه الشدة، وكنت ممن تقدم ...فما وجد أحد فيه شيئا من قوت، إلاّ بعض حبات من تين أخضر الحبة الواحدة من ذلك بدرهم فاشتراها من اضطر إليها، وكنت واحدا ممن اشتراها تقوت بها"[1]، فهذا الواقع المزري الذي عاشه إنسان الأندلس، أظهر عجزه عن التكيف مع المجاعات التي ضربت البلاد.

وفي هذا السياق أفادنا "ابن الزبير" بنص بالغ الدلالة عن سعر الخبز الذي يعتبر المادة الأساسية لقوت الإنسان عندما بيع في أوقات عصيبة"بثلاثين مثقالا"[2].

واستمرت موجة تصاعد الأسعار في الأندلس في ظل واقع مثخن بالجدب ومخلفات المجاعة، وأظهرت بذلك خطورتها على المجتمع وهو ما حدث فعلا سنة 607هـ/1210م عندما ارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة وعدمت الأقوات بقول "ابن عذاري":"لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في أسفارهم القاصيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات"[3].

واعتمادا على ذلك يمكن القول أن هذا الواقع المزري،عاشته وكابدت آلامه الطبقة الفقيرة، فكلما اندلع قحط أو مجاعة أو هجم جراد على المحاصيل إلّا وارتفعت أسعار

1- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص422
2-ابن الزبير، المصدر السابق، ص363
3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص259

المواد الموجهة لسد حاجيات الاستهلاك المعيشي، وخاصة منها الحبوب التي ارتكز عليها غذاء السواد الأعظم من سكان العدوة،ولم يعد بإمكانهم الحصول على أصنافه الجيدة بسبب إقبال الخاصة على اقتنائه جملة وتجفيف مادته من الأسواق،فوجد التجار فرصة لاحتكار المواد الغذائية ورفع أسعرها خاصة القمح، وقد كانت بلنسية أكثر المدن عرضة للحرب والجوع وغلاء الأسعار[1]، حتى أنّ عامتها أحيانا لم يجدوا ما يسدون به الرمق ويطردون به شبح الجوع والموت، بسبب تعاقب المجاعات والجفاف، هذه الأخيرة التي لم تسلم منها حتى الثروة الحيوانية وأدت إلى هلاكها عندما أصيبت المراعي بالبوار فانعدم العشب والكلأ وابتليت قطعان المواشي بالمرض ففضل أصاحبها التخلص منها بأقل خسارة ممكنة وبيعها بأبخس الأثمان[2]، وهو ما أفصح عنه المؤرخ "ابن عذاري" سنة 580 هـ/1184م بمدينة شنترين عندما بيع ثور بدرهم واحد وبقرة سمينة بثلاثة دراهم وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم[3].

أمّا عن أسعار العقار، فالواضح أن أثمانها قد تراجعت كثيرا في ظل الظروف المذكورة سابقا، لأنّ العوام كان شغلهم الشاغل هو الحصول على الغذاء بأي وسيلة كانت في وقت المجاعة، ولهذا لم يكن بإمكانهم شراء المنازل بسبب غلائها في الأيام العادية واكتفوا بتأجيرالدور والمنازل، حتى أنهم طولبوا بالزيادة في سوم الكراء، في وقت عجز فيه معظمهم عن تأدية مستحقات الكراء الأصلي[4].

ولذلك تراجعت أسعار العقار في أيام الغلاء لأنه لم يجد من يشتريها، فالمؤرخ" ابن عذاري" يذكر أنه أثناء المجاعة التي ضربت اشبيلية عام 543 هـ/1148م "بيعت دار تساوي مائة دينار بعشرة دراهم"[5].

ومن خلال التأمل في أسعار المواد الغذائية والمواشي والعقار الواردة في النصوص، نستتشف أن مؤشرات الثروة وقيمها قد تهاوت أمام أسعار القمح والخبز في

1-ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص491
2-عبد الهادي البياض،المرجع السابق، ص102
3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص160
4- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص106
5- ابن عذاري، المصدر السابق، ص38

فترات ضغط الحروب والمجاعات، فأصبح مقدار الخبز أغلى من بقرة أو من ثور، والقمح أغلى من الدار، والدقيق أنفس من زيتون الشرف الذي بيع في اشبيلية بنصف درهم؛ ومن ثَمَّ يدرك القارئ مدى تأثير الحروب والكوارث على الثروات التي أصبحت لا قيمة لها عندما لا يجد الإنسان ما يقتات به في أوقات الشدة.

2-مستوى الأجور.

يبين الأجر الذي يتقاضاه أي عامل من وراء عمله المستوى الحقيقي لمعيشته، فمن خلاله يستطيع تأمين الحد الأدنى اللائق به وبعائلته، ولكن للأسف الشديد المصادر المطلع عليها تتميز بالبخل في هذا الشأن ولم تسعفنا في معرفة قيمة الأجور التي كان العمال يحصلون عليها من وراء وظائفهم من أجل مقارنتها مع الأسعار، وما تحصلت عليه من معلومات وردت في أمثال العامة والتي عبرت بسخرية عن الأجر الزهيد للعامل في الأندلس، إذ كان يتحصل على درهمين كأجر، ولكن لا ندري إن كان أجر أسبوعي أم شهري، عندما عبرت العامة عن ذلك فقالت:"الأجر درهمين،والبقل من أين"[1].

ويبدو من خلال هذا الأجر الزهيد الذي كان لا يكفيه في معيشته ويكاد يقيه الجوع في الأيام العادية فكيف يمكن أن يعيش به في أوقات الغلاء، خاصة إذا علمنا أنه بيعت خبزة واحدة بدرهم ونصف[2]في وقت الغلاء، ولذلك نجده يعاني من الفقر ويتقشف في معيشته حتى إذا تعلق الأمر بعلاجه، وإلاّ كيف نفسر كثرة الأمراض التي كانت تصيب الضعفاء من العامة.

ولهذا وجدت شريحة كبيرة من المجتمع ذات الأجر الضعيف صعوبة في كف حاجيات المنزل، إذ يخبرنا "ابن سعيد" عن حالعائلة فقيرة لم يجد الوالد حتى النقود الكافية لشراء الفحم لطهي الطعام للضيوف، فاضطرته الحال إلى طلب النقود من ضيوفه لسد حاجيات منزله[3]، فالعامل في الأندلس صارع الحياة المعيشية وكابد ارتفاع الأسعار ولجأ أحيانا إلى مد يديه لاكتساب المال من أجل الحصول على ما يكفيه وعائلته نوائب الدهر.

1- الزجالي، المصدر السابق، ص46، مثل رقم 212.
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص38
3- ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص224.

وغني عن القول أن تكشف الأسعار المرتفعة وتدني أجور العمال عن تدهور مستوى معيشة العوام، وما أعقب تلك الحالة من مجاعات أدت إلى حدوث الأوبئة خاصة عند الضعفاء.

ولإثبات ذلك وضعنا جدولا يكشف عن مختلف أسعار المواد في أوقات الرخاء والغلاء:

السلعة	المكان	السعر	الزمن	الملاحظات	المصدر
الخبز	اشيلية	درهم ونصف للخبزة	543هـ -/1148م	غلاء السعر	ابن عذاري،المصدر السابق،ص38
القمح	اشبيلية	36درهم للقدح	543هـ -1148م	غلاء	المصدر نفسه،الصفحة نفسها
الزيتون	إقليم الشرف	نصف درهم	/	غلاء	نفسه
الدقيق	/	أربعة دراهم للرطل الواحد	567هـ	غلاء	نفسه
الشعير	بلنسية	أربعة دراهم للمد المراكشي	567هـ /1171م	غلاء	ابن صاحب الصلاة،المصدر السابق،ص422
التين	بلنسية	درهم للحبة	567هـ /1171م	غلاء	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
خبز الشعير والبقل	غرناطة	ثلاثين مثقالا	/	غلاء	ابن الزبير، المصدر السابق، ص363
			/	رخص	ابن سعيد،المغرب في

العنب	مالقة	ثمانيـــة أرطـــال بدرهم			حلـــــــــى المغرب،ج1،ص152
العبيد	غرناطة	عشرون دينارا	/	الأيام العادية	نفسه، ج2، ص136
دار	اشبيلية	عشرة دراهم	543هـ 1148م	غلاء	ابن عذاري،المصدر نفسه، ص38
البغال	قرطبة	خمسمائة دينار		الأيام العادية	المقري،المصدر السابق، ج1، ص520
بقرة	شنترين	ثلاثة دراهم	580هـ /1184م	الحصار	ابن عذاري،المصدر السابق، ص160
ثور	شنترين	درهم	580هـ 1184م	الحصار	المصدر نفسه،الصفحة نفسها

من خلال رصد أسعار السلع يمكن استنتاج ما يلي:

1- أن ارتفاع الأسعار كان في الفترة الممتدة من سنة(543ـ1148/580-1184م)وهي فترة خلافة عبد المؤمن بن علي وبداية الدعوة الموحدية بالأندلس، وما صاحبها من تدهور للأوضاع الاقتصادية بسبب اشتداد الفتن والثورات وطول مدة حصار المدن، واشتدت في عهد الحاكم أبو يعقوب يوسف (558- 580هـ/1161-1190م)وهي الفترة التي شهدت فيها الأندلس تكالب هجمات النصارى على المدن وما خلفته من آثار اقتصادية وخيمة على المجتمع أدت إلىندرة الغذاء وارتفاع الأسعار، أما انخفاضها يبدأ من عهد الحاكم أبو يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1184 -1198م)وهي الفترة التي عرفت فيها الأندلس رخاء اقتصاديا.

2-إنّ المصادر المطلع عليها لم تفصح عن أسعار بعض السلع في الفترة التي تلت 580هـ/1184م وهي مرحلة حكم الحاكم يعقوب المنصور؛ فهل يكون هذا بسبب الرخاء الذي عم البلاد فاستقرت الأسعار وامتدت إلى أواخر الدولة الموحدية، أم أنّ المصادر أغفلت ذلك واهتمت بتاريخ وتخليد مآثره متجاهلة الوضع السائد الذي عانت منه الطبقة العامة.

3-يعتبر كتاب"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" "لابن عذاري" من أبرز المصادر التي أولت اهتماما بمجال الأسعار، ويمكن الاعتماد عليه في كتابة التاريخ الاقتصادي للأندلس في الحقبة موضوع الدراسة، ذلك لأن صاحبه أولى اهتماما كبيرا بكتابة الأحداث السياسية وصراعات الموحدين مع النصارى، وما صاحبها من حروب وفتن أثرت على المجتمع فظهرت المجاعات وانعدمت الأقوات وغلت الأسعار.

3-رغم أنّ المؤرخ "ابن صاحب الصلاة" كان شاهد عيان على الكثير من الأحداث التي وقعت بالأندلس ومنها ظاهرة قلة الغذاء وارتفاع الأسعار، إلّا أننا لاحظنا من خلال كتابه أنه لم يول اهتماما بالأسعار إلاّ نادرا وهذا كونه من مؤرخي البلاط لذلك جاء كتابه ليمجد الدولة الموحدية.

5-لقد عرفت المدن الكبرى قرطبة، اشبيلية، وبلنسية ارتفاعا في الأسعار مقارنة بالمدن الأخرى، وهذا بسبب الحصار الذي كان مفروضا عليها من طرف قوات النصارى من جهة، ومن جهة أخرى كثرة الفتن والضغط السكاني الذي تعرفه هذه المدن مقارنة بالأخرى.

ومن ثـمّ َنستنتج أن مستوى المعيشة عند طبقة العامة كان متدنيا جدا، بسبب اضطراب الأسعار، فضلا عما تتطلبه الحياة اليومية الغذائية للعائلة الأندلسية المكونة من عدة أفراد، فإذا كان ثمن الخبز يساوي درهم ونصف، والدقيق أربعة دراهم للرطل الواحد، والشعير أربعة دراهم، وهي المواد الغذائية الأساسية لجميع الناس ناهيك عن ثمن إيجار المسكن، وثمن اللباس، ومن ثمّ مقارنتها بالأجر الزهيد للعامل البسيط، فإنّ غالبية العوام في المجتمع الأندلسي قد عانوا من الحرمان ولم يكن باستطاعتهم توفير أدنى الضروريات في أيام الغلاء .

ثانيا-الملامح الاجتماعية لحياة العامة

لا جدال في أنّ مظاهر الحياة الاجتماعية عند العامة كانت واحدة في شكلها العام عبر المراحل الزمنية التي تعاقبت عليها في الأندلس وذلك منذ الفتح الإسلامي لغاية الحقبة موضوع الدراسة، وأنّ المجتمع بمختلف طبقاته الاجتماعية ظل يحافظ على تقاليد الخطبة والزواج وتربية الأطفال وغيرها من مظاهر الحياة اليومية.

والحقيقة أنّ الأسرة الأندلسية قد تميزت بتفاوت طبقي، وظهر ذلك جليا في الحياة اليومية لطبقات المجتمع مما أظهر تفاوتا واضحا في مستوى معيشتهم، وتنوّع ملابسهم ووضعية منازلهم، انعكس ذلك على سلوكاتهم الاجتماعية جعلت العديد من العوام يبحثون عن وسائل تلهيهم وتنسيهم مرارة وقسوة الحياة، بين ما هو مباح ومحرم.

1-تكوين العائلة.

شكلت العائلة عماد البيت الأندلسي، ولذلك اعتبر الزواج من أهم المراحل الأساسية في حياة الإنسان لتشكيل أسرة، وذلك لما يرتبط به من اختيار شريك الحياة، وتكوين أسرة بإنجاب الأولاد، لذا نظر المجتمع الموحدي إلى كل من تخلى عن الزواج نظرة شك في سلوكه الاجتماعي ولا بدّ من النظر في تصرفاته بقول العامة: "عازب ومتفنّق، ثلثي قطيم يفتى فيه"[1].

والمعروف أنّ العرس يكلف أموالا بسبب إسراف النساء في مطالبهن، فيستغللن الفرصة ويضعن شروطا أمام الرجل وعبّرت عن ذلك في خطابها الشعبي"حليني ولا خليني"[2]، غير أنّ التكاليف الباهظة للمهر[3]جعلت الكثير من العوام يعزفون عنه، فكثيرة هي تراجم الحقبة الموحدية التي وردت في كتب الطبقات، كشفت عن عزوف العديد من

1- الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص379، مثل رقم 1664

2-المصدرنفسه، مثل رقم 816، ص185.

3-ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب عمر بن الحسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للطباعة والنش، بيروت، (د.ت)، ص238/ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، (د.ت)ج1،ص135

الرجال عن الزواج وتفضيلهم لحياة العزوبية وهذا لغلاء تكاليف العرس ونقص المالبقول العامة:"زوجوه حوجوه"[1].

ومع ذلك فقد أعتبر الزواج أمرا لا مفر منه ووسيلة لإنجاب الأبناء، وتعزيز الروابط بين أفراد الأسرة والحفاظ على إرثها، واعتبرت العامة أمر تزويج البنات ضروري وإن لم يحصل ذلك فإنها مصيبة، ومن ثم اعتبروا المرأة مصدر البلاء إن لم تتزوج عندما قالوا"من كثروا بنات، كانوا الكلاب أختان"[2]خاصة إذا بلغت سن التعنيس[3]، إذ تشير إحدى الروايات[4] أن امرأة قد بلغت سن الزواج ولم يتقدم أحد لخطبتها، فسمعها أبوها، تلوم نفسها على ذلك؛ فنظر في تزويجها، وهذا رغبة منها في حفظ شرفها، لذلك نصح الآباء بقبول كل من يتقدم لخطبة بناتهم[5] للتخلص من هاجس العنوسة، إذ يشير "ابن عسكر"إلى "رجل خطب لابنته أحد الطلبة وقام بتجهيزها"[6].

وقد تعددت مبررات اختيار الزوج لشريكة حياته، فالاختيار كان يتم عادة بواسطة نساء مسنات على سبيل حب الخير والوصل بين الفتى والفتاة [7]، فتتقدم النساء لخطبة الفتاة، فتكون بذلك همزة وصل بين الخاطب وأهل الفتاة لعرض الشروط، وقد كانت الخاطبة تحمل مواصفات معينة يحبّذها الرجل فمنهم من كان يحبذ المرأة الشقراء بقول العامة:"أي هو النمش،ثم افتش" [8]، أوالسمينة البيضاء بقولها"المليح أبيض سمين"[9]، أما

1- الزجالي، المصدر السابق، ص235
2- المصدر نفسه، ص334
3-يذكر المؤرخ ابن سلمون أن سن التعنيس عند المرأة هو خمس وثلاثون سنة فما فوقها، ابن سلمون، أبو القاسم سلمون بن علي سلمون الكناني،العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم، مخطوط رقم د 670، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، الرباط، ص31.
4- المقري، المصدر السابق، ج3، ص530
5-قالت العامة:"إذا قالت البنت دده فكرلها في مخدّ، وإن رفعت القدح لفمها، تحتاج ما تحتاج أمها، الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 27،ص9
6-يتعلق الأمر بالشيخ محمد بن سعيد بن مدرك الغساني، من أهل مالقة (كان حيا عام 570هـ/1174م) استدعى أحد طلبته وقال له أريد أن أزوجك ابنتي وعندي ما تحتاج إليه" لم أقف على تاريخ وفاته، ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص125
7-خالد حسن محمد الجبالي، الزواج المختلط بين المسلمين من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92/422هـ) مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت)، ص33
8- الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 476، ص107
9- ينظر هذا الزجل عند ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص206

الغالبية من العوام فقد حبّذوا المرأة الحرة[1]، ويبقى اختيار النسب من البيوتات المشهورة من أهم شروط الزوج حسب ما صرّح به المؤرخ "ابن المرابط"(ت663هـ/1264م).[2]

والملاحظة المسجلة أنّ المجتمع العامي لم ينظر بعين الرضى إلى الرجل الذي تضطره الأحوال أو الحاجة إلى الزواج من عاهر، من ذلك أحد العوام الذي تزوج بعاهر ترقص في الأعراس فجلب العار لنفسه وأخذ الناس يلومونه على ذلك.[3]

وقد ظل اختيار الفتاة البكر والعذراء من أهم شروط الرجل في المرأة حسب المؤرخ "ابن بشتغير"(ت516هـ/1122م)، إذ يخبرنا في أحد نوازله "أن أبا انكح ابنته وشرط عليه الزوج عذريتها"[4]، لأنّ الفتاة إذا فقدت عذريتها فقد تجلب العار لعائلتها إذا اكتشف الزوج يوم الدخلة أن العروس ليست بكرا[5]، وعليه فقد حبّذ القضاة في هذه الحالة تخصيص بعض النساء من ذوي الخبرة والأمانة لفحص الفتيات اللواتي يقبلن على الزواج حتى يطلّع عليهن إن كان بها عيب أم لا[6]، وهذا تفاديا لحدوث الطلاق.

والظاهرة الملفتة للانتباه، أنّ الآباء كانوا يعقدون نكاح بناتهم دون استشارتهن في أمر الزواج، كونه المسؤول الأوّل عن زواج بناته، فلا يحتاج إلى استشارتهن، وإذا غاب الأب يحل الأخ الأكبر[7]، ولذلك اشترط لصحة الزواج أن تسمع موافقة المرأة على الزوج والصداق، ويعرف ذلك من خلال صمتها بالقبول أو بكائها المعبر عن الرفض[8]، وقد أورد أورد "البرزلي" الصفة التي تستأذن بها البنت البكر بقوله: " يقال لها فلان خطبك على صداق، المعجل منه كذا، والمؤخر كذا، وعقد النكاح وليك فلان، فإن رضيتِ فاصمتي، وإن كرهتِ فتكلّمي "[9].

1-ابن دحية الكلبي، المصدر السابق، ص239
2-ابن المرابط، المصدر السابق، ج2، ص490
3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1 ،ص305.
4-ابن بشتغير،المصدر السابق، ص368
5- المصدر نفسه، ص358/ الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص130
6- المصدر نفسه، ص139
7- ابن المرابط، المصدر السابق، ج1، ص.219
8- أبو إسحاق الغرناطي، الوثائق المختصرة، تحقيق إبراهيم بن محمد السهلي، مكتبة الملك فهد، السعودية، طبعة2011، ص96/ ابن المرابط، المصدر السابق، ص220/ البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، فتاوى البرزلي أو جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م، ج2، ص265.
9 - أبو إسحاق الغرناطي، المصدر السابق، ص98

لقد كان الصداق أكبر مشاكل الزواج، وقد حدّده "أبوإسحاق الغرناطي"(ت 579هـ/1183م) وهو المعاصر للفترة موضوع الدراسة؛ بربع دينار أقله أوثلاثة دراهم[1]، وبذلك فهو يتفاوت حسب قدرة الزوج، غير أن مصاريف الزواج كانت باهظة، خاصة عند الفقراء والتي كلفتهم أحيانا ثلاثمائة دينار وهو ما أفصح عنه "ابن أبي أصيبعة "أثناء ترجمته للحفيد أبي بكر بن زهر[2](ت595هـ/1198م)، وقد اشتكى إليه أحد أصدقائه بقول ابن زهر لصاحبه: "ما لخاطرك كأنه مشغول بشيء عرفني ما هو، فقال له إنّ لي بنتا زوجتها لرجل وهو يطلبها، وقد احتجت إلى ثلاثمائة دينار"[3].

لهذا اعتبر أمر تجهيز العروس من أكبر المشاكل التي تواجه الوالدين نظرا لارتفاع تكاليف الجهاز، و يفيدنا"ابن عسكر" بنص في بالغ الدلالة عن إحدى الأمهات التي اشتكت من ارتفاع تكاليف جهاز ابنتها للفقيه يحي بن الحسن بن محمد بن أحمد القيسي(ت621هـ/1224م) بقوله:"وجاءت امرأة تشكو ليحي بن الحسن بن محمد بن أحمد حالها، وأن عندها بنتا تحتاج إلى الزواج، وما لها بما تجهزها به، فأعطاها الرجل ثلاثين دينارا وقال إذا كانت الصبية للزواج فجهازها عندي"[4]، وما هذا النص إلاّ دليلٌ على مدى مدى التكافل الاجتماعي الذي كان سائدا بين فئات المجتمع، غير أنه وجدت حالة رجل آخر اضطر إلى اقتراض المال من الحفيد أبي بكر بن زهر(ت595هـ/1198م)، لتجهيز ابنته، ولجأ إلى بيع الزيتون في الأسواق من أجل تزويج ابنته وتسديد ديونه[5].

وعليه يمكن القول بأنّ العوام وجدوا صعوبة كبيرة في تجهيز بناتهم وزفهم إلى أزواجهم، وذلك بسبب غلاء جهاز العروس مقابل أجرهم الزهيد الذي لا يكفيهم حتى للعيش.

1- أبو إسحاق الغرناطي، المصدر السابق ، ص.104

2-هو أبو عبد الله محمد بن أبي مروان عبد الملك أحد أطباء الأندلس المشهورين، كان معظما عند ملوك بني عبد المؤمن، إضافة إلى براعته في الأدب واللغة والحديث والفقه، توفي وعمره إحدى وتسعين سنة، ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص399/ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص463.

3 - المصدر نفسه، ص479

4- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص367

5-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص479

وبعد تجهيز العروسين يتم تحديد يوم الزفاف، وقد جرت العادة على أن يتم عقد النكاح في المسجد[1]، وبعد ذلك تجهز البيوت ويتم استدعاء الأهل والأقارب والجيران، وتطبخ الأطعمة الخاصة بوليمة العرس، وتشترى الحلويات والكعك وسط أجواء تعمها البهجة والسرور[2]، وينقل جهاز العروسة المكون من الملابس والأفرشة إلى بيت زوجها.

وجرت العادة على تخصيص يوم للذبح وهو يوم تعب ومشقة، أما اليوم الموالي فهو لاستقبال الضيوف وإطعامهم، وهاهو" ابن عسكر" يصف لنا يوم زفافه قائلا:" لما تزوجت صنعت طعاما معدا للعرس على جري العادة بين الناس، فلما كان يوم الذبح أخبرت الفقيه أبا الفضل على أن استدعيه لمثل ذلك اليوم وكان في نفسي أن لا استدعيه إلا في يوم الإطعام لكون يوم الذبح إنما هو يوم مهنة وتعب"[3]

كانت حفلات الزفاف تقام وسط ضجيج الطبول فتخرج العروس من بيت أهلها إلى بيت زوجها مرتدية ثوبا خاصا لهذه المناسبة مزينة بمختلف أنواع الزينة[4]، ومشهد الحفل يكون مثارا لإعجاب المدعوين، ووسط زغاريد النساء، وكانت تستمر أسبوعا كاملا، فتنحر فيها الذبائح وتدق الطبول وتعزف المزامير، وكان لا بد من تقديم هدية للعروس لإتحافها[5]، وينتهي حفل الزفاف بعد أن كلف الأسرة الأندلسية الكثير من الديون، وتبدأ الحياة الزوجية أين يقع عماد البيت وقوامه على الزوج، أما الزوجة فتبقى ماكثة في البيت تؤمن خدمات البيت والإشراف على إنجازه والعناية بأطفالها.

1-ابن الزيات، أبو يعقوب بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، طبعة1984، ص80.
2-مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، تقديم وتحقيق عبد الغني أبو العزم، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، (د.ت)، ص6/ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص.57
3- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص331/ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س8، ق1، ص245

4- مريامة لعناني، الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، جامعة قسنطينة، 2008، ص.38
5-Rachel Arié- «Aperçus sur la femme dans l’Espagne musulmane »-dans Aspects de l’Espagne musulmane : histoire et culture – ed De brocard – Paris -1997-p26

2-تربية الطفل

جسّد الأطفال البراءة والصدق في هذه الحياة، لذلك متى تأسس بيت إلّا ينتظر الوالدين فيه ظهور طفل جديد، يُسهم في تجدّد الحياة واستمرارها وإدخال البهجة داخل البيت فكانت تلك أمنية كل زوجين.

كانت المرأة تقوم باختبار نفسها إن كانت حاملا أوّلا، وذلك بوضع بخور أو عنبر وتمنع أن يخرج من ثيابها فإن ظهرت فيه الرائحة فهي حامل، وإن لم تظهر فليست حامل[1]؛ وبحدوث الحمل كان الزوج يبذل قصارى جهده لتلبية جل رغبات زوجته، وعلى الخصوص ما تشتهيه نفسها من مأكولات حتى ولو كان معسرا[2]، خاصة إذا علم الزوج أنّ الحمل ذكرا فتكون بذلك فرحة الأسرة كبيرة[3].

وعندما يحين موعد الوضع كانت تستدعى القابلة إلى المنزل التي تتولى مهمة توليد المرأة، والتي كانت تتلقى صعوبة في أداء مهامها خاصة إذا تعسرت حالة الولادة بسبب ضعف صحة الأم وهزالها، وعند خروج الطفل إلى الحياة تقوم القابلة بإصلاح أعضائه وتنظيفه[4]، مقابل أجر تأخذه على عملها، وعبرت عن ذلك من خلال خطابها الشعبي"ارفع حرك يا مهجة لقابل حتى يرخص القوابل"[5].

وقد كان الختان عملية ضرورية للأطفال، ويسمى أيضا الإعذار، وفي هذه العملية مناسبة للاحتفالات بين الأسر، وجرت العادة في العصر الموحدي أن يختن أولاد العامة بأمر من الخليفة، فقد كان الحاكم يعقوب المنصورفي كل سنة يأمر بجمع الأطفال وختانهم، وفي هذا الشأن يصور لنا أحد المؤرخين مشهد الختان قائلا:" كان أبو يوسف كلما دخلت السنة، يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون، فيجمعون إلى موضع قريب من

1-السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد كتاب في آداب الحسبة، أعده للنشر جورج كولان، ليفي بروفنسال، مكتبة باريس، (د.ت) ص54

2-ابراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص33

3-سعيد عبد الفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج11، العدد1، أفريل-ماي1980، ص103

4-سامي النبرواي نجلاء، القابلة في المغرب والأندلس، الدور الطبي والقضائي والاجتماعي، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، (د.ت) ص8-9

5-الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 204، ص52

قصره فيختتنون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة، وربما زاد على المثقل درهمين جديدين"[1].

كانت المرأة في المنزل تشرف على تربية أطفالها غير أنّ بعض العائلات الميسورة كانت تستدعي مربيات من طبقة العامة، دفعتهن الحاجة إلى القيام بذلك لكسب العيش، فيتولين مهمة إرضاع الأطفال والاهتمام بشؤونهم، وقد اختيرت لتلك المهمة الزنجيات[2]، إلاّ أن أبناء العامة اكتفوا بأمهاتهم كحاضنة ومرضعة، فتتحفظ في غذائها حتى يكون لبنها سليما لطفلها، فتعمل على تربيته تربية حسنة، وبعد أعوام كان يتوجه إلى الكتاب، أين كان معلم الصبيان يعمل على تربيته تربية خلقية بتعليمه مبادئ القرآن والكتابة[3].

ومما لا شك فيه، أنّ المنزل يقوم بالدور الأساسي في تكوين شخصية الطفل ويترك بصمته الاجتماعية والثقافية على تربية الأبناء، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون في نفوس أبنائهم حب العلم، لأنّ صلاح الطفل من صلاح أبيه وأمه و أن التنشئة والتربية السليمة وراءها دوما أبا وأما يتحليان بخلق كريم، فكان دور الأب منصبا على تربية أولاده خلقيا، بِحَثّهم على الفضائل والقيم الإنسانية، إذ يقوم بالدور الأساسي في هذه الناحية؛ فهو المعلم الأوّل في حياة طفله، سواء بطريقة مباشرة بأن يتولى بنفسه تعليمه، أو بطريقة غير مباشرة بحثه على التعليم ومساعدته وتوجيهه نحو مستقبل أفضل، وتشجيعه على الجدّ والمثابرة في دراسته[4]؛ فكان يراقب أبناءه ويحرص على تدريسهم.

ويخبرنا "ابن عبد الملك المراكشي"عن الحفيد أبي بكر بن زهر(ت595هـ/1198م) الذي ألزمه أبوه موضعا من داره وبناه عليه ولم يترك منه إلّا موضعا يدخل منه الطعام والشراب إليه، وأقسم أن لا يخرجه منه حتى يستظهر كتاب"حيلة البرء"لجالينوس،"فلم يمر عليه إلاّ أمد قليل حتى فرغ من حفظه وشفعه بتشريح كتاب جالينوس"[5]، وفي نفس

1- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص209
2- السقطي، المصدر السابق، ص49
3-ابن الزبير، المصدر السابق، ص362
4-إبراهيم عبد المنعم سلامة، رعاية الأيتام في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة،2005، ص28.
5- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص399

السياق، حظيت الشاعرة قسمونة بنت إسماعيل اليهودي[1] بالتعلُم من قبل أبيها في بيتها عندما اشرف أبو ها على تأديبها بنفسه[2].

ومن الطبيعي أن يقضي الأطفال وقت فراغهم في اللعب، غير أنّ المصادر في هذا الموضوع تتميز بالتقتير، وليس لدينا معلومات أخرى عن وجود أماكن للعب، والواضح أن اللعب بالمنزل أو خارجه في الشوارع والطرقات أهم ما ميّز الحياة اليومية للأطفال في المجتمع العامي، كما شاعت ألعاب أخرى مثل لعبة "النفير"وعبرت عنها العامة في المثل التالي:" أوحش من نفير الصبيان في شهر شعبان"[3]، واللعب بالآلات الموسيقية كالدف بقولها:"بحل دف الصبايا، إن لم يضرب يعلق"[4]؛ ويتصل باللعب قضاء الأطفال الوقت في التنزه[5] أو الخروج إلى ممارسة السباحة، فقد شاهد "ابن سعيد"صبيان مالقة يمارسون السباحة في واديها[6].

وعليه يمكن القول بأن الأطفال قد شكلوا شريحة اجتماعية مهمة في الأسرة، إذ حظيوا بالرعاية النفسية والبدنية طوال فترة النمو، وخصصت لهم السلطة احتفالات خاصة، وحرصا لآباء على تعليمهم، وسهروا على فعل ذلك، فضلا على تخصيص أوقات ووسائل للعب الأطفال والترفيه عنهم.

1- لم أقف على ترجمتها.
2- المقري، المصدر السابق، ج3، ص530
3-الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 522، ص118
4 - المصدر نفسه، مثل رقم 677، ص155
5-راوية شافع عبد الحميد، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة (92-422هـ/ 711-1031م) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الأولى،2006، ص188
6- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص350

3-رعاية الأيتام

ظهرت بالأندلس الموحدية فئة الأيتام الذين فقدوا آباءهم لأسباب عديدة، إلاّ أنّ الحروب تتصدر تلك الأحوال، أين تعرض الكثير منهم للقتل أو الأسر[1]، فعاشت هذه الفئة محرومة من حنان وعطف الوالد، تكابد آلام ومحن الحياة.

لقد أوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عن اليتيم، ودعا إلى حفظ أمواله من الضياع من خلال وضع وصي على أمواله إلى أن يبلغ، وهذا حتى يتمكن من إعالة نفسه عند الكبر، **لقوله تعالى : { وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً }**[2]**وأيضا يقول عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً }**[3].

إلى جانب الآيات التي وردت في القرآن الكريم، والتي كانت تدعو إلى كفالة اليتيم والإحسان إليه ورعايته، نجد قي كتب السنة أحاديث تحث على الإحسان وكفالة اليتيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلّى الله عليه وسلم قال:**"كافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ في الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطى"**[4]، وفي حديث آخر،عن أبي هريرة أن النبي قال: **" خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ "**[5].

وقد أولت المصادر التاريخية خاصة منها كتب النوازل، أهمية في هذا الشأن وحذرت من ضياع أموال اليتيم، إذ شدّدت فتاوى الإمام الشاطبي (ت عام 790هـ/1388م) على أموال اليتامى بقوله: "فيأكلون جميعا من طعام هذا وطعام هذا فيكون لليتيم الطعام ولكافله مثله، فيجعلونه في بيوتهم يقتاتونه، فلما جاء التشديد في أموال اليتامى لم يأمنوا أن يكون أكلهم من طعام اليتيم أكثر مما يأكله اليتيم من طعامهم"[6].وكانت

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص61، 127.
2- الآية 2 من سورة النساء.
3- الآية 10 من سورة النساء.
4- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (ت 261هـ/ 875م)، صحيح مسلم، دار الإحياء الكتب العربية، ط1، 1955م، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، ج4، حديث 2983، ص2287
5- ابن ماجة، ابن ماجة القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت273هـ/886م)، سنن ابن ماجة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ط1، 1998م، حديث 3679، ص222-223

طعامهم"[1].وكانت تسند مهمة كفالة اليتيم إلى أحد أفراد عائلته إذا توفي أحد أبويه، وبناء على ما ورد في كتب النوازل والأحكام؛ قد يكون الجد هو الوصي، وهذا ما نستشفه من خلال نازلة ذكرها الونشريسي"عن وفاة رجل وترك ابنا وابنة وزوجة، فالتزم الجد المذكور نفقة حفيديه"، وأيضا سئل بعض الفقهاء عن وثيقة مضمونها" أن رجلا توفي ولده وترك ابنا وابنة وزوجة، فالتزم الجد المذكور نفقة حفيدته مدة أربع سنين على أن لا تتزوج الزوجة"[2]؛ كما يمكن أن تكون الجدة هي الوصي، إذ بينت إحدى النوازل أن" أمّا توفيت وتركت بنتا فحضنتها جدتها لأمها"[3]،وقد يكون الأخ الأكبر هو الوصي على إخوته[4].

لقد كان الوصي يقوم مقام الأب، وينزل منزلته في جميع أمور الصغير، خاصة في أمور زواج البنت، فلا ينبغي إجبارها على ذلك بل ينبغي استشارتها والأخذ برأيها[5].

ونظرا للوضعية الاجتماعية لليتامى وصغر سنهم وضعفهم وعجزهم عن الاعتناء بأنفسهم، نجد أنّ السلطة الموحدية والمجتمع قد أولوا عناية خاصة باليتامى، فحرصوا سلطة ورعية على أن يوفروا لهم سبل الحياة الكريمة، وتعويضهم عن عطف الوالدين فوفّروا لهم ما يحتاجونه من ضروريات، وبذلك سعى حكام الأندلس إلى رفع مذلة الفقر والعوزعن الأيتام، وإنعاشهم والرفق بهم، فتعدّدت صدقاتهم في كثير من الأوقات خاصة في المناسبات الدينية والاجتماعية وبعض المناسبات الخاصة [6]، فالحاكم يعقوب المنصور كان يشرف على ختان الصبيان اليتامى وتقديم الهدايا لهم في أجواء من الفرح والسرور، فقد أصدر أمرا في سنة 595هـ/1199م بإعذار الأطفال، وبذل لكلّ صبي منهم دينارا من الذهب ودرهما من الفضة، وحبة من الفاكهة، وقد كان يهدف من خلال قيامه

1-الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس،1985، ص158.
2- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص.166
3-أبو القاسم بن سراج الأندلسي، فتاوي قاضي الجماعة، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية،2006،ص150
4-ابن المرابط، المصدر السابق، ج1، ص219.
5- ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري، ط1، 1995م، ج1، ص205/أبو إسحاق الغرناطي، المصدر السابق، ص96
6-ابراهيم عبد المنعم سلامه أبو العلا، المرجع السابق، ص18

بهذا العمل أن ينشغل الصبية عن آلامهم، وكان الدينار يصرف في معالجتهم [1]، ويصف "ابن عذاري" ما تم صرفه من أموال في ذلك قائلا: " فكان يذهب في ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهب وفضة، فكان هذا من مكارمه التي لم يسبقه أحد إليها من الملوك المتقدمين"[2].

وقد حدّد "عبد الواحد المراكشي" الأطفال الذين يختنون من قبل الخليفة بقوله: " كان كلما دخلت السنة، يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون، فيجمعون في موضع قريب من قصره فيختنون، ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة، وربما زاد على المثقال درهمين حديديين"[3]،وما يمكن أن نستشفه من خلال هذه النصوص أنّ الحاكم يعقوب المنصور كان مهتما بشؤون اليتامى، فيتفقد أحوالهم في جميع المناسبات فيغمرهم بعطفه وإحسانه، ويحاول قدر المستطاع إدخال السعادة إلى قلوبهم والتخفيف من معاناتهم.

كما كان للمجتمع دور في الاهتمام بشؤون الأيتام ومساعدتهم، إذ نجد الفقيه علي بن محمد بن علي بن هذيل[4](ت 550هـ/1155م) يفرق أمواله على الأرامل واليتامى ويقدم الأطعمة من دقيق وادم وغير ذلك عليهم[5].

كما أننا نجد ما يبين مدى التضامن والتآزر الذي كان سائدا بين فئات المجتمع عندما قام أحد ميسوري الحال وهو عبد الله بن طلحة بن أحمد (ت 598هـ/1201م)، بوضع وصية جليلة وهو على فراش الموت يحتضر، بأن توزع أمواله على اليتامى والمساكين وأهل الستر[6]، وربما كان يسعى هذا الرجل من خلال ذلك أن يؤمن لليتيم مصدرا يتعيش منه ويضمن حقه.

وقد عكست لنا هذه النصوص مدى رعاية الأثرياء لليتامى، كما حملت في طياتها بعض أوجه عناية هؤلاء بهم وضمان كسوتهم وإطعامهم والحرص على تربيتهم تربية

---

1 - ابن عذاري، المصدر السابق، ص228.
2 - المصدر نفسه، ص228/ حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 409.
3 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص209
4-يكنى أبو الحسن البلنسي، كان إماما في التجويد والقرآن، وكان منقطع القرين في الفضل والدين والورع والزهد، توفي ببلنسية، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، المستملح من كتاب التكملة، حققه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى،2008، ص309.
5- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
6-ابن الزبير، المصدر السابق، ص75

حسنة، فقد كان علي بن ابراهيم التجيبي(ت 604هـ/1207م)" من أهل الثروة واليسار والمروءة التامة وفعل الخير في السر والجهر مسارعا مسارعا الى اعمال البر وتجهيز الايتام وتربيتهم على ما يرضي الله"[1]، وكان ليحي بن أحمد القيسي(ت621هـ/1224م) الفضل في تجهيز يتيمة توفي والدها [2]، وقد سبق وأن أشرنا إلى النص سابقا.

ولعل مساعدة أهل البر والإحسان لليتامى، ومشاركتهم حياتهم الاجتماعية ودعمهم ماديا، لدليل واضح على مدى التكافل والتلاحم الاجتماعي الذي كان سائدا وسط المجتمع برفع العوز عن الأيتام وإنعاشهم والرفق بهم، وبهذا كان للمجتمع دور في رعاية الأيتام، فشاركت شرائح عدة برعاية مصالحهم والاستقصاء عن أحوالهم، فخصصوا لهم نصيبا من صدقاتهم التي كانوا يفرقونها عليهم في المناسبات وحتى في الأيام العادية.

4-وضعية نساء العامة

لقد كان للمرأة الأندلسية في العصر الموحدي حضورا بارزا على مسرح الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، فالمرأة هي عماد البيت والركيزة التربوية الأولى والمهمة في الأسرة، ومارست عملها في البيت و خارجه، ولكن طبيعة العمل وطريقة أدائه تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية التي تعيش فيها المرأة، فناهيك عن مهمتها الأساسية في البيت الذي يعتبر عالمها الخاص، وما امتازت به من خصائص فيه، فهي تقوم بمهمة لا تقتصر على ما فيه من أعمال كالغسيل والطهي والتنظيف، بل إعداد وتربية النشء وهي رفيقة الرجل في الحياة .

فساهمت مساهمة فعالة في الإنتاج الزراعي، ويبدو ذلك واضحا في البادية عندما كانت دائما سندا لزوجها في الحقل الزراعي، فساعدته في كل مراحل الموسم الفلاحي[3]،

1-ابن الزبير، المصدر السابق، ص75
2-ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص367
3-المقري، المصدر السابق، ج1، ص178

وعملت جنبا إلى جنب معه وشاركته في قطف وجني المحاصيل خاصة جني الفواكه[1]وموسم العصير[2].

كما أثبتت حضورها في أعمال أخرى كتربية دود الحريروالذي كان يستخرج منه أرقى أنواع الحرير، إذ تشير المصادر التاريخية أن العديد من المدن الأندلسية تخصصت في تربية دود القز لاستخراج أرقى أنواع الحرير[3].

لقد كانت المرأة العامية سندا لزوجها، حتى أن إحدى النوازل تشير إلى أن امرأة وهبت عند وفاتها أملاكها لزوجها[4]، وهذا ما يدل على حسن العشرة بينهم، والجدير بالذكر أنّ العديد من النساء اضطرتهن الحاجة والظروف المعيشية الملحة إلى السعي لتحصيل الرزق والانخراط في حياة العمل، فامتهنت مهنة النائحة، وهي التي تستأجر للبكاء على الميت[5]، وكان لها طقوس معينة تستعملها في أداء مهمتها كالصراخ والندب وما إلى ذلك.

كما قامت المرأة بدور الغاسلة[6] والقابلة[7]ومربية الأطفال في البيوت[8]، ومارست الحياكة وغزل النسيج[9]، وباعت الثياب والحلي والجوهر في الأسواق[10]، بينما بقيت بعض بعض النساء الأرامل عرضة للفاقة [11].

أما المرأة العجوز فقد كان لها حضور في المجتمع، وبالرغم من تقدمها في السن ،إلاّ أنها قامت بأدوار عديدة فهي القابلة التي تشرف على توليد النساء، والحاضنة المربية للأطفال[12]،كما مارست دور الخاطبة فتقوم بالتمهيد والاتفاق بين المتقدم للزواج وأهل

1-ليوبولدو طريس بالباس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ترجمة محمد يعلى، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى،2007، ص226

2- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص349

3-الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب الجعرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ص93/ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص185.

4-القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق، ص190

5-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص489

6-راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص182

7- قالت العامة: "ارفع حرك يا مهجة لقابل حتى يرخص القوابل"، الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 204، ص52

8- السقطي، المصدر السابق، ص49

9-ابن رشد، تلخيص السياسة لأفلاطون ترجمة حسن مجيد العبيدي، وفاطمة كاظم الذهبي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ص126.

10-القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق، ص163

11- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص367

12- راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص188

العروس؛ وقد اختصت بعض عجائز النسوان بعلاج المرضى بالأعشاب التي كانت تلتقطها من الطبيعة، نظرا لمعرفتهم الجيدة بالأدوية ما لا يعرفه الطبيب[1] حسب رأي الطبيب عبد الملك ابن زهر.

ويمدّنا "ابن سعيد" بنموذج آخر للمرأة الأندلسية العجوز والتي مهما بلغ سنها فإنها تعوّل بنفسها على إعداد الخبز لأفراد عائلتها[2].

ومن نافلة القول أنّ المرآة الأندلسية قضت قسطا كبيرا من عمرها في المنزل خدمة لزوجها وتنشئة لأطفالها، إضافة إلى دورها البارز في المجتمع فهي العاملة والمسؤولة عن البيت والمعلمة والقابلة، والمساندة لزوجها في عمله، فقد قامت بدور فعّال في محيطها الأسري والاجتماعي، ويبدو أن المرأة الاندلسية لم تتمتع بتلك الحرية التي تمتعت بها نساء الأندلس في العصر المرابطي عندما بلغت المرأة ذروة تدخلها في أمور السياسة[3].

ولهذا فإن الفقيه أبا الوليد ابن رشد(ت595هـ/1198م)يخبرنا في كتابه أن مهام المرأة "محصورة في البيت وفق ما يمليه العرف والتقاليد ولذلك اعتبر اعتكاف النساء في البيوت هو سبب من أسباب تخلف المدن وعليه "يجب أن يأخذن مكانتهن بين أهل المدينة مثلهن مثل الرجل، وأنهن يجب أن يقفن بمثل ما للرجل من درجة"[4].

ولم تكن المرأة العامية منشغلة بالبيت فقط بل اهتمت بزينتها وجمالها، حتى أنها كانت مضربا في الرقة والجمال، فالمؤرخ "الإدريسي"(ت558هـ/1066م)،وصف نساء بلش بالجمال الفائق"[5]،فضلا عما تمتعت به المرأة البربرية من جمال "جعل رئيس النخاسين بالمشرق يبحث عن المرأة الكتامية الأم صنهاجية الأب ومصمودية المنشأ"[6] فضلا عن وجود الأسواق لبيع المنتجات التجميلية والعطور[7]التي استعملتها النساء

1-ابن زهر، المصدر السابق، ص275
2-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص150.
3- فوزية كرراز، دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري،دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، الطبعة الأولى،2006، ص43
4- ابن رشد، المصدر السابق، ص126
5- الإدريسي، المصدر السابق، ص186
6- السقطي، المصدر السابق، ص50.
7-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص395

بكثـرة[1]، هـو مـا دفعهـن للإقبـال علـى ذلـك والاهتمـام بجمـالهن، حتـى وصـفهن" ابـن الخطيـب"قـائلا:"وحريمهم حـريم جميـل موصـوف بالسـحر وتـنعم الجسـوم واسترسـال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركـات ونبل الكلام وحسن المحـاورة، إلّـا أنّ الطول ينذر فيهن".[2]

كما استخدمت النساء الحمامات، خاصة حمام الشطارة بإشبيلية الذي صنف ضمن المرافـق التــي يرتادهــا العامــة[3]، فاسـتعملت المـرأة العاميــة الحنــاء علــى رأســها فــي الحمام[4]ويبدو أن عامة النساء اتخذن من النباتات البرية وسيلة للتجميل، فكن يستعملن نوع نوع من النبات يدعى سمر هو أحمر اللون يتزين به في وجوهن فتبدو فيها حمرة جميلة[5].

جميلة[5].

وللتعرق استعملت دهن نبات العنّاب لذلك[6]،واتخذت المكاحل والمراود للاكتحال وطرق الغالية والقوارير لصون الدهن[7]، واهتمت بزينة شعرها فبعضهن كن يستعملن قرنفل الأرض كغاسول تغسلن به رؤوسهن[8].

أما الجواري والقيان فقد كن كثيرات التجميل والاهتمام بأجسامهن، وأدركن مدى تأثيرهن علـى قلـوب الرجـال وأهميـة دورهن فـي المجتمـع، فعمـدن إلـى إظهـار ملامحهـن وإبـراز مفـاتن تبـرجهن، فاتخـذن مـن الحلـي زينـة بوضـع الخلاخيـل فـي أرجلهـن، ولبسـن الشـفيف مـن الثيـاب والـديباج والإسـتبرق، وكـن يمشـطن شـعورهن بأمشـاط مـن الصـدف والصندل[9].

1-ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص54.
2- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص40
3- المقري، المصدر السابق، ج1، ص533
4- مجهول، ذيل زاد المسافر، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2012،ص196.
5-أبو الخير الاشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى،1995، ج2، ص544.
6- أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج1، ص52
7- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص502
8- أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج1، ص389.
9- سليمان حريتاني، الجواري والقيان في المجتمع العربي الإسلامي، دار الحصاد للنشر، دمشق، الطبعة الأولى،1997، ص102

إذن المرأة الأندلسية قد اهتمت بجمالها وزينتها، فصنعت وصفات لتحمير خدودها وجعلت من العين السوداء خضراء[1]، وأكسبت الشعر الأسود أشقرا[2]، فضلا عن اعتنائها اعتنائها بصحة جسمها، واستعمال كل أنواع الزينة من حلي وعطور حتى تظهر أكثر جمالا.

5-مساكن العامة

غني عن البيان أنّ أقصى ما يطمح إليه المرء هو بناء منزل لنفسه وأولاده يأويه من حر الصيف وقر الشتاء، غير أنّ وضع المنازل في الأندلس اختلف من طبقة إلى أخرى، فانعكس هذا التمايز الاجتماعي على سكنى العامة، فبينما تمتع الأمراء وحاشيتهم بالقصور والبناءات الجميلة، تميزت منازل طبقة عريضة من العوام بالبساطة للغاية[3]، فضلا على أنها ضيقة.[4]

ومن دون شك فأنّ قصور الحكام والأمراء والسلاطين وحاشيتهم من العلماء والوزراء والقضاة كانت متميزة، ومزخرفة بشتى الألوان والأشجار[5]، إذ يذكر أنّ الحاكم أبا يعقوب يوسف عندما حلّ باشبيلية سنة 567هـ/1171م أمر ببناء قصور رائعة في ضواحي باب جهور سميت بقصور البحيرة أقيمت حولها مزارع كبيرة، وغرست فيها أشجار الزيتون والتين والكروم وأشجار مثمرة عجيبة ومتنوعة الأصناف[6].

بينما تميزت منازل السواد الأعظم من العوام بالبساطة[7]، و احتوت البعض منها على بيت مخصص للضيوف[8]، وفي فناء المنزل قد تجد بئرا لجلب الماء[9]، إلى جانب المطابخ أو أمكنة خاصة لإعداد الخبز كالفرن، والتي عادة ما كان أصحاب البادية

1- السقطي، المصدر السابق، ص50
2-ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص54
3- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص38
4- ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص177
5-ينظر ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص108-207
6-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص248
7-Lagardère Vincent – Campagnes et paysans d'Al-Andalus: VIII-XV-Paris Maisonneuve et Larose –1993-p206
8-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص224.
9-ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 2008، ص64

يقيمونها بمنازلهم[1]، إلى ما عدا ذلك مما له ارتباط بحفظ وخزن وطهي المواد الغذائية[2]، كما وجد بالعديد من المنازل مطامير لحفظ الأغذية لمدة طويلة[3].

وهذا ما يدل على أنّ هاجس الخوف من شبح المجاعة وغلاء الأسعار جعل العوام ينتهجون سياسة ادخار المؤن، خوفا من المعاناة والمحن خاصة في فصل الشتاء، فاتخذوا من المطامير وسيلة للادخار[4].

ويبدو أنّ المنازل في البوادي قد تميزت باتساعها، فخصصت بعض العائلات إسطبلات لإيواء الدواب والمواشي والعيش من خيراتها[5]، والملاحظة المسجلة عن منازل منازل طبقة عريضة من العوام التي مسّها الفقر، أنها سكنت دورا تفرّ منها النفوس[6]، واضطرتها الحاجة إلى السكن في المقابر أو على ظهور الموتى على حد تعبير أحد الباحثين[7]، بل منهم من لم يجد مكانا يأوي إليه فاتخذ من المسجد دارا له[8]، وعلاوة على ذلك هناك دلائل كاشفة على أنّ بعض سكان اشبيلية قد تضرروا من السكن في الجبانة واشتكوا من ذلك بعد أن كثرت همومهم وطال بؤسهم فتم ترحيلهم إلى قصبة اشبيلية [9]بل لم يكن لأحدهم مكان يأوي إليه إلاّ ظلال الأشجار والجدران والمساجد والشواهق وبطون الأودية[10].

ولم تكن هذه الرواية الوحيدة التي تدل على الوضعية المأساوية التي كان العوام يعيشونها جراء سكناهم في بيوت لا تليق للعيش الكريم، خاصة في مدينة اشبيلية التي عرفت ضغطا سكانيا كبيرا بسبب نمو حركة العمران من أسواق ومساجد حتى أنّ جامع

1-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص150.

2-أحمد الطاهري، البناء والعمران الحضري بإشبيلية العبادية، ص185.

3-الزهري، المصدر السابق، ص82/ مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، تحقيق وترجمة لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، طبعة1983، ج1، ص47/ الحميري، المصدر السابق، ص59

4– المقري، المصدر السابق، ج1، ص143

5-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص299/ خالد عبد الله الشريف،مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها (دراسة سياسية اقتصادية)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى،2009، ص261

6-كما هو الحال لأبي إسحاق إبراهيم الالبيري، وهو على فراش المرض دخل عليه أبو خالد هاشم بن رجاء فرأى ضيق مسكنه فقال لو اتخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك فقال": لولا شتاء، ولفح قيظ، وخوف لص، وحفظ قوت ونسوة يبتغين سترا، لبنيت بنيان عنكبوت"، المقري، المرجع السابق، ج3، ص491

7-احمد الطاهري، المرجع السابق، ص1806

8-ابن دحية، المصدر السابق، ص221

9-ابن عذاري، المصدر السابق، ص39

10-ابن الزيات، المصدر السابق، ص210

العدبّس ضاق بأهلها[1]، وبذلك اتّسع نطاق المدن وضاق حال أهلها[2]، حتى اضطرت عامة عامة المدينة وخاصة فئة الفقراء منهم إلى السكن في المقابر[3].

ولا سبيل للشك في أن حملات النصارى على سكان المدن الأندلسية كان له الأثر الواضح في حرق وتحطيم منازل العوام، فقد تعرّضت مدينة باجة سنة 557هـ/1161م لهجمات شرسة للعدو على منازلها فخربها وهدم أسوار المدينة ولم يعد لسكانها مكان يأويهم إلا بقايا أخشاب المنازل[4]، وهو ما يبرهن على وضعية دورهم المأساوية، وأنّ العوام هم من كانوا يدفعون ثمن الحروب، وهو ما جعل العديد منهم يتخذ مساكن بسيطة مبنية بالحجارة والطين، مغطاة بورق النبات، فاستعملوا تلك النباتات كفراش للنوم عليها[5]؛ عليها[5]؛ وغالبا ما كانت تفرش أرضية تلك البيوت بالحصير المصنوعة من الحلفاء أو القصب أو الصوف[6]، و لم يجد البعض الآخر ما يغطي به بيوته فاكتفى بتنصيب القصب لتغطيته بالبادية مكان القراميد[7]، وآخرون اكتفوا بتعريش بيوتهم باستعمال التبن أو أو السلت وغيرها من المواد النباتية[8].

أما عن محتويات المنازل فالمصادر شحيحة ولا تقدم لنا معلومات في هذا الشأن والأكيد أنها احتوت على أثاث متواضع، وأوانٍ تقليدية بسيطة تشكلت من القدور وملاعق العود التي استخرجوها من الخشب، وغيرها من الأواني التي أفصحت عنها كتب الطبخ والنباتات[9]، كما أنهم استعملوا الحطب للتدفئة في فصل الشتاء، أو بعض الأعشاب لوقود النار في الأفران[10]، وعن الإنارة فكانت تتم بالقناديل أو السراج[1].

1-ابن صاحب الصلاة،المصدر السابق، ص384

2-النباهي، أبو الحسن بن عبد الله المالقي، تاريخ قضاة الأندلس، شرحه ووضع فهارسه، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 2006، ص175

3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص39/ أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص179

4-ابن عذاري، المصدر نفسه، ص113

5-ابوالخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج2، ص550

6-de Prémard Alfred louis , Guichard Pierre-Croissance urbaine et société rurale à Valence au début de l'époque des royaumes de Taifas (XI siècle)-in : Revue de l'occident musulman et de Méditerranée –N°31-1961-P18

7- أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج1، ص129،239

8-احمد الطاهري، المرجع السابق، ص.189

9-مجهول، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، ص58/ أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ص277

10- المصدر نفسه، ص56،57

ويفهم من هذا أنّ البيوت قد عرفت بقدمها وهشاشتها، ولذلك تكرّر سقوطها خاصة في فصل الشتاء، ولا تعوزنا التفاصيل الكاشفة عن مظاهر تحطم منازل الفقراء الهشة في أيام الشتاء، ومظهر جدرانها وهي تسبح في برك الماء عندما كانت السيول تضرب المدن الأندلسية فتخلف خرابا ودمارا وهدما للمنازل، وهو ما نستشفه من بعض النصوص الواردة، فالسيل العظيم الذي وقع باشبيلية عام 597هـ/1200م، هدم جامع الأندلس وثلاث بلاطات وديار كثيرة وفنادق من عدوة الأندلس[2]، وكان للزلزال الذي حدث عام 564هـ/1168م بالأندلس وقعه وأثاره على تهدم ديار كثيرة في البلاد[3].

وقد كان المؤرخ "ابن مغاور الشاطبي"[4] (ت 587هـ/1191م) شاهد عيان لما أصاب منازل بلنسية إثر تهاطل الأمطار، فتعجّب من الذين نجوا من كارثة البيوت وعبّر عن ذلك قائلا:"وعجبت للناجي كيف سلم؟ جدران تسجد في غير صلوات وتركع، وديمة ظظ وطفاء لا تقلع، وقد شرب بمائه حتى النون والضفدع، فالبسيطة بحر لا يعبر إلاّ بالفلك المسجّرة والألواح المدبرة"[5].

ويمكن القول أنّ منازل العوام عبرت عن مظهر آخر من مظاهر الحرمان عندما أصبح الفرد الأندلسي لا يقدر على توفير أحد أهم الاحتياجات الأساسية لأسرته، وهي ضمان المسكن اللائق، فأصبح يعيش في مسكن تفر منه النفوس، أو مهدد بالسقوط في أيام الشتاء البارد.

والإشارات حول تكاليف البناء وأسعار البيوت ضئيلة والمعلومات شحيحة، ويبدو من أمثال العامة أن السواد الأعظم من العائلات قد فضلت كراء المنازل على شرائها[6] وهذا بسبب غلاء أسعارها في الأيام العادية، وورد ذلك في خطاب العوام:"الكرا مثل الشرا"[7]،

1-المقري، المصدر السابق، ج3، ص489
2-ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص274/الحميري، المصدر السابق، ص59
3-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص311
4-هو أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور، ولد بشاطبة سنة 502هـ/ 1108م، أصله من شاطبة، يعتبر أشهر أعلام عصره، وأبرز الشخصيات الأدبية والعلمية، له تأليف سماه"نور الكمائم وسجع الحمائم، ابن دحية، المصدر السابق، ص80
5-ابن مغاور الشاطبي، حياته وآثاره، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى،1994، ص215
6-عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية،2006 ص425.
7-الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 124، ص34

وهو ما يفسّر سكنى بعض عامة اشبيلية بجوار الجبانات[1]، بسبب عدم تمكن العامة من الحصول على المسكن اللائق للعيش فيه.

أما في الفترات التي شهدت فيها الأندلس اضطرابات سياسية أثرت على الوضع الاقتصادي، فتهاوت أسعار المنازل لأنه لم يوجد من يشتريها حتى بيعت بإشبيلية دار بعشرة دراهم سنة543هـ/1148م[2]، و باع أبو بكر المخزومي (ت عام 580هـ/ 1184م)"منزله وجميع أملاكه بأربعة وعشرين ألف دينار وفرقها على الفقراء والمحتاجين"[3].

وقد كانت بعض البيوت تتعرض للاعتقال، وهو ما أفصح عنه "ابن عبد الملك المراكشي" في ترجمته لأسماء العامرية الاشبيلية التي خاطبت عبد المؤمن بن علي برسالة تسأله رفع الإنزال عن دارها والاعتقال عن مالها[4].

ولكننا لم نتمكن من معرفة أسباب هذا الاعتقال، وبالمقابل تمكنت بعض العائلات الميسورة الحال من امتلاك الأراضي والأموال فبلغ لأحد الأثرياء هو وأهله من امتلاك المال وتنوع الرباع وكثرة الضياع والآلة والماشية والحرث إلى محل لا غاية لعهده من الثروة بالنسبة لأمثالهم من أهل زمانهم[5].

ونخلص مما سبق أنّ مظاهر المنازل في الأندلس ما هي إلا انعكاس للتمايز الطبقي، فكان اقتناء الأغنياء للقصور الشاسعة والمزخرفة بشتى الألوان دليلا واضحا على ذلك، بالمقابل عبرت سكنى العوام على أقصى مظاهر الفقر.

6-اللباس

شكل اللباس أحد أهم المظاهر التي تميز الحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس، فهو يجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية، وتختلف الألبسة من

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص39
2- المصدر نفسه، ص38
3-من أهل جزيرة شقر ملجأ للفقراء والمساكين، وذكر ابنه قائلا "وقع إليّ تسمية الأملاك التي باعها أبي في الفقراء والمساكين فدفعت أثمانها فوجدت أربعة وعشرين ألف دينار سوى ما أغفل منها فلم يكتب"الضبي، المصدر السابق، ص158
4- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س8، ق2، ص480
5-النباهي، المصدر السابق، ص127

طبقة إلى أخرى، ولكن يصعب التفصيل في لباس العوام لما أولته المصادر التاريخية من أهمية لملابس الخواص وحاشيتهم من أمراء وقضاة وحجاب، عن ملابس العوام الذين تفرعوا إلى شرائح اجتماعية متمايزة ومختلفة بمستواها الاقتصادي والاجتماعي والمهني، ووضعها المادي كما اقترنت الألبسة بالمناسبات والمواسم، فكان للرجل ما يميزه وللمرأة ما يميزها داخل المجتمع.

ولعلّ قبل التفصيل في الملابس لا بد من الإشارة إلى أن أهل الأندلس قد اشتهروا بالنظافة والتأنق في الملبس حسب "ابن سعيد" بقوله:" وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه، يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها"[1]، ويضيف "المقري":"من محاسن أهل الأندلس ظرف اللباس".[2]

ولا غرو أن تثير ملابس بعض الأندلسيين إعجاب المؤرخ "ابن سعيد"في ترجمته لأحد شعراء عصره وهو أبو النعيم رضوان بن خالد[3] (ت635هـ/1237م) الذي كان أظرف الأدباء زيا ومجالسة[4]، وأضاف عن أبي الحسن علي بن حريق(ت622هـ/1225م)[5]بأنه حسن الزي[6]، أما ثياب أهل مالقة فكانت رفيعة وتمتاز بالغلاء[7]، ولم تكن هذه النصوص الوحيدة التي تدل على اعتناء عامة الأندلس بزيهم، إذ أن أن "الحميري" ينعت أهل بلنسية بحسن الزيّ وكرم الطباع[8].

للإشارة فإن للوضع المادي أثره في لباس العوام، فمنهم من عمد إلى ارتداء ألبسة المترفين مثل أحمد بن يحي العبدري القرطبي (ت599هـ/1202م)، الذي عمد إلى ارتداء

1- المقري، المصدر السابق، ج1، ص223
2- المصدر نفسه، ص462
3-أبو النعيم رضوان بن خالد المالقي، أحد شعراء مالقة، صحبه ابن سعيد أياما، كان مخالطا للكبراء والأعيان، ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص185
4-نفسه، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص360.
5-هو علي بن محمد بن أحمد بن حريق، أبو الحسن المخزومي، من أهل بلنسية، كان عالما بفنون الآداب شاعرا مفلقا، ولد سنة 551هـ/1151م، الذهبي، المصدر السابق، ص.327
6-المقري، المصدر السابق، ج2، ص275
7- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص92

8-الحميري، المصدر السابق، ص97

الملابس التي جرت عادة المترفين باستعمالها في فصل شدة القر كالفرا وثياب الملف والقباطي والبرانس[1]، ومن العوام من لم يجد حتى ثيابا لستر جسده في أيام الشتاء الباردة، وفي هذا الشأن يروي لنا المقري" أن الأديب هذيل الاشبيلي[2] خرج يوما من مجلسه فنظر فنظر إلى سائل عاري الجسد، وهو يرعد ويصيح: الجوع والبرد".[3]

بينما كان للفصول أثرها في اختيار اللباس المناسب، إذ اقترنت الألبسة بالمواسم ويبدو أن العوام قد كثر استعمالهم للملف المصبوغ خاصة في فصل الشتاء، والثياب الرفيعة الملونة من الصوف والكتان[4]، ومع اشتداد القر تجدهم يلبسون الفرا [5]، إذ كان طلحة بن محمد طلحة الاشبيلي(ت 643هـ/1245م) يلبس بداره فروا فيجعله مما يلي جسمه أيام البرد، وجلده مما يليه أيام الحر[6].

فبالنسبة لملابس الرجال تطالعنا النصوص التاريخية عن اتخاذ أهل الأندلس العمامة والتي اعتبرت ميزة للرجال، ويفهم من نص"لابن الخطيب"بأنّ لبسها لم يكن شائعا إلاّ على فئة العلماء والقضاة والجند العربي منهم[7]،وهو نفسهما أشار إليه "ابن سعيد" عن الحافظ أبو زكريا[8]الذي كانت على رأسه طاقية وسخة فأعطاه عمامة كبيرة، فكان يعمم قدر ثلثها ويجعل الثلثين في كمه[9]، ومن هنا يتبين من هذه النصوص أنّ العمامة كانت سمة سمة من سمات العلماء في المجتمع، فقد لبسها رجال الدولة،كما لبسها العامة من الناس غير أنّ ذلك قليل[10].

وعن لون العمامة فكانت ذات اللون الأبيض لعامة الناس، إذ أن ّسليمان بن أحمد بن غالب الداني(ت641هـ/1243م) لبس ثوبا أصفر وجعل عمامته بيضاء[11]، ورجال مالقة

1- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ق2، ص565
2-هذيل بن محمد بن هذيل الأنصاري، يكنى أبو المجد الاشبيلي، تصدر للإقراء وعلّم بالعربية، كان حيا سنة(606هـ/1209م)، الذهبي المصدر السابق، ص390.
3- المقري، المصدر السابق، ج4، ص127
4-العمري، المصدر السابق، ص231.
5- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص36
6- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س4، ص167
7- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص38
8-لم يذكر ابن سعيد اسمه بالكامل، غير أنه كان أحد معاصريه عندما قال: "رأيته يوما"، ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص153
9- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
10-العمري، المصدر السابق، ص231
11-ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص347.

كانوا يلبسون العمائم المفتولة والبيضاء[1]، أما العمامة ذات اللون الأخضر فكانت مخصصة للقضاة والكتاب ورؤساء الجند كزي رسمي[2]،والعمائم الصفر خصصت لليهود[3].

كما لبس العوام الطيلسان وهو نوع بسيط من الخمارموصول بغطاء الرأس يلقى على الكتفين[4]، إلّا أنّ الاعتناء به لدى العامة كان أكثر اهتماما من العمامة، فقلّما وجد أندلسي سواء كان من الخواص أو من العوام يمشي دون طيلسان[5].

ومن كسوة الرأس التي اعتاد العوام على ارتدائها أيضا الطاقية[6]، والشاشية [7]،هذه الأخيرة التي كان التجار الأندلسيون يضعونها على رؤوسهم[8].

أما عن لباس اليهود فنظرا لوضعيتهم الخاصة داخل المجتمع، جعلت السلطة الموحدية تضيق عليهم الخناق لما قاموا به من ممارسات غير شرعية[9]، وميزتهم بلباس خاص بهم[10]، فخصصت القلانس الزرق لهم، وأشار إلى ذلك "ابن عذاري"قائلا:" اليهود في العصر الموحدي كانوا قد علوا على زيّ المسلمين وتشبهوا في ملابسهم بعليتهم، فجعل لهم صفة كحداد ثكلى للمسلمين أردان، قمصهم طول ذراع في عرض ذراع زرق وبرانيس زرق وقلانس زرق"[11].

1- خالد عبد الله الشريف، المرجع السابق، ص278.
2-ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص81
3-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص223
4- إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص81
5- المقري، المصدر السابق، ج1، ص222
6-المصدر نفسه، ص153
7-الزجالي، المصدر السابق، ص205
8-ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط 1، 2008، ص 173.
9-ذكر عبد الواحد المراكشي أن" الخليفة محمد الناصر (أبو عبد الله) ميزهم بهذا الزي لأنه شك في إسلامهم وكان يقول:لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرا ريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين"،عبد الواحدالمراكشي، المصدر السابق، ص224
10- Gilbert Meynier ,L'Algérie ,Cœur du Maghreb Classique :de L'ouvertire islamo-arabe au repli(698-1518) ,La Décuverte ,Paris ,2010 ,p199.-
11-ابن عذاري، المصدر السابق، ص228

وقد أمدتنا المصادر التاريخية عن بعض الأزياء التي كانت سائدة في المجتمع العامي، مثل غفائر الصوف ذات اللون الأحمر والأخضر[1]، والغفارة الصفراء[2]، وجبة صوف[3]، والعباءة[4]، والمطية[5]، فهذه نماذج من الأزياء التي كان العامة من الناس يلبسونها، أو يضعونها على رؤوسهم، وقد عبرت بكل أشكالها عن اختلاف الامتيازات الاجتماعية عند طبقات المجتمع.

ويبدو من خلال البحث عن ألبسة العوام، أنّ لباس أهل الحضر قد اختلف عن لباس البادية، وهو ما ذكره أحد المؤرخين في ترجمته لمحمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم الشقري(ت634هـ/1236م) الذي كان مبتذل اللباس على هيئة أهل البادية[6].

ومن هنا بات بديهيا أن يتخذ أهل المدينة لباسا خاصا بهم لا يلبسونه في البادية، وثياب البادية لا تلبس في المدينة، فضلا عما تميز به الفقراء من ألبسة، وهي الظاهرة التي لاحظها "ابن سعيد" عند لقائه بأحد رفقائه بزي الفقراء[7].

لقد كان لباس الفقراء يتميز بالبساطة والخشونة لاسيما عند فئة المتصوفة[8]، والتي لم لم تكن تختلف عن لباس العامة إلاّ في جانبها التقشفي، فكان لباس أحد المتصوفة وهو علي بن أحمد بن علي بن فتح الشريشي(ت583هـ/1187م) جبة صوف[9]، وارتدى آخر الخشن من الثياب [10].

وعلى كل حال فقد اشتهر المتصوفون والفقراء على الخصوص بلبس الصوف وهو ما خلصت إليه إحدى الدراسات بأنّ الفقراء وحدهم كانوا يلبسون الصوف[11].

1- المقري، المصدر السابق، ج1، ص223
2- المصدر نفسه، ج4، ص296
3- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1،ص170
4-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص193
5- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص92
6-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص111
7-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص231.
8- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص90
9- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص170
10-ابن الزبير، المصدر السابق، ص353
11-لوسي بولنز، نباتات الصباغة والنسيج قطاع زراعي مزدهر في الأندلس قوامه القطن والعظام (من القرن5-7هـ/11-13م، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى،1998، ج2، ص1398

أمّا عن ملابس النساء، فالمعلومات التي تتعلق بهذا الأمر شحيحة، ورغم ذلك يمكن استخلاص ملابس المرأة من خلال بعض الإشارات التي وردت في متون المصادر التاريخية، وتتمثل في لباسها الذي كان مستورا، وفي هذا السياق يذكر عبد الملك ابن زهر(ت 557 هـ/1161م)أن النساء كانت تحرصن على تغطية وجوههن وستره بالخمار[1]، كما استعملت المعاجروهي مصنوعة من نسيج الحرير الشفاف، اتخذته لتغطية وجوههن أو لستر رؤوسهن، وقد اشتهرت المرية بصناعة هذا الضرب من الثياب[2]، وارتدت الجلباب الفضفاضة لستر أجسادهن[3].

وما يمكن قوله عن ألبسة العامة فقد كانت بسيطة اتصفت بطابعها التقشفي، فهناك من العوام من لم يجد ما يستر به جسمه نتيجة لفقره الشديد، بينما تمتع أحد الأغنياء بلبس أغلى الثياب والديباج ونال من الدنيا أطايب لذاتها[4]، ولذلك تختلف الألبسة من طبقة إلى أخرى فهي تعبر عن أحد مقاييس الغنى والفقر وتحسن المستوى المعيشي أو تدهوره.

ثالثا-عادات وتقاليد العامة بين الأفراح والأقراح

لا سبيل إلى الشك في أنّ العادات والتقاليد هي أحد المظاهر الاجتماعية البارزة لأي مجتمع إسلامي، فيحتفل فيها الناس على اختلاف دياناتهم وانتماءاتهم العرقية، بالأعياد والمناسبات الدينية، فضلا عن المواسم الفلاحية، كما أنهم يتأثرون ويحزنون عند مفارقة الأهل والأحباب.

1- ابن زهر، المصدر السابق، ص79
2-محمد احمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي-دراسة في التاريخ السياسي والحضاري-دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1997، ص175
3-دوزي رينهرت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، مجلة اللسان العربي، المجلد9، ج2، ص20
4-االمقري، المصدر السابق، ج4، ص204

1-الأعياد والمناسبات في الأندلس

الأعياد من المظاهر الاجتماعية السعيدة التي يحتفل بها الناس، فهي تعيد إليهم ذكريات مرتبطة بمناسبات خاصة يسترجعون فيها أحداثا معينة، ينسون فيها مشاقة الحياة ويستعيدون فيها نشاطهم وأفراحهم، وهذه الأعياد إمّا مرتبطة بأحداث دينية أو بمواسم فلاحية بحكم الطابع الزراعي للمجتمع، ومنها ما جاء انعكاسا للتسامح الديني في الغالب مع المسيحيين، غير أنّ أعياد العامة تميزت بنكهة خاصة في العصر الموحدي خاصة تلك المتعلقة بالمواسم الفلاحية، وقد كانت مشاهدات"ابن سعيد" أحد أهم المصادر المعول عليها في كتابة الأعياد والمناسبات.

كان المجتمع الأندلسي كغيره من شعوب العالم يحتفل بالأعياد الدينية كعيد الفطر والأضحى ويوم عاشوراء؛ ومن الطبيعي أن تتسم تلك الاحتفالات بالتنوع نتيجة لانصهار الأجناس المكونة للمجتمع الأندلسي، وبالتالي يحاول كل طرف إثبات ذاته من خلال إحداث الأعياد والمناسبات الخاصة بكل فئة، فإحتفل المجتمع الأندلسي بتلك الأعياد بإفراده أنواعا من المأكولات الخاصة بكل مناسبة وتخصيص ألبسة معينة لها، فيوم الجمعة كان بمثابة عيد أسبوعي يحتفل به، فتبصرهم في المساجد أيام الجمعة " كأنّهم الأزهار المتفتحة، في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة"[1].

كما حظيت ليلة النصف من شعبان باحتفال من قبل المسلمين وسموا هذا اليوم بالشعبانية[2] أو الشعبانة، فكان يحتفل بها بالموائد العامرة بأصناف الحلوى والفواكه ويشتري الصبيان الأبواق واللعب ويتزاور الأهل والأصحاب، إذ يروي لنا "ابن الأبار"أنه حضر يوما في جماعة مع أصحابه وفيهم أبو عبد الله بن زرقون(ت 586هـ/1190م)[3]، فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون، أجز يا أبا عبد الله فقال:

1- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص36

2-المقري، المصدر السابق، ج4، ص324

3-هو محمد بن سعيد بن احمد الأنصاري الاشبيلي، فقيه ومحدث، تولى مهمة القضاء بالأندلس، ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص63

من بحرالطويل

حَمَدْتُ لشَعْـــبَانَ المُبَـارَكَ شَبْعَةً	تُسَهِّلُ عِنْدِي الجُـــوعَ فِي رَمَضَانَ
كَمَا حَمَدَ الصَّـــبُّ المُتيَّـمُ زَوْرَةً	تَحَمَّـلَ فِيهَا الهَجْرَ طُولَ زَمَـــانِ
فقالَ:دعُوها بشعْبَانِيَةٍ ولوْ أنَّـهُمْ	دعُـــوهَـا بشَـبْعَانِيَـةٍ لكَتفَانِي[1]

ويتضح من هذه الأبيات أنّ ليلة الشعبانية كانت مخصصة لتناول أشهى المأكولات، فينتظرونها بفارغ الصبر ويحتفلون بها، حتى أطلق عليها العوام اسم الشبعانية، لما تتوفر عليه الموائد تلك الليلة بأصناف مختلفة من الحلويات.

واحتل شهر رمضان مكانة خاصة في المجتمع الأندلسي، فبنهاية شهر شعبان يحتفل بالخروج لمراقبة شهر رمضان، ويتقدم القضاة ويتجمع الناس لرؤية هلال رمضان، وسماع الإعلان ببدء الصيام، فإذا ثبتت الرؤيا تنار صوامع المساجد، وتوقد النار في القرى لإعلام القرى المجاورة ببدء شهر الصيام[2].

وجرت العادة في المجتمعات الإسلامية أن يكثر الناس من إخراج الصدقات خاصة من قبل الحكام وهذا تقربا للعامة، فتقدم الأطعمة الخاصة بهذه الليلة، ويكثر من دعوة الناس للطعام وتوزيع الصدقات وقد انتقد "الطرطوشي" هذه الاحتفالات واعتبرها بدعة بقوله:"ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة السابع وعشرين من رمضان"[3]، أما في هذه الليلة المباركة فإن الجميع يحتفلون بها خاصة في المساجد التي يختم فيها القرآن الكريم[4].

1-ابن الأبار، المصدر السابق، ج1،ص196، ترجمة رقم 645
2-عصمت عبد الحميد دندش،"من مظاهر الحياة الاجتماعية الأعياد والاحتفال بها"، دراسات أندلسية في السياسة والاجتماع، دار الغرب الإسلامي، تونس طبعة 2009، ص167
3- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد، كتاب الحوادث والبدائع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثالثة،1998، ص150
4-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص99

غير أنّ المدمنين على شرب الخمر كانوا يضجرون من صيام شهر رمضان؛ لأنه يمنعهم من ممارسة لذة الشرب، وعبّر عن ذلك "ابن قزمان"(ت 555هـ/1160م)في زجله قائلا:[1]

شَهْرُ الصِّيَامِ زَالَ وجَا شَوَّالُ يا لس نســــال

منْ ذَابَ نشْرَبُ ولس نَسَل عَنِ الصِّـــــيام

إنَّ القَوَامَ دُونَ شَرَابِ عـــــنْدِي لس قـوَامُ

إذن يفهم من زجل العامة أنهم كانوا يضجرون من شهر الصيام، لأنه يمنعهم من شرب الخمر، ولذلك تراهم يبتهجون بحلول شهر شوال لمواصلة طيشهم وتهورهم وإقبالهم على ملذات الدنيا.

و في ليلة التاسع والعشرين من رمضان ينتظر رؤية هلال شوال من طرف القضاة وأهل الشورى بالأندلس للاحتفال بليلة العيد، وبعد ثبوت الرؤية تقوم العامة في بعض قرى الأندلس بإضرام النار، إعلاما برؤية هلال العيد[2]، واستقبال عيد الفطر المبارك وتبادل التهاني،ولبس الثياب الجديد وزيارة الأقارب وشراء الأطعمة الخاصة بهذه المناسبة، مثل خبز الشعير والبقل المعروف بالخبيز[3].

والأكيد أن الجميع يحتفل بعيدي الفطر والأضحى بعاداته وتقاليده، إلّا أنّ عيد الأضحى في عصر الموحدين كان له نكهة خاصة، إذ يشير نص "للمقري" إلى أن الكباش كانت تعرض في الأسواق وسط أجواء من الفرحة والضحك والطرائف متبادلة بين الناس[4]؛ وبذلك احتل كبش العيد مكانا كبيرا في أمثال العوام، فبالرغم من كل المتاعب التي يتعرض لها الفقراء في حياتهم اليومية والشاقة من أجل كسب معيشتهم، إلاّ أنهم لا يتخلفون عن شراء أضحية العيد مهما كلفهم ذلك الثمن وعبروا عن ذلك بالمثل"يا ترى يا كبشي،أي ترعي وأي تمشي"[5].

1-ابن قزمان، ديوان ابن قزمان القرطبي، إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق كورنتي فيديريكو، دار أبي رقراق لطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الأولى، 2013، ص77

2-أبو القاسم بن سراج الأندلسي، المصدر السابق، ص119

3-ابن الزبير، المصدر السابق، ص363

4-المقري، المصدر السابق، ج3، ص383

5-الزجالي، المصدر السابق، ص481، مثل رقم2125

وكم كانت فرحة العوام وهم ينتظرون توزيع أضاحي العيد عليهم ففي عيد 594هـ/1197م، فرق الحاكم يعقوب المنصور على الجند والأمراء والفقراء ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز[1]،هذا التصرف جعل قلوب العامة تتولع بالخليفة[2].

أما الحج فيعتبر من أعظم المناسبات التي يتجهز لها العوام للرحيل، فيودعون أهاليهم قاصدين بيت الله الحرام[3]،غير أن الكثير منهم لا يقدرون على الحج، إذ كلف حج أحد الأندلسيين ستين دينارا[4]، ولذلك فضلأحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي(ت580هـ/1184م) توزيعها على الفقراء والمحتاجين في فترة الغلاء التي عرفتها قرطبة سنة(540هـ/1145م) برواية وردت عند "الضبي" قائلا:" أعد ستين دينارا نفقة للحج وقدّمها على طعام، ووجّه وكيله أبا بكر بعد أن أنفذ ما عددّه وقال له:خذ لي دينارا على طعام، فأخذ له ستة دنانير على الفقير، فردّ أبو بكر القمح وهو يساوي دون الأربعة دنانير وصارت الستون دينارا التي كانت لأبي العباس أربعين، وأنفق أبو بكر ما أخذه دينار، وكان أكثر من ألفي دينار على الضعفاء والمساكين"[5].

فهذا النص واضح الدلالة على صور التكافل الاجتماعي في المجتمع، والواقع أن توزيع أموال الحج على الفقراء والمساكين أغلى من صرف أموال طائلة على الحج خاصة في الفترات العصيبة التي مرت الأندلس من غلاء للأسعار.

إلى جانب الاحتفالات الدينية، اعتاد الأندلسيون على الاحتفال بالمواسم الفلاحية المرتبطة بالنشاط الزراعي، أهمها الاحتفال بعيد العصير، وهو عيد قطف العنبيحتفل به سكان البادية، وهو الوقت الذي تجنى فيه الفواكه إذ يغادرون خلاله البيوت في المدينة التي يسكنونها طيلة السنة تقريبا إلى البيوت الواقعة بين الكروم في الضواحي، وهناك يصنعون الزبيب وهم يتسلّون بالاحتفال والرقص مرتدين أزهى الملابس و أثمن الحلي[6]،

1-المقري، المصدر السابق، ص104
2-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3 استمرار فرضية الحج- مجلة عصور الجديدة، العدد 26، 2016-2017، ص84.
4-الضبي، المصدر السابق، ص158
5-المصدر نفسه، الصفحة نفسها
6-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص226

وحسبنا دليلا ما شاهده "ابن سعيد" في مالقة عندما يخرج أهلها زمن الربيع إلى مزارع كروم العنب والتين فيفرحون بجني المحصول[1].

وثمة موسم آخر يحتفل به العوام وهو موسم صباغة الحرير،أين كان الأهالي يخرجون من المدينة إلى الحقول والأودية مستغلين موسم الصباغة للترويح عن أنفسهم والتنزه، وأشار "ابن سعيد "إلى أهالي مدينة نارجة[2] الذين كان لهم موعدٌ مع واديها للهو والاستمتاع قائلا:"اجتزت مرة مع والدي قرية نارجة، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيما، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب "[3].

إضافة إلى ذلك احتفلوا بعيد العنصرة[4]، وهو المعروف عندهم بالمهرجان[5] "فيضرمون النار في شعلة يسمونها العنصرة يقيمونها في الشوارع ويقفزون فوقها"[6]، ويرش الناس بعضهم بعضا بالماء تيمنا برمز الخصب والحياة زعما أنها تجنبهم كوارث الجدب وتجود أمطارهم[7].

وبالمثل شاع الاحتفال بعيد "ينّير" وهو من أعياد المسيحيين التي شاركهم فيها المسلمون[8]، وتضمنت أمثال العامة عدة إشارات حول هذا العيد[9]، والعادة أن يصنعوا في في عيد النيروز أصناف من الحلوى تدعى المدائن تصنع من العجين لها صور مستحسنة[10].

1- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص349/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص357
2–المقري، المصدر السابق، ج1، ص178
3-نارجة من عمل مالقة، ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص187
4- قالت العامة:" خروجك من ينيّر،أخير خروجك من العنصرة "، الزجالي، المصدر السابق، ص205 مثل رقم 914
5-ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن احمد، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة2001، ج2، ص390
6-عصمت دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص327
7-عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص145
8- فلنتينا سليمان عفانة، مملكة اشبيلية زمن بني عباد وعلاقتهم الداخلية والخارجية(414-484هـ/1023-1069م) رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين،2002، ص108/ محمد الأمين ولد آنة، صور من التأثير المتبادل بين المسلمين وأهل الذمة، مجلة الوسيط، العدد 11، المعهد الموريطاني للبحث العلمي، الجمهورية الإسلامية الموريطانية،2011، ص35-36
9- قالت العامة:" خروجك من ينيّر، أخير خروجك من العنصرة "، الزجالي، المصدر السابق، ص205 مثل رقم 914
10- المقري، المصدر السابق، ج4، ص63

توزع هذه المدائن على الصبيان والأطفال يعبثون بها ويعيشون فيها ثم يأكلونها[1]،وهذا لإدخال البهجة والسرور على قلوبهم وتفاؤلا لبسط الرزق، بينما شاع الاعتقاد وسط بعض العوام بأن لا توقد النار في بيوتهم ليلة ينير، ولا يطبخ عندهم شيء[2]، شيء[2]، وهذا ما يوضح أن البعض من العوام قد علقت بأذهانهم بعض السلوكات خلال الاحتفال ببعض الأعياد المسيحية، جعلتهم يمارسون تصرفات غريبة .

ويضاف إلى الأعياد المذكورة بعض الاحتفالات التي كان يقيمها الأندلسيون استقبالا للخليفة ووفوده خاصة بمناسبة الانتصارات في المعارك ضد النصارى، فإشبيلية كانت مسرحا للاستقبالات الرسمية والاحتفالات الكبرى[3]، فيستقبلون بالتكبير والنساء يولولن ويضربن بالدفوف[4]، وتقرع الطبول ويوزع الطعام وينشد الشعراء أشعارهم مهنئين الخليفة بالنصر[5].

يتبين مما ذكر أنّ عامة الأندلس كانوا يحتفلون بجميع الأعياد والمناسبات فيستعدون لها بشراء ما يحتاجون إليه من مأكولات وحلويات، لإدخال البهجة في نفوس أبنائهم خاصة، كما يظهر التسامح الذي كان سائدا بين أتباع الديانات، فتجدهم كلهم يشتركون في الأعياد مما يبين مدى تماسك عناصر المجتمع الأندلسي.

2-الموت و العادات الجنائزية

الموت هو نهاية المطاف لكل إنسان والذي لابد منه، فهو أجل محتوم ينتظر كل نفس، لقوله تعالى:

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [6]،ولكنه هاجس ظل يهيمن على ذهنيات العامة في حياتهم، فكان يحدث في نفوسهم الكثير من الحزن لمفارقة

1-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1، ق2، ص565
2-ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى،2003، ص26
3–محمد العمراني، الموحدون في الأندلس -الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع (541-609هـ/11471212م) رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة محمد الخامس، الرباط،2002-2003، ص300
4-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص212.
5-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص126
6-الآية 185 من سورة آل عمران

الأهل والأحباب، وقد تبدأ لحظات الحزن منذ أن يلفظ الميت أنفاسه، أو قبل ذلك وهو يحتضر، وتتواصل إلى بضعة أيام من دفنه.

فأثناء الإحتضار، كان يضع المحتضر وصيته وهو على فراش المرض يحتضر، وقد أشار إلى ذلك "عبد الملك المراكشي"إلى احد المحتضرين الذي أوصى بتوزيع ثروته على المحتاجين[1]، ويضيف أنّ منهم من كان يحدد إسم الغاسل ومن يصلي عليه ويدفنه، وعادة ما كانت الوصية تشمل أحد الأصدقاء لما يكنه الصديق من محبة وستر للعيوب، فعهد يحي بن عبد الرحمن (ت608هـ/ 1211م) عند موته بأن يكون ممن يتولى غسله ودفنه أحد أصدقائه فكان له ذلك[2]، وأوصى عتيق بن علي بن خلف(ت612هـ/1215م) إلى أحد أصدقائه أن يغسله، فغسله وكفنه ودفن بحومة الشريعة من خارجها[3].

وأحيانا كان يعين إسم المكان الذي يصلى عليه ويدفن فيه، فيشير "عبد الملك المراكشي" إلى محمد بن حسن بن أحمد (ت620 هـ/1223م)الذي أوصى بأن يصلى عليه بجامع العدبس ويدفن بطريانة"[4]، ويضيف "ابن الزبير" أنّ أحد المحتضرين وهو "سعد بن أحمد بن هشام من أهل لبلة (ت 588هـ/1165م)أوصى أن يدفن في داره"[5].

فهذه بعض العادات التي كان المحتضرون يوصون بها وهم على فراش الموت، ومن ثمّ يمكن القول بأنه من عادة المجتمع الأندلسي التمريض داخل المنازل ووسط الأسرة إلى أن يشفى المريض أو يموت، لذلك فمشهد الاحتضار يتم في بيت المريض ووسط أقرب الناس إليه؛ وقد كان مجلس الاحتضار مفتوحا لأسرة المحتضر وحتى لأصدقائه وأتباعه، وأهم ما يميز المشهد هو البكاء، إذ تحدث "ابن الأبار"عن عمه وهو يحتضر قائلا:" لما احتضر عمي أحاط به أهله وبنوه يبكون"[6].

1- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س8، ق2، ص411
2- المصدر نفسه، ص563
3- نفسه، س5، ق1، ص123
4-نفسه، س8، ق1، ص285
5-ابن الزبير، المصدر السابق، ص302
6-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص237

إذن فمشهد الألم والحزن يسيطر على الحضور، ومع هذا فإنهم يقومون ببعض الأشياء الخاصة بالمحتضر خاصة تلقينه الشهادة وتوجيهه نحو القبلة، وكذلك الاستعداد لاستقبال المعزين والضيوف ومساعدته على وضع وصيته[1].

وبعد وفاة المحتضر، يقوم أفراد أسرته بإظهار حزنهم على فقيدهم، وما نستشفه من خلال التقاليد الجنائزية هو أن الرجال يجلسون لقبول التعازي، والنساء تحطن بالميت يندبنه ويبكين عليه[2]، ويبدو أنه كانت لهن مراسيم معينة في الحداد، فكانت عادة أهل الأندلس لبس اللباس الأبيض في المآتم منذ عهد بني أمية، قصدا لمخالفة بني العباس في لبسهم السواد [3].

وعند خروج الموكب الجنائزي الذي عادة ما يتكون من أفراد الأسرة و أتباعه أو أصدقائه وأحيانا حتى رجال الدولة، كان الحكام في بعض الأحيان يستغلون حضور الجنائز للدعاية السياسية في أوساط العامة، التي ترى في ذلك تواضعا منهم وتزداد تعلقا بهم، ونرى ذلك في جنازة محمد بن علي بن محمد البلنسي (ت614هـ /1217م)،إذ كان الحفل في جنازته عظيما تبركا به، حضرها والي بلنسية حينئذ أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن وجمع كثير من الناس، وأتبعه الناس ثناء صالحا وازدحمت العامة على نعشه[4]،كما كانت جنازة محمد بن أحمد بن خلف القرطبي عام 609هـ/ 1212م في غاية غاية الحفل حضرها الناس على طبقاتهم ولم يتخلف عنها أحد[5].

إذن كانت العامة تزدحم على النعش بالبكاء والدعاء للميت خاصة إذا كان الميت من الزهاد والمتصوفة قصد التبرك به، وهذه الظاهرة سجلتها المصادر في كثير من الحالات، إذ وجد الناس على وفاة أحد المتصوفة وهو عليم بن عبد العزيز[6]

1-محمد حقي، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال،2007، ص39
2-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص489
3-ابن دحية الكلبي، المصدر السابق، ص81/ المقري، المصدر السابق، ج4، ص109
4-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، الصفحة نفسها.
5- المصدر نفسه، س5، ق2، ص627
6-عليم بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله، شاطبي الأصل، نشأ بدانية، وكان محدثا واعظا ناصحا، كان له بيت أعده لخلوته والتفرغ فيه للعبادة، توفي ببلنسية، نفسه، س5، ق1، ص429.

(ت564هـ/1168م) وجدا شديدا وأسفوا لفقده وتمسحوا بنعشه تيمنا به، ولم يزل دأبهم التبرك بتراب قبره والاستسقاء به للمرضى[1].

ويضيف "الذهبي" أن الناس هلكوا للزحمة على نعش الزاهد أبي الحسن البلنسي علي بن محمد بن علي(ت560هـ/1164م)، وكانوا يتعلقون بالنطق والسقف ليدركوا النعش بأيديهم ثم يمسحون بها على وجوههم[2]، وأحيانا عندما يتقرب منهم النعش تراهم يتمسحون بالكفن تبركا بالميت[3].

إنّ هذه الشهادات تعبر عن اهتمام العامة بالعلماء الأتقياء للتبرك بهم، ولكن ينبغي التنبيه إلى أنّ التبرك بالأتقياء لم يكن حكرا على العوام بل حتى الملوك أنفسهم؛ إذ يروي لنا المؤرخ "ابن سعيد" أن الفقيه أبو عمران موسى المرتلي كان يزوره الملوك ويتبركون به ويستوهبون دعاءه إلى أن توفي باشبيلية سنة 604هـ/1207م[4].

وبمجرد وصول الموكب الجنائزي إلى المقبرة، يوارى جثمان الميت في القبر في جو هادئ تغمره تلاوة القرآن والأدعية، وبعد دفنه يتحول قبره مزارا للأهل والأصدقاء.

والملاحظ عن القبور أنّها كانت مزخرفة برخامات عليها اسم المتوفى وتاريخ وفاته، إذ يشير "ابن الأبار" إلى بعض الناس الذين كانوا ينحتون نصبهم في حياتهم ولا يضاف إليها بعد مماتهم إلا تاريخ الوفاة[5]، وقد اطّلع المؤرخ" ابن سلمون" على شواهد قبور عليها أبيات شعرية في الجزيرة الخضراء والمرية فمثلا وجد على قبر في المرية:

يَا زَائِرَ القَبْرِ فَكبر فِي الحُلُولِ بِهِ ... قَدْ كُنْتَ قَبْلَهُ لِلْأَمْوَاتَ مِــــزَوارَا

لَمَّا أَتَى الأَجَلُ المَحْتُــومُ صَيــرَنِي ... رَهْنَ البِلَى وتَرَكْتُ الأَهْلَ والدَّارَ[6]

1- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ، ص430

2- الذهبي، المصدر السابق، ص309.

3- المصدر نفسه، ص186

4- ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، (د.ت) ص137. 4ص137.

5-ابن الأبار، معجم شيوخ ابن الأبار الأندلسي، تحقيق محمود الدومي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2011، ص89.

6- ابن سلمون، المصدر السابق، ورقة 77.

وما يستنتج من هذه الأبيات أنّ بعض العوام كانوا يكتبون شواهد قبورهم، ويوصون بها أهلهم لوضعها على القبر، وهذا ترحما عليهم ولتذكير الزائر بمصيره المحتوم.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أن هناك من ماتوا في ظروف مأساوية، فلم يغسلوا ولم يحظوا حتى بمراسيم الدفن كعامة الناس وسط الحضور بل عبث بأجسادهم ونكّل بجثتهم[1]، وقدمت لنا المصادر التاريخية أناسا ماتوا مغضوبا عليهم وحرموا حتى من القبر، إذ ينقل لنا "ابن عذاري" حادثة مؤلمة حصلت لمحمد بن عيسى مشرف اشبيلية (ت571هـ/1175م) الذي "قتل ثم لف في حصير وربط في وسطه بحبل ثم رمي به في وادي اشبيلية"[2]،وفي السياق ذاته يخبرنا "ابن سعيد "و"المقري" عن أحد المغضوب عليهم حظا، وهو أحمد بن غالب الداني الذي أمر المستنصر الموحدي(610-620هـ/1213-1223م) بضربه ألف سوط حتى تناثر لحمه ثم صلب[3].

وما يستنتج من النصين أن بعض الناس حرموا من حقهم في التغسيل والكفن و حتى في الدفن، فقتلوا ونكلوا بأجسادهم وألقوا بجثثهم في الأنهار أو صلبوا، ولم يرحموا حتى بعد الموت، والأكيد أن ما فعل بهؤلاء هو أن يكونوا عبرة للآخرين،وأظهر نص آخر "لابن الزبير" أن عزيز بن عبد الملك بن محمد بن يوسف قتل صبرا وطيف بجسده فيمرسية وحدث ذلك في شهر رمضان سنة 638هـ/1240م[4].

ومنهم من دفن وسط أجواء مخيفة وفي ظروف قاسية عرفتها اشبيلية، إذ يشير "ابن عبد الملك المراكشي" إلى علي بن جابر بن علي اللخمي عند وفاته سنة 646هـ/ 1248م باشبيلية التي شهدت حصارا عسكريا من النصارى، أنه"دفن بداره وحفر قبره بالسكاكين استعجالا لمواراته واشتغالا عن التماس آلات الحفر بهول اليوم"[5]، لقد تمت عملية دفن هذا الميت في صمت مخز وبأقل الوسائل المتاحة للحفر حتى أنه لم يصلّ عليه، بل ألقي في حفرة بداره خوفا من اكتشاف الأمر.

1- حميد الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، سينا للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى،2001، ص300-301.
2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص135
3-ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص123/ المقري، المصدر السابق، ج3، ص310
4-ابن الزبير، المصدر السابق، ص271
5- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص201

لقد أظهرت العادات الجنائزية في الأندلس، أنّ بعض الموتى يحظون بموكب جنائزي وسط المشيعين الذين يتزاحمون على نعوشهم حتى يكاد يمزق الكفن تبركا بهم، وفئة من الناس لم تحظ حتى بقبر لستر الجسد، أو دفنت في ظروف مذلة ومهينة.

لقد تبين من خلال دراسة مظاهر الحياة اليومية للعامة أن المستوى المعيشي لشرائح العامة، قد كشف عن تأثر العامة بالأوضاع السياسة والاقتصادية مما أدّى إلى تدني مستوى عيشهم خاصة في الأيام العصيبة التي مرت بها الأندلس في العصر الموحدي، مما كشف حجم معاناة العوام في حياتهم اليومية.

كما شكلت الأسرة الأندلسية عماد المجتمع، فحافظت العائلة على تقاليد الزواج وتكوين العائلة وسهرت على تربية الأطفال وتعليمهم، ولكن هذا لا ينفي وجود فوارق اجتماعية بين طبقات العامة التي تميزت بالتفاوت الكبير، انعكس على مظاهر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة، فتنوعت ألبستهم وأطعمتهم ووضعية مساكنهم، وهذا حسب مستواهم المادي.

لقد نتج عن اختلاط عناصر المجتمع، الاحتفال بمختلف الأعياد والمناسبات سواء كانت دينية أو المرتبطة بمواسم معينة، فامتزجت كل العناصر وعلى اختلاف عاداتهم ودياناتهم ومعتقداتهم، للاحتفال وبث الفرحة في أوساط المجتمع.

الفصل الرابع: أصناف العامة ودورهم في تنشيط الحركة الاقتصادية والثقافية في ظل حكم الموحدين.

أولا-أصناف العامة بين المنتجين والخاملين

1- فئات منتجة

2-فئات خاملة

ثانيا-الفاعلون في الحرف والصناعة

1-البناؤون

2-العطارون والعشابون

3-الزياتون

4-الفرانون والخبازون

5-النساجون

6- الحدادون والصفارون

ثالثا: الفاعلون في الفلاحة

1-الفلاحون

2-الرعاة

رابعا :العاملون في التجارة

1-الباعة في الأسواق

أ-الثابتون

ب- المتجولون

خامسا: الفاعلون في تنشيط الحركة الثقافية

1-المعلمون

2- الناسخون والوراقون

تكوّن المجتمع الأندلسي من تركيبة بشرية متنوعة تعيش في سلم اجتماعي هرمي الشكل، احتلت الخاصة قمته والعامة قاعدته، وبين القمة والقاعدة نجد الطبقة الوسطى، ومنه يمكن تحديد أسس التفاوت الطبقي وفق مظهر القرب أو البعد عن الجاه والسلطة والثروة والوظائف العليا داخل المجتمع، ليتم وضع سلم اجتماعي للسكان، وهذا هو رأي "ابن خلدون" الذي اعتبر الجاه"متوزع في الناس ومرتب فيه طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي الأسفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه،وبين ذلك طبقات متعددة"[1].

غير أن العامة شكلت غالبية السكان وضمت فئات إجتماعية عدة، ولكنه من الصعب تحديد هيكلة تلك الفئات الاجتماعية التي ضمتها الطبقة العامة في العصر الموحدي، بسبب وجود فوارق اجتماعية من فئة لأخرى، وعليه "من الخطأ إعتماد مقياس نظري جاهز لحصر العامة، خصوصا وأنهم ليسوا طبقة اجتماعية واحدة محددة، فالمفهوم ينسحب على بعض الفئات، ويرتفع عنها تبعا لطبيعة المرحلة التاريخية"[2]، فنجد الفرق على سبيل المثال لا الحصر عند تولي المنصور الخلافة "دخل عليه أناس من جميع الأصناف لتحقيق مطالبهم"[3]، إذن العامة أصناف ولا يمكن أن ننفي وجود تفاوت بين كل فئة وأخرى، وقد كان وراء هذا التقسيم أو التمييز العامل المادي، وهو الذي يحدد المستوى المعيشي لكل صنف أو فئة، لهذا ظل العامل الاقتصادي المعيار الطاغي في تحديد الطبقات الاجتماعية، عندما اعتبر حجر الزاوية في إعادة صياغة الطبقية للبنية الاجتماعية[4].

أولا-أصناف العامة بين المنتجين والخاملين

رغم كل الصفات التي أطلقها مؤرخو البلاط على العامة، كالغوغاء والأوباش والسفلة والأوغاد والأراذل وغيرها من الصفات، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل دورها كفئة أنتجت وساهمت بقسط كبير في النشاط الاقتصادي للدولة، وفي تغطية الأسواق بكل

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص270
2- أحمد الطاهري، عامة قرطبة، ص44
3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص174
4-محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، سينا للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة،2000 ،ج1، ص54

الحاجات الاستهلاكية، فكانت المقوم الأساسي للحركة الاقتصادية، وقد شملت حسب الباحثين كل من لا يملكون وسائل ثابتة من

وسائل الرزق[1] واعتمادا على ذلك يمكن تقسيم العامة حسب نشاطها الذي تقوم به إلى الأصناف التالية:

1- فئات منتجة

ضمت هذه الفئة مختلف الشرائح الاجتماعية التي اقتصر دورها على الإنتاج والعمل لتلبية متطلبات الأسواق والسكان، وقد شكلت هذه الفئة قاعدة الهرم الاجتماعي لما قدمته من مساهمة كبيرة في النشاط الاقتصادي، وشملت أهل الحرف والصنائع الذين زاولوا أعمالهم في الأسواق أو في دكاكينهم الخاصة، وقد تزايد عدد هؤلاء الحرفيين بسبب تزايد عدد السكان في الأندلس حتى ضاقت العديد من المدن بحال سكانها[2].

ولأن الحرف بطبيعتها قادرة على التصريح بوفرة أو ندرة المواد الأولية في الأندلس، نجد أن الحرفيين اتخذوا من كل ما جادت به الطبيعة الأندلسية من موارد في ممارسة حرفهم و أعمالهم في دكاكينهم التي كانت بمثابة ورشات عملهم، مستعملين أدواتهم البسيطة التي يملكونها؛ فكان همهم الوحيد هو كسب الأموال وصرفها في تعاملاتهم اليومية، والتي تمّ بناؤها على التصور النمطي في جلب المصالح والمنافع ودفع المفاسد والمضار[3]،وقد قدمت لنا المصادر التاريخية خاصة منها كتب التراجم، لائحة بأنواع الحرف التي مارسها أهل الأندلس وورثها البعض لأبنائهم، ومن هؤلاء نذكر العطارون،العشابون،الزياتون، الخبازون، الجزارون،الحاكة،الرفاؤون،الحدادون،وغيرهم من الصناع والحرفيون.

كما ضمت الفئات المنتجة، فئة الفلاحين والرعاة الذين شكلوا شريحة اجتماعية مهمة ساهمت في عملية الإنتاج وإنعاش القطاع الفلاحي وتزويد الأسواق بمواد استهلاكية

1-أحمد الطاهري، جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، سلسلة ندوات، طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط (إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي)، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس (د.ط)،1991، ص70/إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،1994، ص11

2-النباهي، المصدر السابق، ص.175

3-الحبيب حاكمي، إسهام عقود المعاملات المالية والإدارية في رصد صنائع الأندلسيين وحرفهم، مجلة عصور الجديدة، العدد 2016،26-2017، ص376

ضرورية، إضافة إلى فئة البنائين والتي يبدو من خلال إنجازات الموحدين أنها تطلبت جلب العديد من البنائين والصناع، بسبب اتساع نطاق العمران، فضلا عما شيّدوه من منشآت عمرانية وقصور وجهت لتسلية الملوك والتفاخر بها والتي انساقوا إلى الانبهار بعجائب صنعتها[1]، هذا مع كثرة المنشآت الحربية التي أقامها الموحدون لحماية أراضيهم من هجمات النصارى، خاصة على مدينة إشبيلية لأنها كانت تحتل موقعا خطيرا بالنسبة للمنطقة الغربية، فأخذوا في تأمين الطرق والجسور التي تربط بمدن غرب الأندلس وتشييد الحصون والأسوار حماية للمنطقة[2].

في حين أن المصادر التاريخية لم تسعفني في ذكر هؤلاء الذين كان لهم الفضل الكبير في فن البناء والزخرفة، واكتفوا بذكر إشارات عابرة عن البنائين لا تفي بحق من كان لهم الفضل في بناء إنجازات رائعة تباهى بها الحكام في تلك الحقبة، وخلدها المؤرخون في كتاباتهم بأسماء الحكام، متجاهلين أولئك الذين كان لهم الفضل الأكبر في انجاز تلك المشاريع الضخمة، والتي لا يزال البعض منها خالدا. فهي إذا طبيعة الكتابة التاريخية، والتي همشت القوة الفعالة في نهضة اقتصاديات المجتمعات في العصور الوسطى.

إضافة إلى هؤلاء شكلت النخب المثقفة من الوراقين والنساخ، أهم الفئات المنتجة التي برز دورها الكبير في خدمة المجتمع، خاصة وأنّ العصر الموحدي قد شهد صناعة الورق في العديد من المدن مثل شاطبة وبلنسية والتي كانت المركز الرئيس للورق في الأندلس مما أدى إلى كثرة الوراقين والنساخ[3]، فضلا عن المعلمين والمؤدبين الذين كانوا يمارسون مهامهم في المدارس أو في المساجد، واستقطبتهم الفئة الحاكمة لتعليم أبنائهم ونسائهم في البلاط[4].

1- ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص248-256.

2-ينظر التحصينات الحربية التي أقامها الموحدون في الأندلس عند أحمد مختار العبادي، التحصينات الحربية التي أقامها الموحدون في الأندلس، صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشاة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2000، ص218.

3-عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص224/ سحر السيد عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي (التاريخ السياسي والحضاري) مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1995، ص348.

4- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص98

وبالرغم ما قدمته هذه الفئة من خدمات كبيرة للمجتمع، إلاّ أنها حسب تعبير أحد الباحثين فإنهم فنيت أبدانهم في خدمة أهل الدنيا وكثرت همومهم من أجلها ولم يحضوا بشيء من نعيمها[1]، وعاشت مستوى معيشيا متواضعا جدا، وظروفا اجتماعية قاسية علاوة على انتشار الأمراض والمجاعات التي كانت تحصد السواد الأعظم منهم، ومع هذا لم تحظ هذه الفئة بعبارات الاحترام من قبل المؤرخين الذين تجاهلوا المساهمة الفعالة للعوام في المجتمع الموحدي، وراحت تنعتهم بمختلف الصفات القدحية.

2-فئات خاملة

لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات كافية عن حياة هذه الفئة التي كانت تعيش حياة شاقة ومظاهر الفقر منتشرة في أوساطهم، فلا يكاد الباحث يجد لهم ذكرا في المصادر ما عدا بعض الإشارات التي وردت في متون النصوص التاريخية.

كانت الفئات الخاملة أوغير المنتجة وليدة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أصابت الأندلس في فترات عدة من الحكم الموحدي، ويبدو أنّ قاعدتهم الاجتماعية قد اتسعت بشكل كبير مع استفحال ظاهرة الفقر التي مست كثيرا المجتمع الأندلسي في هذا العصر، هذا فضلا عن انتشار المجاعات والأوبئة، وقد تشكلت هذه الفئات من الفقراء المهمشين الذين عجزوا عن الحصول حتى على قوتهم اليومي، وقد عبرت المصادر التاريخية عن هؤلاء بالضعفاء من الناس[2]، أهل الستر والتصاون والتعفف[3]،منحط الطبقة[4]، الفقراء[5]، الضعفاء والمساكين[6]، فهذه الألفاظ ماهي إلاّ معان عن سوء الأحوال وتبرّم الناس من الحياة ومن شدتها وعسرها وضيقها عليهم، خاصة خلال تلك الهزات والنوبات التي أصابت الأندلس زمن الكوارث الطبيعية واندلاع الحروب والفتن داخليا وخارجيا.

1-أحمد الطاهري، عامة قرطبة، ص71.
2-ابن خاتمة، أبو جعفر احمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم5255، ص6.
3- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق2، ص645
4-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص11
5-ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص231.
6- الضبي، المصدر السابق، ص125

لقد كان هؤلاء المعدمون الذين سكنوا في أحياء وأماكن فقيرة،لا عمل لهم إلاّ ما يحصلون عليه بسواعدهم،والمساعدات المادية التي كانوا يتحصلون عليها من السلطة أحيانا على شكل صدقات أو من أصحاب الخير.وإضافة إلى هؤلاء اعتبرت الفئات المهمّشة من الطبقة الدنيا التي عانت من سوء المعيشة[1] والممثلة في المرضى[2]، الأرامل[3]،أهل الدعارة[4]،المخنثين[5]،فضلا عن وجود عدد كبير من أهل البطالة[6]وأهل السؤال[7]والمجذومين[8]،واللصوص[9]،إضافة الى الراقصات والعاهرات[10]،والمغنين[11]، والمعتدين[12]من الفئات غير المنتجة التي كانت تكفف الناس وتعيش منهم، وبالتالي احتلت أسفل الهرم الاجتماعي[13]؛ ولم تشارك في عملية الإنتاج، بل اتخذت كل السبل للحصول على الأموال من أجل العيش فقط، فضلا عن بعدهم عن المواقع السياسية والحقول المعرفية بل شكلوا عبئا ثقيلا على كاهل الدولة الموحدية، مما يعني أنّ العامل الاقتصادي أو المعيار المادي هو الأساس في انقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية، وهو ما أفصح عنه أحمد الطاهري[14] عندما جعل تقسيم المجتمع إلى طبقات أساسه اقتصادي ومن ثمّ يتحدد البناء الاجتماعي.

ولا سبيل إلى الشك في أنّ أحوال الفئة الخاملة كانت حياة بؤس وشقاء، وبقوا عرضة للفاقة يشتكون الفقر والضنك، في مجتمع زادت فيه الضغوطات السياسية بكثرة الفتن الداخلية

1-إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، تحقيق عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، 1995، ج1، ص305
2- العمري، المصدر السابق، ص230
3- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص367
4-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص305(ترجمة رقم 881) لعبد الله بن عبد الحق الأنصاري، تولي قضاء الجماعة باشبيلية وكانت له بالدعار سطوات مرهوبة توفي سنة 589هـ/1193م.
5- ابن سعيد، المصدر السابق، ص118/ ابن بشتغير، المصدر السابق، ص301
6-ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، ص137
7-المقري، المصدر السابق، ج1، ص220.
8-حبيب مصطفى عز الدين، جوانب من التاريخ الحضاري للطب والصيدلة في الأندلس خلال عهدي المرابطين والموحدين، أطروحة دكتوراه، الرباط، 1999، ص415
9-المقري، المصدر السابق، ص219
10-ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص295
11- المصدر نفسه، ج1، ص118-354
12- المقري، المصدر السابق، ج4، ص192.
13- إبراهيم القادري بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، ص18.
14-أحمد الطاهري، المرجع السابق، ص160

وتكالب الأعداء النصارى، وهجماتهم على المدن الأندلسية، وانتشار المجاعات إزاء التغيرات المناخية، ممّا أدى إلى ازدياد عدد المعدمين والمهمشين والفقراء.

بعد تقسيم الطبقة العامة إلى فئتين منتجة وخاملة، ظهر نشاط الفئة الأولى التي فرضت وجودها في المجتمع الأندلسي على الرغم من بعدها عن حقل السياسة والمكانة الاجتماعية والثراء الذي عاشت في كنفه الطبقة الخاصة، إلاّ أنّ الفئة المنتجة قامت بدور بالغ في الحركة الاقتصادية والثقافية أين ظهر نشاط الصناع والحرفيين والمثقفين بمختلف تخصصاتهم، ودورهم الفعال في تنشيط الحياة الاقتصادية والثقافية في الأندلس الموحدية، غير أنّ الشيء الذي نأسف عليه هو أنّنا لا نملك معلومات وافية تحيلنا إلى الحديث بالتفصيل عن حياة هؤلاء الذين لا تفي بحقهم المصادر التاريخية؛ باستثناء كتب التراجم والطبقات و التي ساعدتنا في الكثير من الأحيان لمعرفة المهن التي تعيّش منها العوام، ولا ننكر أنّنا حاولنا لم شتات المادة التاريخية المبعثرة في المصادر التي خصصت صفحات للحديث عن أوضاع الحرفيين والصناع، إذ لوحظ أنّ تلك المصادر لم تولي اهتماما لتاريخ العوام وحديثها عنها جاء في السياق العام، عندما غلب عليها التعميم وعدم التخصص في حقل الحرف والمهن والصنائع التي مارستها طبقة العوام وبعدها في الغالب عن واقعها الاجتماعي.

ثانيا-الفاعلون في الحرف والصناعة

تعتبر الحرف الصنائع من أهم الأنشطة الاقتصادية التي ازدهرت في العصر الموحدي، ومثلت إرثا حضاريا معبرا عن العديد من المعالم المكونة للتاريخ[1]،نظرا للتطور الحضاري والعمراني الكبير الذي شهدته البلاد في هذه المرحلة، ممّا أدى إلى خلق حاجات استهلاكية جديدة فأصبحت بذلك المهن والحرف مجالا حيويا للفئات الشعبية، ولكن من الضروري الملاحظة أنّ المهن التي تطرقنا إليها لم نتمكن من حصد معلومات كافية عن كيفية ممارستها، ولا عن الوضعية الاجتماعية التي كان يعيش فيها هؤلاء خاصة البناؤون،كما أنّ المصادر لم تقف بنا عند أجور العمال، ولذلك يمكن القول بأنّ الحديث عن

1-محمد بركة، المعالجة التاريخية للحرف والصنائع بالغرب الإسلامي، مقاربات منهجية ومعالم تجديدية، ضمن كتاب الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي (مقاربات لأثر المجال والذهنيات على الإنتاج) تنسيق سعيد بنحمادة ومحمد بركة، تقديم عبد الإله بن مليح، منشورات الزمن، المملكة المغربية، العدد 76 ،2016ص24.

الحرف والمهن التي مارستها العامة في العصر الموحدي تتطلب التعمق في قراءة النصوص التاريخية .

والجدير بالذكر أن بعض الحرف أصبحت من التقاليد الراسخة لدى العديد من العائلات الأندلسية التي ورثت لأبنائها الصنائع أبا عن جد، وقد حرصت كل الحرص على أن تبقى تلك الحرفة قائمة ومتوارثة، وهو ما جسّدته أمثال العامة عندما قالت[1]:"صنعت والدك ولو كان حشاش"وفي السياق ذاته يورد "عبد الملك المراكشي" ترجمة لعلي بن يحي بن علي بن سعيد الاشبيلي (ولد عام 586هـ/1190م) الذي كان يعمل في الفخارة مع أبيه[2].

إذن كثيرا ما كان الآباء يحرصون على تعليم أبنائهم الحرف التي تعيّشوا منها وهذا حتى تبقى متوارثة في العائلة، وحتى يضمنوا لأبنائهم مصدرا للعيش،وهذا ما يدل على أنّ الحرف والصناعات كانت تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، ويؤكد انتساب الأبناء إلى حرف آبائهم[3]، لذلك اعتبر أحد الباحثين أنّ الصنعة أول ما ينبغي للإنسان أن يتعلمه بعد معرفته بدينه[4]، وهو ما جعل المؤرخ "ابن خلدون" يصنّف الصنائع إلى أصناف منها "ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة، ومن الصنف الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها، ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم"[5].

وعلى هذا الأساس قمت بتصنيف الحرفيين والصناع حسب تخصصاتهم إلى:

1-الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 1582،ص359

2-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص420

3-جهاد غالب مصطفى الزغلول، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الأردنية، 1994، ص200.

4-ابراهيم القادري بوتشيش، المجال الحرفي بالمغرب خلال العصر المرابطي، مجلة دراسات تاريخية العدد، 3، 2014، ص12.

5-ابن خلدون، المصدر السابق، ص 311/ نبيل مخلوطة، علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، مذكرة ماجستير مطبوعة قدمت بالجامعة الأمريكية، ببيروت، لبنان، 1998، ص36

1-البناؤون

تمثل حرفة البناء أول صنائع العمران الحضري وأقدمها[1]، وقد دفعت هذه الصناعة الإنسان إلى بناء مسكن له يحميه من قسوة الطبيعة،فراح يبحث عن كل الطرق والوسائل لتحقيق ذلك، غير أن أحوال البناء وأساليبه اختلفت باختلاف مستوى معيشة الإنسان،فمنهم من اتخذ القصور وبالغ في تزيينها بسبب الثراء، كما هو الحال للحكام الموحدين الذين أولوا اهتمامابالغا بالعمران والبناء والتشييد[2]، ومنهم من اكتفى ببناء مسكنه بالطوب والحجارة، وغطّاه بالقرميد أو بالقصب بسبب الفاقة.[3]

ونتيجة للتطور العمراني الذي شهدته الأندلس في العصر الموحدي، راجت حركة البناء بالمدن الأندلسية بسبب اهتمام الحكام ببناء المساجد والقصور والمنازل والقناطر، حتى أنّ أحد الباحثين حكم عليهم بحب تشييد المباني هو أظهر صفاتهم[4]، وهو ما جعل النصارى يتبعون نمط الهندسة المعمارية الموحدية في بناءاتهم بعد سقوط المدن الأندلسية في أيديهم[5].

وتعتبر مهنة البناء من أهم المهن التي تتم بتضافر جهود عدة مهنيين كالحجار والبناء والنجار وصانع القرميد والطوب والمهندس، وقد اتسعت وتزايدت هذه المهنة بسبب اتساع حركة العمران وتطورها والمشاريع الكثيرة التي توجهت بها الدولة والتي وقعت أغلبها على عاتق البنائين.

ومما لا شك فيه أنّ بناء المشاريع العمرانية تطلب جلب العديد من البنائين والصناع خاصة وأن الأندلس قد عرفت بمهارة بنائيها ؛ وقد أشاد "المقري" بمساهمتهم في بناء مدينة مراكش حتى أن الخليفة عبد المؤمن بن علي جلبهم لبناء المدينة[6]، وهذا ما يدلُّ على شهرة الصناع الذين اعتمدوا عليهم في تطوير مدينة مراكش إذ ينقل "المقري" عن "ابن سعيد

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص450

2-المقري، المصدر السابق، ج4، ص204/ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص157.

3- أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج1، ص129،239/ ج2،ص550

4-ويتعلق الأمر بالباحث الفرنسيSidio، نقله عنه الأستاذ محمد المنوني، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (د.ت)، ص163

- Antonio Almagro,Una nueva interpretacion del pacio de la casa de Contratacion del Alcázar de Sevilla, AL-Qantara, Revista de estudios arbes,Vol 28, N 1, enero-junio 2007 -p188

6- المقري، المصدر السابق، ج3، ص153

"قولـه: "إنَّ حضـرة مـراكش هـي بغـداد المغـرب، وهـي أعظـم مـا فـي بـرِّ العـدوة، وأكثـر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مُّدةِ بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلومٌ إلى الآن"[1].

كما كان لليهود دور كبير في حركة البناء والتشييد، إذ أشارأحد الباحثين إلـى أنّ اليهود الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب كان لهم دور كبير في حركـة الإعمار وهو مـا يفسر كونهم عناصر فعالة في البناء، غير أنّ المصادر المطلع عليها لم ترشدنا إلى دور هؤلاء فـي الأندلس، ويرجح أنّ اضطهاد الحكام الموحدين لهم هو ما دفعهم للهجرة، لأنّ بهجرتهم إلـى المغرب امتهنوا نفس المهن التي كانوا يمارسونها في الأندلس مثل النجارة والبناء، إلى جانب حرفة خرط الأخشاب[2].

ولايخامرنا شك في أنّ هؤلاء البنائين عكسوا بجهودهم العملية والفنيـة فـي بنـاء المدينـة وقد شكلوا السواد الأعظم من الصناع لأعمار المدن، وهو ما جعل المؤرخ "ابن سعيد" نفسه يعترف بأنه "لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلاّ ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن"[3].

لقد كان للحكام الموحدين دور كبير فـي تشـجيع البنـاء والتعمير، فبعد أنّ استتب الأمـر للخليفـة عبد المؤمن بن علـي، أخذ بأسباب الزخرفـة فـي المبـاني، واتبعـه أبنـاؤه من الحكـام خاصة بعد اتصالهم بالأندلس واستعانتهم بخبراء الأندلس في البناء، وصـارت مبـانيهم ناطقـة بذوقهم في الزخرفة التي تجمع بين رقة الأندلس مع الفخامة والقوة[4].

وواصل الحاكم يعقوب المنصور حركة البناء التي بلغت أوجها في عهده[5]، إذيذكر أنـه كان محبا للبناء؛ ويعبّر "عبد الواحد المراكشي "عن ذلك بقوله: "جاريا في ذلك علـى عادتـه

1-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2-عطا على محمد شحاتة، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة للطباعة والنشر، سورية، الطبعة الأولى،1999، ص148

3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص145

4- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص378.

5- ينظر وصف أبو فارس الملزوزي لإنجازات المنصور الموحدي العمرانية في نظمه، الملزوزي عبد العزيز، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى،1963، ص5

من حب البناء وإيثار التشييد فانه كان مهتما بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها"[1]؛ فكان مهتما بالتشييد، ولما فرغ من وقعة الأرك(591هـ/1195م) واحتل مدينة اشبيلية، أخذ في إتمام جامعها الأعظم وتشييد منارته[2]، وقد اكتفى المؤرخون بالإشادة بالمجهودات الكبيرة وباختراعات المهندسين والصناع في بناء القصور مثل القصر الكبير الذي بني على نهر شنيل خارج غرناطة عام(615هـ/1218م)[3]، وقصر السيد بمالقة الذي بناه الخليفة أبوالعلاء إدريس المأمون(624-629هـ/1226-1231م)عام 623هـ/1229م[4]، وهي المنشآت التي وجهت لتسلية الملوك والتفاخر بها والتي انساقوا إلى الانبهار بعجائب صنعتها، أو تلك الصناعات المتمثلة في المنشآت الحربية لترهيب العدو[5].

والملاحظة المسجلة هنا أنّ المصادر وإن نوهت بدور البنائين وجهودهم في عملية التشييد إلا أنّها أغمطت جهودهم ولم تتقص تفاصيل البناء وأقبرت كل ذلك في مشهد الانجازات السلطانية، ومعها اختفى فصل مهم لدور العوام في البناء والذي كان من الممكن أن نلمس حيثياته في مختلف الصنائع[6]، وإبداعات العوام في القصور التي لا تزال شاهدة على ذلك، فقد كانت تشيد بجهود الحكام في حركة البناء وكأنّ الحكام قاموا ببناء القصور والحصون الحربية والجسور بأنفسهم، فقد كان العوام يكابدون عقب كل حملة عسكرية إلى إعادة أعمار ما خربته الحروب، لكن للأسف الشديد ليست لدينا معلومات تشفي غليل الباحث في هذا الشأن، وأيًا كان الأمر فالعوام شاركوا في بناء الحضارة الأندلسية، لأنهم عايشوا تلك الحقبة الزمنية، والمعلوم أنّ الحضارة هي وليدة هذا الإنسان الذي عايش الزمان والمكان وتفاعل معهما[7].

1-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص212
2- الناصري، المرجع السابق، ج2، ص174
3- ابن سماك العاملي، المصدر السابق، ص256
4-المصدر نفسه، ص248
5-نفسه، ص244/أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص218
6-الطاهربونابي، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مخبر العلوم الاجتماعية والتاريخية، مجلة الناصرية، العدد 4، 2013، ص180
7- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق(د.ط)1981، ص45.

والحقيقة أنّ هذه الانجازات ما هي في حقيقة الأمر إلا تفاخر وتباه ودلالاتها تعكس ذلك، فاهتمام الموحدين بالبناء كان له دافع قوي في دفع عجلة البناء والتعمير إلى الأمام، والمعلوم أنّه كلما تطور وزاد نشاط العمران كثر عدد الصناع، وتزدهر حرفة البناء مع التوسع العمراني، فالبناء بدوره من أكبر أسواق العمل لما يتطلبه من يد حرفية تغطي مختلف أصناف الصنائع التي يتطلبها البناء الكامل، من الجباسين الذين يصنعون الجبس، والجيارين الصانعين للجير[1]، والنجارين، إذ امتهن علي بن حسين بن محمد الشقري(578هـ/1182م) مهنة النجارة [2]، فضلا عن ظهور الزواقين[3]،والفخارين[4]، والمهندسين [5]،الذين أبدعوا بأناملهم بأناملهم في فن الهندسة المعمارية[6]، وممن كانت له شهرة عظيمة في عملية البناء الحاج يعيش المالقي[7] الذي كان من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين؛ لقد كانوا يلجؤون إليه في كل المشاريع الهامة، فهو الذي قام في اشبيلية بعملية تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية وتوصيله إلى داخل المدينة لشرب الخاصة والعامة، كما قام ببناء خزان للماء داخلها[8].

وصنع في أعلى جبل طارق رحى تطحن الأقوات بالريح[9]، والأكيد أنه عمل فريد من نوعه لأنّ الطواحين المعروفة في تلك الفترة كانت طواحين مائية، والتي يبدو أنها كانت تعمل بصفة مؤقتة بينما رحى الريح التي صنعها الحاج يعيش المالقي في جبل طارق كانت تعمل بصفة دائمة لأول مرة[10].

1-المقري، المصدر السابق، ج4 ،ص260

2-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ق5، س1، ص205/الذهبي، المصدر السابق، ص 315

3-ابن الزبير، المصدر السابق، ص65

4-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص420

5- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص483

6-باسيليو بابون مالدونالد، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص290-291.

7- لم أقف على ترجمته.

8- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص377.

9- المصدر نفسه، ص143

10-أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص217/ عبد الهادي أحمد الحسيسن، مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحدي(554-595هـ/1159-1198م) اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي، المغرب،1982، ص151

ومن أبرز البنائين الذين اعتمد عليهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى، واستفادوا من خبرتهم في مجال البناء، المهندس أحمد ابن باسة[1] عريف البنائين بالأندلس الذي تفرد في إبتناء قصور اشبيلية[2]، وجامعها الأعظم[3]، فضلا عن المهندس سعيد الغماري[4] الغماري[4] الذي يعتبر من أهم الصناع، إذ كان له دور كبير في بناء صومعة جامع اشبيلية عام 584هـ/1188م.

وبناء على ذلك يمكن القول بأنّ المصادر التاريخية المطلع عليها، وإن كانت قد نوهت بدور هؤلاء الصناع المهرة في البناء، إلّا أنها أغفلت جهودهم ولم تصرح بأجورهم ولا بوضعهم الاجتماعي، ولا حتى التفاصيل الكافية في عملية البناء، وما استطعت تسجيله هو أن البنائين في الأندلس شكلوا طبقتين، طبقة تعمل في خدمة البلاط الموحدي مقربة من السلطة تخطط وتشرف على بناء المشاريع الكبرى، وأصبحت مهنة البناء مهنة مرموقة لديهم داخل المجتمع، تعتمد عليها في تحصيل معاشها تدر على أصحابها الأموال والخيرات كما هو الحال للمهندس البناء الحاج يعيش[5]، وأحمد بن باسة[6]، وطبقة أخرى عاشت بضيق وسوء الحال، تعاني الفقر امتهنت حرفة البناء تكسبا للعيش كما هو الحال لعبد الله بن الفضل (ت 580هـ/1184م) الذي كان ضعيف الحال يتحرف بصناعة البناء والزواقة[7].

فلا غرو أن يعاني هؤلاء الفاقة في ظل الظروف القاسية التي يعيشونها من جهة، وعملهم الشاق الذي يستغرق طول النهار من جهة أخرى، إذ يبدأ عملهم من بزوغ الشمس إلى نصف المدة الزمنية الممتدة بين العصر والمغرب[8].

1- لم أقف على ترجمته.
2- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص86، 375.
3-يذكر ابن صاحب الصلاة أنه اجتمع لبناء جامع اشبيلية" أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف صناع مهرة " المصدر نفسه، ص384/ محمد الكحلاوي، عرفاء البناء في المغرب والأندلس، وأهم أعمالهم المعمارية، مقال بالسجل العلمي لندوة الأندلس، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى، 1996، ص132.
4-لم أقف على ترجمة وافية له، غير أن الناصري السلاوي يذكر أنه كان طبيبا، ويضيف ابن صاحب الصلاة أنه شرع في بناء صومعة اشبيلية عام 584هـ/1184م، ابن صاحب الصلاة، المصدر نفسه، ص392/ السلاوي الناصري، المرجع السابق،ص141
5- المصدر نفسه، ص377 / رسائل موحدية، مجموعة ليفي بوفنسال، ص101
6-ابن صاحب الصلاة، المصدر نفسه، ص86، 375.
7-ابن الزبير، المصدر السابق، ص65
8-السقطي، المصدر السابق، ص65

ولا شك أنّ مهنة البناء كانت من المهن الصعبة والشاقة التي امتهنها العوام بحثا عن الرزق، وقد كشفت هذه المهنة الواقع اليومي للبناء الأندلسي وهو يؤدي مهمته، فبرع في تحويل المادة الخام إلى أدوات قابلة للاستعمال ومن َثمّ تشيد بناءات عظيمة مشكلة ومزينة لا تزال بعض من آثارها تشهد له بذلك.

2-العطارون والعشابون

لقد نشطت حرفة العطارة في الأندلس، نتيجة لتنوع الأعشاب خاصة التي كانت تنتشر بضواحي البلاد، وقد سمي من يقوم بهذه الحرفة عطارا أو عشابا، وكان نشاط العطارة يحترفه العديد من سكان الأندلس الذين اتخذوا من هذه الحرفة مصدرا ضروريا للعيش.

أدى انتشار النباتات بمختلف أنواعها إلى ظهور طائفة عريضة من عشابين وعطارين، اتخذوا من جمع الأعشاب وممارسة العطارة مكسبا للعيش، وقد كانت الغابات والجبال مصدرا يمدهم بشتى أنواع الأعشاب الطبية والعقاقير الدوائية[1] التي كانوا يعالجون بها المرضى، أين يقومون بجمع النباتات وبيعها في الدكاكين أوفي الشوارع والأسواق[2].

ويبدو أنّ مهنة العطارة مهنة صعبة تتطلب اتخاذ الحذر مع الخبرة والتجربة في معرفة الأعشاب الطبية، لأنها ستستخلص منها أدوية مركبة يتناولها المرضى قصد العلاج، وتعتبر الأسواق المكان المناسب للعديد منهم لممارسة مهنتهم وبيع الأعشاب وإعداد الأدوية للعوام.

وقد كان بعض العطارين يعرضون المواد فوق بساط ينشر على الأرض، ويحضّرون منتجاتهم تحت أعين الناس، إلاّ أن البعض كانوا يستعملون الحيلة فيبيعون عقاقير مزورة ويستبدلون الأصلية منها بأخرى تشبهها من النبات البري الذي كان متوفرا في جبال الأندلس[3]، لهذا نهى "السقطي"العطارين عن خلط العقار الطيب بالرديء[4].

1-ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دراسة وتحقيق محمد مسعود جيران، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،2009، ص45.
2-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص188
3-ليوبولدو طريسبالباس، المرجع السابق، ص498
4-السقطي، المصدر السابق، ص31

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك فرقابين العشابين والعطارين، فالعشابين هم الذين يقومون بجمع الأعشاب وبيعها في الأسواق للحصول على المال، والملاحظ عن هؤلاء أنهم لم يجنوا مالا يكفيهم لسد حاجيات الحياة، حتى أنهم امتهنوا مهنة أخرى لكسب المزيد كما هو الحال لإبراهيم بن إبراهيم بن محمد الأنصاري العشاب (ت 583هـ/1187م) الذي كان يعلم القرآن ويبيع العشب[1].

ومنهم من تحرّف بجمع الأعشاب إيثارا للخمول، إذ يذكر أحد المؤرخين أنّ يوسف بن فتوح بن محمد العشاب (ت 562هـ/1166م)أنه كان له حظ في معرفة النبات وأعيان العشب، وكان يجلبه ويبيعه إخفاء لنفسه وإيثارا للخمول[2].

أمّا العطارون فكانوا يملكون دكاكين خاصة بهم في موضع معروف بالأندلس يعرف بالعطارين[3]، يعتمدون على جمع العقاقير واستخلاص الأدوية للعلاج وإعادة تركيبها، ومن تم يستخدمون تلك الأدوية في وصفات علاجية نافعة[4].

ولم تكن العطارة بمعزل عن ميدان الطب، فالمصادر تشير إلى أنّ الأطباء كانوا يمزجون بين الطب والعطارة، فيتولون عمل الأدوية المركبة وأعمال الصيدلة، وربما يكون أحمد بن محمد الاشبيلي (ت562هـ/1166م) نموذجا لهؤلاء؛ فكان له دكان متسع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية والنفع بها[5] حتى أطلق عليه اسم عبقري الصيدلة[6]، كما كان حسن بن أحمد بن عمر (ت603هـ/1206م)طبيبا موفقا في العلاج وفاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب[7].

1- ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص136
2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3-الذهبي، المصدر السابق، ص129
4- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص476.
5-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1، ق2، ص513
6-إسلام صبحي المازني، روائع تاريخ الطب والأطباء المسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2006،ص158
7- ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص214

ولأنّ مهنة البحث عن الأعشاب الطبية والتداوي بها ومعرفة منافعها من مضارها كانت من أولويات دارس الطب، فالمصادر أشارت إلى أن أغلب المتخصصين في الطب كانوا عطارين قبل أن يصبحوا أطباء.

3-الزياتون

يعتبر الزيتون من المحاصيل الأساسية في الأندلس، إذ احتلت زراعته نطاقا واسعا من الأراضي خاصة إقليم الشرف[1]، الذي اشتمل على مائتين قرية قد التفت بأشجار الزيتون[2]، ويعتبر هذا الإقليم من أفضل المناطق إنتاجا لأنواع الزيت، وهو يُصدّر للبلاد المجاورة برا وبحرا[3]، كما أنّه يبقى عند عصره برقته وعذوبته أعواما لا يتغير طعمه[4].

وبهذه المادة الخام وجدت صناعة الزيوت، والتي اعتبرت من الصناعات الضرورية في حياة الإنسان، لاستخداماته العديدة في الأطعمة والاضاءات وغيرها، ولاقت اهتماما من طرف العوام الذين وجدوا في صناعة الزيت حرفة لهم.

وبالرغم من أنّ "الحميري" أخبرنا بوجود معاصر لعصر الزيتون في اشبيلية، وأضاف أحد الباحثين أنّ المدينة ذاتها احتوت على ألف معصرة لعصر الزيت[5]،إلاّ أننا لا نجد في المصادر تطرقا لكيفية العصر، إذ تشكل مرحلة عصر الزيت مرحلة هامة في إنتاج الزيوت، والأكيد أنه بعد جمع الزيتون يتم توجيهه إلى المعاصر أو المطاحن أين كان العصارون يتولون مهمة عصره.

والظاهر أن إقبال أهل الشرف على عصر الزيت كان كبيرا لأنّ أكثر متاجر أهل هذا الإقليم هي الزيت[6]، فقد كان الناس يستخرجون الزيت الذي اعتبر جل تجارتهم ويتجهزون

1-جبل يقع باشبيلية، مشهور بزراعة الزيتون، ويعتبر زيتون إقليم الشرف أفضل وأجود زيتون في بلاد الأندلس، ويصدر إلى بلاد المشرق، العذري، أحمد بن عمر بن أنس الدلائي، نصوص عن الأندلس، من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد،1965، ص95

2- المقري، المصدر السابق، ج1، ص159

3-الحميري، المصدر السابق، ص339

4- العذري، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

5-يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص252

6- المقري، المصدر السابق، ص159

به[1]، وكانت عملية العصر تتم بإشراف المحتسب الذي كان يمنع الغش والتدليس، إذ طالعنا "ابن عبد الرؤوف" في كتابه على العديد من المظاهر السيئة التي كان يقوم بها الزياتون فمن ذلك "خلط الزيت بالماء، أو خلط الزيت الرديء بالطيب لأن ذلك من باب الغش"[2].

لقد اختص أهل جبل الشرف بإشبيلية بعصر الزيت الذي اعتبر من أطيب الزيوت، كثير الرفع عند العصر، لا يتغير على طول الدهر[3]، ومن ثمّ فإنّ استقراء النصوص الواردة عن حرفة عصر الزيتون تكشف عن وفرة الإنتاج والقيام بعملية تخزينه في المطامير، وذلك خوفا من شبح الحروب والمجاعات التي ألقت بظلالها على المجتمع الأندلسي في العصر الموحدي، فكان عامة اشبيلية "يدّخرون الزيتون تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة، ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري"[4].

والأكيد أن الزيات كان يرتدي لباس خاص به يلبسه عند القيام بمهمة العصر، حتى أصبح لزيات جبل الشرف لباس معروف به، وهو ما يفهم من نص أورده "ابن صاحب الصلاة" عندما:"أرسل برجل زيات كان على ثيابه أثر الزيت وكان الرجل من خوله القاضي فأمره أن يغير لباسه كأنه زيات من أهل الشرف"[5].

ولحرفة عصر الزيت موضع معروف بباب الزياتين[6]، وممّا لا شك فيه أنّ المدينة كانت توجد بها حوانيت خاصة لعصر الزيت، يقصدها أهل البلد من أجل التزود بهذه المادة الأساسية، ولا سيما في اشبيلية التي اكتسب أهلها من تجارة الزيت أموالا عظيمة[7]،ومن الذين الذين يعيشون بهذه الحرفة عبد الله الشنتريني(ت 606هـ/1209م) الذي كان يبيع الزيت[8].

1-الحميري، المصدر السابق، ص19

2- ابن عبد الرؤوف، أحمد بن محمد، آداب الحسبة والمحتسب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى،2005، ص97

3-الحميري، المصدر السابق، ص19/العذري، المصدر السابق، ص95

4- المقري، المصدر السابق، ج1، ص208

5- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص117.

6- ابن الآبار، المصدر السابق، ج2، ص37

7-المقري، المصدر السابق، ص185/محمد بن عبود، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف (414-487هـ/ 1023 -1091م)، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة تطوان، 1983، ص169

8-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص285/ الذهبي، المصدر السابق، ص215

4-**الخبازون والفرانون**

كانت لحرفة الخباز أهمية خاصة في حياة المجتمع، كون الخبز الغذاء الأساسي للسكان، إذ تقتصر صناعته على عجنه ثم إنضاجه في المنزل أو في الفرن، أين انتشرت الأفران في سائر المدن الأندلسية وذلك لسد حاجيات السوق من الخبز، وكان الحصول على هذه المادة، إمّا في المنزل أين كانت المرأة هي التي تتولى مهمة عجن وتحضير الخبز وطهيه في الطاجين فوق النار[1]، أو في الأفران والتي كانت منتشرة في العديد من المدن.

يذكر المؤرخ" ابن الزبير" أنّه هناك من كان يتولى مهمة بيع الخبز[2]،وهو الخباز[3] الذي الذي ينحصر عمله في طهي الخبز في الأفران وذلك من أجل تزويد السكان بهذه المادة الأساسية، أما بعض العائلات الفقيرة التي لم تكن تملك مكانا لطهي الخبز فإنها تحمله إلى الفران حتى يتولى مهمة ذلك، وهو ما نستشفه من نص "لابن سعيد ":"الذي لمح عجوزا خرجت من الفرن بطبق فيه خبز"[4].

كانت دكاكين الفرانين تشهد إقبال الزبائن لإنضاج خبزهم وتوجيهه بعد ذلك إلى السوق لبيعه تكسبا للرزق، إذ ينوّه"ابن عبد الملك المراكشي" إلى أحد الفقراء الذي كان يأخذ خبزه إلى الفرن لإنضاجه ثم يحمله إلى السوق لبيعه كسبا للعيش في مظهر من الفاقة والضعف، عندما قال:"كان يحمل خبزه إلى الفرن وسوقه منه تحاملا وقهر نفس"[5].

ولما كانت الحبوب من الأغذية الأساسية المهمة في حياة الإنسان، فقد انتشرت الأرحاء المائية بكثرة على الأنهار والأودية، إذ وجد في قونكة" حفير أدراج قد حفرت تحت الأرض ينزل فيها إلى الوادي لشرب الماء ولطحين القوت في الأرحية التي على الوادي"[6]، أما المؤرخ "ابن الخطيب" فقد أحصى عدد الأرحاء في سور غرناطة لوحده بنحو مائة وثلاثين

1-ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص54.
2-ابن الزبير، المصدر السابق، ص363
3-ابن دحية الكلبي، المصدر السابق، ص81/ ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص73
4- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص150.
5- ابن عبد الملك، المصدر السابق، س5، ق1، ص170
6- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص505

رحى طاحنة بالماء[1]، وقد برز في صناعة الأرحاء وتفوق فيهاالحاج يعيش سنة 555هـ/1160م، عندما قام بصنع في أعلى جبل طارق رحى تطحن الأقوات بالريح[2]، ومن ثمّ قامت على توفر الأرحية المائية صناعة طحن الغلال وصناعة الخبز، أين كان العوام يحملون خبزهم إلى الأفران لإنضاجه.

5-النساجون

تعتبر صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الرئيسة في الأندلس بسبب حاجة الناس إليها على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، ولما توفرت المادة الأولية لصناعة المنسوجات واتسعت الأسواق لذلك؛ امتهن العوام صناعات متعددة مرتبطة بصناعة النسيج وما والاها، فنشطت الحرف وتنوعت الصناعات لارتباطها القوي بمجالات حياتهم اليومية المختلفة، فظهرالفراءون، والقصارون، والحاكة، والخياطون، والنساجون.

اهتم سكان الأندلس بإنتاج محاصيل زراعية، كانت عاملا في ازدهار الصناعة النسيجية والصباغة، وذلك بتوفير المادة الأولية، إذ وٌجد الكتان بألبيرة[3] والتي اشتهرت بإنتاجه، وتخصصت مدينة باجة في صناعة الكتان[4].

وهكذا اجتهد السكان في توفير المادة الخام ثم تحويلها إلى مواد قابلة للتصنيع، فوجدت المنسوجات، والتي اتخذت منها أنواع مختلفة من الأقمشة، كالمنسوجات الحريرية بسببتوفر أشجارالتوت، بقول "ابن سعيد":"إذ وجد بحصن شنش على مرحلة من المرية شجر التوت كثير، بسبب الحرير، ولهم فيه غلل عظيمة"[5].

لقد اتسعت صناعة الحرير في الأندلس، واشتهرت العديد من المدن الأندلسية بصناعته[6]؛ فقد نوّه "الرازي" إلى شهرة قرطبة في صناعة المنسوجات الحريرية[1]، وأضاف

1- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص36
2- ابن صاحب الصلاة، المصدر نفسه، ص143
3-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص75
4- المقري، المصدر السابق، ج1، ص159
5-ابن سعيد، المصدر نفسه، ص185
6- المقري، المصدر السابق، ج1، ص178

وأضاف "ابن حوقل" إلى نوع خاص من الحرير السميك اختصت به المدينة ذاتها[2]، وفي المرية كانت المنسوجات الحريرية أكثر منتجاتها الصناعية شهرة، وقد انتقلت إليها هذه الصناعة من بجانة[3]، التي كانت أعظم مراكز هذه الصناعة، وضمت دور الطرز بها عددا كبيرا من الأموال المتخصصة في نسج الحرير[4].

وفي المنحى نفسه يصف "ابن الخطيب"غرناطة بكثرة حريرها قائلا:"بها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز، وكفى بالحرير الذي فضلت به فخرا وفنية وغلة شريفة"[5].

لقد عرفت الأندلس انتشار الأقمشة الحريرية، وقد أشار "المقري" إلى أنّأهل بادية جيان وحاضرتها اعتنوا بدود الحرير[6]، حتى سميت بجيان الحرير[7]، وأكّد "ياقوت الحموي" أنّ" قرطبة كانت من أهم مراكز الوشي والديباج في الأندلس"[8]،وهذا ما يبين انتشار استعمال الأقمشة الحريرية في الأندلس، وازدياد عدد العاملين بالنسيج الحريري والتفنن في صناعته، فأهالي المرية حسب تعبير "الزهري":" كلهم رجالا ونساء صناع بأيديهم"[9].

فهذا النص له دلالة واضحة على كثرة العاملين في قطاع الغزل والنسيج، غير أنّ المصادر المطلع عليها لا تقدم معلومات ذات أهمية في هذا المجال، فلأكيد أنّه بتوفر المادة الأولية الخام والممثلة في الصوف والكتان والتي ليست لها قيمة استعمالية إلاّ بعد استحضارها وتهيئتها وتحويلها إلى مادة قابلة للاستعمال، كان يقوم بهذه المهام هم النساجون الذين كانوا يمارسون عملية النسج والممثلة في تنظيف الصوف وندفها وفتلها إمّا

1-Ahmed razi , la description de l’Espagne, provenacal , Al-Andaus, Vol 12.Paris,1953- p65

2- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت) ص108

3-بجانة من أعمال كورة البيرة، بينها وبين غرناطة مائة ميل، ياقوت الحموي، المصدر السابق، المجلد1، ص339

4-محمد أحمد أبو الفضل، المرجع السابق، ص171.

5- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص18.

6- المقري، المصدر السابق، ج3، ص217

7-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص42

8-ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص199

9- الزهري، المصدر السابق، ص101

في البيوت أو في محلات داخل الأسواق، ولكن شح المادة العلمية حال دون التطرق إلى تلك العناصر الفاعلة في الصناعة النسيجية.

ولكن من دون شك فإن صناعة الحرير نشطت بكثرة العاملين فيها، خاصة أنّ أهل الأندلس قد أحبوا صناعة الحرير وصباغته، وعادة ما كانت الأنهار مكانا مناسبا لصباغة الحرير، حيث أنّ هذه الصناعة تحتاج إلى مياه كثيرة وهو ما جعل أهلهافي موسم الصباغة "يخرجون إلى الأودية في جو من البهجة والسرور، حاملين معهم آلاتهم الموسيقية ويقضون وقتا ممتعا في ذلك"[1]، ومن هنا مثلت هذه العوامل قاعدة أساسية لظهور الحرفيين الذين كانوا كانوا يقومون بدور بارز في تنشيط الحياة الاقتصادية من خلال تحويل المادة الخام إلى أقمشة قابلة للتسويق.

والملاحظ أنّ النساء كنّ أكثر العاملين في الحياكة وغزل النسيج[2]، إذ لم تكن الحياكة حكرا على الرجال بل كان للمرأة نصيب في ممارسة هذه الحرفة، فيذكر "الزهري" أن نساء المرية كانت أكثر صناعتهم الغزل[3]، ونظرا لرواج هذه الصناعة استأجرت الجاريات لغزل الصوف[4]، ذلك لتمويل الأسواق بها بعد أن خصصت أسواق لذلك[5]، إذ يشير ابن الخطيب إلى إلى إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي[6] (ت 611هـ/1214م)، الذي كان" يقصد سوق مالقة ويتجر بسوق الغزل"[7].

وارتبط بحرفة الغزل حرف أخرى منها حياكة المنسوجات المطرزة والأقمشة ذات الزخرفة المنسوجة بحياكة الإبرة من خلال الاستعانة بخيوط ملونة[8]، فاختص أهالي المرية

1-المقري، المصدر السابق، ج1، ص178
2- ابن رشد، تلخيص الخطابة لأفلاطون، ص126.
3- الزهري، المصدر السابق، ص101
4-عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص495
5- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص168
6-يكنى أبا إسحاق، سكن مالقة، ثم انتقل إلى مرسية، كان مؤثرا للخمول، صاحب حيل ونوادر مستظرفة، يلهي بها أصحابه ويؤنسهم، توفي بمرسة، ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص168.
7- المصدر نفسه، الصفحة نفسها
8-مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وعبد البديع لطفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة،1977، ص415.

بتجهيز الأقمشة لعرضها في الأسواق، خاصة الرجال الذين تخصصوا في حياكة المنسوجات والتي كانت أكثر صناعتهم[1].

والواضح أن الحياكة كانت مهنة مرغوبة عند البعض، إذ يشير" ابن عسكر "إلى أحد الحاكة الذي كان يحب مهنته لدرجة أنه يفكر في الحياكة والغزل حتى في وقت الراحة أو الفراغ، فقال محمد بن غالب الرصافي(ت 572هـ/1176م) في وصف مهنة الحائك

من بحر البسيط

إذَا يُعابُ عَلَيه شُـغْـلُ رَاحـته   مَنْ يُحْسنُ الفَرْقَ بَيْنَ الحَـلّ وَالعُطـل

غُـزَيّـلٌ لَمْ تـزَلْ فيْ الغـزَل جَائلَـه   بَنَـانُـهُ جَـوْلاَنُ الفكْـربالـغَـزَل

جَـدْلاَنُ تَلْـعَبُ بالمحْـوَاك أنْمـلَهُ   عَلَى السَّـدَى لَعـبَ الأيَّـام بالأمـَل

مـا إنْ يَنـي تَعـبُ الأطْـرَاف مُشْتَـغلاً   أقْديـه مـنْ تَعـب الأطْـرَاف مُشْتَـغلُ

جـدْبًا بكَفـيّْه أوْ فَحْـصًا بأنْمُـله   تَخَبُّـطَ الظَّـبْي فيْ إشْـرَاك مُخْـتَبَل[2]

مُخْـتَبَل[2]

كما ارتبطت حرفة الرفي بالغزل، والتي كان يقوم بها الرفاؤون، فلا غرو أن كانت ثياب الرفي من اختصاص الأثرياء والمترفين الذين عمدوا إلى ارتداء الملابس المصنوعة من الفرا[3]، لذلك كانت تباع بأثمان باهظة وهو ما يبرز جودة وأناقة الملابس التي كان يرتديها هؤلاء، والتي تفننت فيها أيادي العمال، ولكن المصادر أغفلت ذكر دور تلك الشريحة في المجال الحرفي الصناعي وراحت تشيد بملابس الفرا التي كان يرتديها الخواص، دون الإشادة لتلك العناصر الفاعلة في النشاط الصناعي، ومن الذين اشتغلوا بحرفة الرفي محمد

1- الزهري، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

2- الرصافي، أبو عبد الله محمد بن غالب، ديوان الرصافي، جمعه وقدم له إحسان عباس، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت،1983، ص 117/ ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص101

3- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج1، ق2، ص556

بن غالب الرصافي البلنسي[1] (ت 572هـ/1176م)الذي كان يعالج هذه الحرفة بيده في دكانه بمالقة[2].

والغالب على ممارسي حرفة الغزل والنسج والخياطة، أن كان مزاولوها يحبون مهنتهم ومن ذلك ما أنشده أبي يحي بن هشام القرطبي[3] في أحد الخياطين الذين كان يحب مهنته قائلا:

من بحر البسيط

وَخَائطٌ رَائعٌ جَـمـــالاً ... وصَـــــالُهُ غَايَـــةُ اقْتـــــــــــــرَاحيْ

تَنْعمُ منـهُ الخُيُـــــوطُ فَتْلاً ... بَـــــــيْـــــنَ أقَــــاح وَبَــــيْـــنَ رَاح

ترَاهُ فيْ السّلْم ذَا طعَان ... بنَــــافـــــذَات بـــــلاَ جـــــــــــرَاح[4]

6-الحدادون والصفارون

أدى اشتهار الأندلس بالمواد المعدنية والحيوانية إلى ظهور الصناع بمختلف أسمائهم كالنجار والحداد والصباغ وغيرهم من الصناع الذين عملوا بكد من أجل توفير ما يحتاجه المجتمع من ضروريات، والظاهر أنه تزايد عدد الصناع بالأندلس الموحدية حتى أنهم أصبحوا يطلقون لفظ الصناع على كل من يعمل في الصناعة، فالمؤرخ السلفي (ت576هـ/1180م) يذكر في معجم تراجمه أنه "يقال لمن يعمل أغمدة السيوف والسكاكين الصناع"[5]، فهذا النص له دلالة على أنّ فئة من العامة قد اتخذت من الحديد صناعات عديدة تكسبا للمعيشة، فظهر الصفارون أو صانعي النحاس، وقد تميز عملهم بالشقاءخاصة وأنّ

1-يكنى أبا عبد الله، من رصافة بلنسية، سكن مالقة، كان يتعيش من صناعة الرفو، ويعتبر من أبرز شعراء العصر الموحدي، الضبي، المصدر السابق، ص102/ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 252/ ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص46

2-ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص94

3-كان كاتبا لأبي العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور(624-630هـ/1226-1232م) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص90

4-المصدر نفسه، ص92

5- السلفي، المصدر السابق، ص21

صاحبها يشتغل لفترة طويلة بإذابة النحاس بالنار. وفي حرفة الصفار يقول الشاعر محمد بن غالب الرصافي:

من بحر الطويل

تَعْلَـــــمُ صـفَارًا فَقُــــــلْتُ اسْتَعَــارَهَا غُدَاةً رَنَا منْ صَفْرَةَ العَاشق الصَّبُ

يَعُودُ النُّحَاسُ الاَحْمَرُ اللَّوْن عَسْــجَدًا بكَفَّيْه عنْدَ السَّبْك وَالمَــــدّ وَالضَّرْب

فحمرَتُهُ مُشْــــــتَقَّـة مـــنْ حَـــيَائه وَصُفْــرَتُهُ ممَّا يَخَـــافُ منَ العَـتَب[1]

ولهذا توجب على هؤلاء أن يتحلوا بالصبر على ظروف عملهم الصعبة للحصول على الأموال، ويرجح أن تكون لهم أجور عالية لما تتطلبه طبيعة عملهم من تركيز وطول مدة الانجاز أمام النار، حتى يتحصلوا على أنشطة تزيينية لتذويب المعدن وتحويله إلى أشياء جميلة تستعمل في تزيين ثريا المساجد بالفضة والنحاس،وترصيع المنابر بالمعادن ومواد الصندل والعاج[2].

واحترف آخرون مهنة الحدادة، خاصة وأنّ العديد من المناطق قد احتوت على معدن الحديد وقد مارس هؤلاء عملهم خارج أسوار المدن لما تسببه هذه الحرفة من إزعاج للسكان، وكان صاحبها يعرف بالحداد[3] أو القفال، ومن الذين امتهنوا الحدادة يوسف بن علي بن محمد القضاعي القفال[4](ت 542هـ/1147م) ومحمد بن الحارث الاشبيلي(ت605هـ/1208م) الحداد[5].

1- الرصافي، المصدر السابق، ص41/ ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص102

2-الطاهر بونابي، المقال السابق، ص182

3-السلفي، المصدر السابق، ص75

4-ابن الزبير، المصدر السابق، ص64/ الذهبي، المصدر السابق، ص415.

5-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص91/ الذهبي، المصدر السابق، ص102.

وبناءعلى ذلك يمكن القول بأنّ طبقة الحرفيين ضمت فئات اجتماعية عديدة كان همّها الوحيد هو الحصول على العيش، ولأنّ الحرف في حد ذاتها لم تكن في حقيقة الأمر سوى أمان من الفقر[1]، فضمت الفئات الدنيا بل ويمكن القول أنهم عاشوا حياة بسيطة.

ثالثا:الفاعلون في الفلاحة

1-الفلاحون

تعتبر حرفة الفلاحة من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان،وهي متقدمة عن الصناعة والتجارة لأنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان كما عرفها المؤرخ ابن خلدون[2]، وتقوم هذه الصناعة على القيام بحرث الأرض وزرعها وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه[3].

ولا يخفى علينا أنّ المصادر رصدت لنا مدى خصوبة الأراضي التي ساهمت في ازدهار الفلاحة وكثرة المنتوج وتنوعه[4]، وذلك بسبب اتساع الأراضي الخصبة، فأراضي لورقة كانت من المعاقل الخصبة بالأندلس[5]، كما كانت أراضي إقليم الشرف من أجود الأراضي الزراعية ومارس أهله حرفة الفلاحة[6]، وهذا فضلا على توفر المياه الصالحة للسقي من أنهار وعيون، إذ يروي أحد المؤرخين أنّ الأندلس احتوت على أربعين نهرا كبيرا[7].

1-عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الخامسة،1987، ص67

2-ابن خلدون، المصدر السابق، ص450

3-المصدر نفسه، الصفحة نفسها

4-ابن غالب الغرناطي، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها، تحقيق عبد البديع لطفي، نشر مجلة معهد المخطوطات العربية، مصر، 1956، ص26/ ابن الشباط المصري التوزري، قطعة من وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السمط وسمة المرط، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1967-1968، ص151

5-الحميري، المصدر السابق، ص172

6-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص190

7-مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، تحقيق وترجمة لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ج1، طبعة1983، ص11

وقد أدرك الحكام الموحدون مدى أهمية الثروة المائية، فاهتموا بمرافقها لإحكام السيطرة عليها، وبذلوا عناية فائقة لضبط مياه الأنهار والعمل على حسن استغلالها وتوزيعها وتصريفها، وكان التحكم في هذه المياه عن طريق استنباطها من باطن الأرض، وجلبها من أماكن توفرها إلى مناطق الزراعة[1].

ومن هنا يبدو واضحا أنّ الزراعة في الأندلس قد اعتمدت اعتمادا كليا على مياه الأنهار، ومن ثمّ أدرك الحكام أهمية الثروة المائية، فبذلوا عنايتهم لضبط مياه الأنهار والعمل على حسن توزيعها وتصريفها، إذ عمل يوسف بن عبد المؤمن على جر المياه إلى اشبيلية[2]، وشق قنوات صغيرة من الأنهار لسقي الحدائق والبساتين[3]، وبنيت القناطر على كثير من أفواه القنوات لتنظيم توزيع الماء وتسهيل عملية السقي، وفي هذه النصوص ما يغنينا عن التكرار حول التجهيزات المائية والقنوات التي شقها الموحدون التي عادت بالفائدة على تخصيب تربة السهول الممتدة على ضفافها، لذلك عدت أراضي شنترين"من أكرم الأرضيين، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر، فتزدرع أهلها على ثراه عند انقطاع الزريعة في البلاد وذهاب أوانها"[4]، فضلا على توفر الحيوانات التي استعملت في قلب الأرض وحرثها[5].

ولكن الملاحظة المسجلة هو رغم وجود شبكة مائية هائلة، إلاّ أنها لم تستطع سد حاجيات الفلاحين في عملية السقي، الذين كانوا في بعض الأحيان يعتمدون على أمطار الشتاء في سقي المحاصيل، والتي لم تعد كافية خاصة في أيام القحط والجفاف، وما خروج الناس للاستسقاء والتوسل إلى الله بنزول الأمطار إلاّ دليل على ذلك، ولتفادي ضياع المحاصيل المزروعة نظرا لنذرة المياه لجأ الفلاح إلى تقنيات أخرى للري غير الطرق المعتمدة عليها في الحالة العادية، ولعلّ طريقة الرّي بالتنقيط من التقنيات العالية الكفاءة، والتي تتركز أساسا هذه الطريقة على إمداد النباتات بحاجاتها من الماء وكذلك الغذاء، وذلك

1–عز الدين موسى، المرجع السابق، ص181

2- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص377.

3-سعيد بن حمادة، أثر التقاويم الفلاحية في تطوير البستنة بالأندلس والمغرب خلال العصر الوسيط، مجلة عصور الجديدة، وهران، العدد 14-15،2014، ص109-110.

4-الحميري، المصدر السابق، ص172

5-النباهي، المصدر السابق، ص127

من خلال فتحات صغيرة توجد قريبة من النبات وذلك بمعدلات سريان بطيئة ومتكررة بحيث تحصل الجذور النامية على حاجاتها المائية والغذائية بشكل جيد وملائم[1].

وإذا كانت المصادر التاريخية خاصة منها كتب الجغرافية تفيض بمعلومات عن حرفة الفلاحة وما صاحبها من ظواهر اقتصادية، إلاّ أنه للأسف لا تميط اللثام عن وضعية الفلاحين الممارسين لهذه الحرفة، وجاءت المعلومات عن هؤلاء هزيلة وأخبارهم شحيحة جدا ومبعثرة، ورغم ذلك استطعت استنباط بعض المعلومات عن هذه الشريحة.

عاش الفلاحون في البوادي يعملون على حرث الأرض والحفاظ على خصوبتها باستعمال آليات لعلاجها[2]، وبفضلات الحيوانات، أو الزبول التي كان لها دور كبير في عملية تخصيب التربة لتقديم منتوج وفير[3]، هذا بالإضافة إلى عملية البذر والحصد، وقد كانت حياتهم شاقة وصعبة في استغلال الأرض، فتراهم في الحقول بثيابهم البسيطة وجسمهم المغبر بالتراب يمارسون عملهم تكسبا للرزق .

وبالرغم من السياسة التي تبنتها الدولة في تخفيف أعباء الضرائب على الفلاحين وقطع القبالات[4]، وبذلهم لجهود كبيرة في تحسين طريقة الجباية وضبطها بمراقبة العمال وعدم إثقال كاهل الزراع[5]، إلّا أن بعض الفلاحين عانوا قسوة المعاملة من قابضي الخراج، و بلغ تعسفهم بهؤلاء أنفرضوا على أحد الفلاحين أعشارا لا يحتملها بقول أحد المؤرخين: " وقد

1-ابن بصال، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الطليطلي، كتاب الفلاحة، نشر وتعليق خوسي ماريا مياسبيكروسا، ومحمد عزيمان، مطبعة كريماديس، تطوان، 1955، ص213/ ينظر تفاصيل طرق الري بالأندلس عند تواتية بودالية، مقال الحرفيون والبيئة بالغرب الإسلامي، الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي، ضمن كتاب، مقاربات لأثر المجال والدهنيات على الإنتاج، تنسيق سعيد بنحمادة ومحمد بركة، تقديم عبد الإله بن مليح، منشورات الزمن، المملكة المغربية، العدد 76، 2016، ص227

2-إبراهيم القادري بوتشيش، عبد الهادي بياض، التربة أفاتها، تقنيات علاجها وتدبير استغلالها في ضوء الأدبيات الأندلسية، بحث ضمن كتاب الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة الملك عبد العزيز سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، طبعة 2011، ص222

3-ابن ليون التجيبي، اختصارات من كتاب الفلاحة، دراسة وتحقيق احمد الطاهري، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2001، ص84

4- الحميري، المصدر السابق، ص541

5- عز الدين موسى، المرجع السابق، ص177

جاءه غلام يشتكي بأن العمال كتبوا عليه أعشارا لا يحتملها، أن زرعه دون ما قدّروا، وبكى"[1].

وفي المنحى ذاته عرف سكان قرية شلب، ظلم صاحب الخراج، حتى تزعمت إحدى شاعرات هذه القرية تدعى الشلبية[2]،حملة على الولاة وأرباب الوظائف المالية وكتبت إلى الحاكم يعقوب المنصور في صلاة يوم الجمعة تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجه وما حل بأهل بلدتها من صنوف الظلم على أيدي عمال الدولة الموحدية وما أصابهم من بلاء بسبب تعسفهم فعبرت عن ذلك قائلة:

من بحر السريع

قَدْ آنَ أَنْ تَبْـكي العُيُـــــونُ الآبيَةْ	وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الحجَارَةَ بَـــاكيَةْ
يَا قَاصدًا المصْرَ الَّذي يُرْجَى به	أَنْ قَدَرَ الرَّحْمَنُ رَفْعَ كَرَاهيــَة
نَـادَ الأَميرُ إذَا وَقَــفتَ بــبَابـــه	يا رَاعيًا إنَّ الرَّعـيَّـة فَــانيـــَةْ
أَرْسلْتَهَا هُــمَـلاً وَلاَ مَـرْعَـى لَهَا	وَتَـــرَكْتَهَا نَهَبُ السّـــبَاع العَاديَة
شَلْـــبٌ كلاً شَلَبٌ وَكَانَــتْ جـنَّةٌ	فَأَعَادَهَا الطَّاغُونَ نَارًا حَـــاميَةْ
خَاْفوْا وَمَاخَافُوْا عُقُوبَة رَبّـــهُمُ	وَالله لاَ تَخْـفَى عَلَيْــه خَـــافيَةْ[3]

لقد صورت الشلبية حال مدينتها من البؤس والظلم الذي لحق بها على يد الوالي، وذلك بسبب إهمال الخلافة الموحدية لشؤونها، فصورت هذه الأبيات مأساة سكان شلب جراء تسلط الوالي وإهمال الحاكم للرعية.

وفي نفس السياق"شكا ابن أبي العباس على صاحبه إلى المشرف على مالقة ظلم قابض الخراج والمكّاس، وهذان الآمران كانا من بين المفاسد التي رآها الخليفة عبد المؤمن من الكبائر، وتوعد فاعلها بمحو أثره"[4].

1-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص245
2- لم أقف على ترجمة وافية لها.
3– المقري، المصدر السابق، ج4، ص294
4- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص224

والملاحظة المسجلة من خلال هذه النصوص أنّ صاحب الخراج هو من كان يفرض الضرائب الباهضة على الفلاحين، ولهذا رفع المتضررون من الضرائب الشكاوى ضد صاحب الخراج، إلاّ أنّ الأعمال الظالمة التي تعرض لها الفلاحون من ارتفاع الضرائب وتظلم صاحب الخراج لم تكن لوحدها سببا في تدني مستوى معيشة الفلاحين، فقد كان للكوارث الطبيعية أثر كبير في تخريب المحاصيل الزراعية، إذ يشير "ابن صاحب الصلاة" إلى أن الأوضاع تفاقمت على الفلاحين بحدوث الجفاف الذي امتد إلى أواخر عام 565هـ/1170م[1]، حتى أنّ "أهل بطليوس عانوا من عدم القوت"[2]، هذا فضلا عن حدوث السيول الجارفةالتي شكلت خطرا على المزروعات خاصة في المناطق المنحدرة، حيث تجرف القشرة الغنية للتربة وقد تقلع غطاءها النباتي وتأتي على زرعها وضرعها وجميع عمرانها وذلك ما حدث في سنة 626هـ/ 1228م، عندما حدث السيل العظيم في اشبيلية[3].

ولا سبيل إلى الشك في أنّ اعتداءات النصارى المتكررة على المدن الأندلسية كانت تصيب على الخصوص الأراضي الزراعية، خاصة وأن الجيوش كانت تقع على الأماكن الفلاحية الطيبة فتحدث خسائر بالفلاحين ومنتجوهم الزراعي جراء عمليات الحرق[4]، وهو ما وقع على أراضي رندة سنة 578هـ/1182م"حينما أقبل العدو على حرق زرعها وسبي نسائها ورجالها حتى اجتمع عندهم من المغنم من كل قطر وجهة ما لا يحيط به الوصف"[5] على حد وصف"ابن عذاري".

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أنّ الفلاحين لم تكن مهامهم تنحصر في زراعة الأرض فحسب، بل منهم من اتخذ حرفة أخرى تتمثل في الاستفادة من النباتات وأشجار الطبيعة

1- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص397
2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص126
3-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص274/عبد العالي أحمتي، التغذية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، قضايا ونماذج، رسالة دكتوراه، الرباط،2002، ص51
4-ابن عذاري، المصدر السابق، ص134
5-المصدر نفسه، ص146

وجعلوها موردا للارتزاق، يبيعونها في الأسواق ويقتاتون بأثمانها، فإنتشر النباتون[1]، والشجارون[2]، والحطابون[3].

ويمكن القول أنه رغم المجهودات التي قامت بها الدولة الموحدية من أجل إنعاش القطاع الزراعي وتحفيز الفلاحين على خدمة الأرض، إلّا أن هؤلاء الفلاحين عاشوا واقعا اجتماعيا صعبا، بين ضغط صاحب الخراج وتظلمه على أصحاب الأراضي، وأثر الجوائح الطبيعية في إتلاف محاصيلهم الزراعية.

2-الرعاة

عرفت الأندلس نشاطا رعويا، وانتشر بانتشار المراعي وخصوبتها، مما أدى إلى زيادة الثروة الحيوانية، وقد اشتهرت قبائل عبد المؤمن الكومية بالرعي وتربية المواشي[4]، وذلك نظرا لتوفر المقومات الطبيعية من مناخ ملائم وفرة المراعي لهذا النوع من النشاط، مما جعل أهلها يركزون على هذه الحرفة ويعتبرونها مصدر عيشهم؛ غير أن المعلومات حول الرعاة ودورهم في النشاط الاقتصادي ضئيلة جدا بسبب إهمال الكتابة التاريخية لهذا الصنف من الفئات الاجتماعية[5]، والعديد من الفئات الأخرى التي كان لها دور فعّال في الاقتصاد الموحدي، فشح المادة التاريخية أدى إلى طمس وإهمال العديد من الفئات الفاعلة التي قدمت خدمات كبيرة للمجتمع.

يخبرنا "ابن عذاري" عن وفرة الثروة الحيوانية وتنوعها حتى أنها شدّت انتباه عند ذكر هل مدينة اشبيلية، والتي كان أهلها رعاة غنم، وقدر ثروتها الحيوانية" بنحو خمسين ألفا

1- أبو الخيرالاشبيلي، المصدر السابق، ج1، ص363
2-المصدر نفسه، ج1،ص218-232-320-339-357
3- التادلي، المصدر السابق، ص238
4-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص245
5-فاطمة بلهواري، النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، دورية كان التاريخية، العدد الثامن،2010، ص29

من الغنم وأعدادا ضخمة من البقر"[1]، وأكّد "الزهري" أنه وجد في فحص شنقير بمرسية أغناما كثيرة"[2].

ومما يبرز نشاط حرفة الرعي وازدهارها هو إحصاء ما وزعه " يعقوب المنصور" على الفقراء في عيد الأضحى من سنة 594هـ/1197م والتي قدرت بـــــ" ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز"[3]، ويستخلص من ذلك أن الأندلس عرفت ثروة حيوانية هائلة نظرا لتشجيع هذه الحرفة، حتى أنّ بعض العائلات استطاعت اكتساب ثروة طائلة بفضل ممارستها للرعي؛ فكانت تدر على أصحابها أموالا كثيرة، وهذا ما جعل أحد أفراد أسرة النباهي ا لما لقي تمتلك ماشية كثيرة[4].

بالمقابل كان الرعي مصدر رزق العديد من العوام[5]، بل منهم من كان مقتصرا في عيشه على بغلة كانت بيده ورثها من أبيه[6]، أما شعيب بن الحسين الأنصاري[7] (ت 594هـ/1197م)، فقد مارس حرفة الرعي وهو صغير السن، وذلك عند وفاة والده "كلفه إخوته رعي مواشيهم لأنه أصغرهم سنا، فكان يخرج إلى المرعى"[8]

ويبدو أن الرعاة كانوا يعيشون مستوى معيشي متواضع، وقد نوّهت إحدى الباحثات أنّ الغالب على أصحاب حرفة الرعي كان الفقر[9]، وعليه يمكن القول بأنّ حرفة الرعي احترفها ميسوري الحال لزيادة ثروتهم، أما العوام فمارسوها لتحصيل قوتهم.

ولا تعوزنا القرائن التي تفصح عن الواقع الذي كان يعيشه الرعاة بسبب ما كانت تتعرض لهم ثروتهم الحيوانية من عمليات السبي جراء اعتداءات النصارى المتكررة على جهات الأندلس، والتي لا تكون إلّا من الماشية والأغنام، ويفيدنا في هذا الشأن المؤرخ "ابن

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص202
2-الزهري، المصدر السابق، ص100
3-المقري، المصدر السابق، ج3، ص104
4-النباهي، المصدر السابق، ص127
5-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص154
6-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص218
7-يكنى أبا مدين، أصله من أحواز اشبيلية، كان زاهدا في الدنيا خرج من العدوة الأندلسية بعد أن ترك رعي الماشية قاصدا العدوة المغربية لطلب العلم، ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج2، ص530
8-ا ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج2، ص530
9-نوال بلمداني، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين(4-5هـ/10-11م) رسالة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة وهران، 2013، ص202

عذاري"بنص مهم عن هجمات النصارى على مدينة اشبيلية قائلا:"...ووصلوا إلى قرى الوادي واكتسحوا ما اتصل بتلك البوادي، وأسرع الرعاة إلى اشبيلية يستصرخون بالغوت "[1]، بل لا يغنمون إلّا أعدادا كبيرة حتى من منطقة صغيرة مثل استجة حيث غنموا خمسين ألفا من الغنم وألفين من البقر في مرة واحدة[2]، ووردت نازلة عند القاضي عياض وولده محمد مفادها أن"رجلا غاب عنه بقره عندما ضرب عليه العدو وادعى بهم على أهل القرية "[3]، وبهذا فقد تضرر الرعاة كثيرا بسبب تحرشات الجيوش النصرانية عليهم وجمعهم لغنائمهم، والتي كانت تشمل الماشية والأبقار، وعليه يمكن القول بأنّ التطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها الأندلس تحكمت في السيطرة على مناطق وثروات المسلمين، فكانت الحروب والفتن قد بلغت حدا أهلك الزرع والحرث والنسل[4].

ورغم المشاكل التي كان يتلقاها الرعاة إلاّ أنهم مارسوا الرعي، وعملوا على تربية الحيوانات من أغنام وأبقار وبغال وحمير وخيول وجمال واستفادوا منها، فقد كانت الحيوانات ثروة مسخرة ينتفع بها في العديد من الصناعات لقوله تعالى:{**وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوْتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُيُوْتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعْنِكُمْ وَيَومَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوبَارِهَا وأشعارها أَثَاثاً وَمَتاعَاً إِلىَ حِيْنٍ**}[5]، وناهيك عن أكل لحومها والاستفادة من ألبانها وصوفها، استخدمت هذه الحيوانات في التنقل وحمل الأثقال خاصة البغال [6] مصداقا لقوله تعالى: {**اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً في صُدُوْرِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىَ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * ويُرِيْكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ**}[7].

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص202
2-عزالدين موسى، المرجع السابق، ص198
3-القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق، ص67.
4-نوال بلمداني، المرجع السابق، ص150
5-الآية 80 من سورة النحل.
6- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق2، ص666
7- الآيتين 79-81 من سورة غافر.

كما وظّفت هذه الحيوانات النفعية في فلاحة الأرض وقلبها[1]، أمّا الخيول فكانت ضخمة الأجسام استعملت في القتال، وحمل الدروع وثقال السلاح[2]، وبالتالي فان العوام اعتنوا بتربية الحيوانات، وانتفعوا بخيراتها[3]، علاوة على استعمال بعضها في حرث الأرض أو القتال، وكانت بالنسبة للكثيرين مصدرا مهما للارتزاق.

ونافلة القول أنّ حرفتي الرعي والفلاحة شكلت أحد الدعائم الأساسية في الاقتصاد الموحدي، فضلا عما قدمه الفلاحون والرعاة من خدمات للمجتمع، وزوّدوا الأسواق بما تحتاجه من مواد استهلاكية ضرورية، وفي نفس الوقت كانت هاتين الحرفتين أساسا لقيام الكثير من الحرف تحرفتها طبقة عريضة من العوام لتكسب المعيشة.

رابعا: العاملون في التجارة

تعطينا المصادر التاريخية أثناء رصدها لبعض التراجم التي احترفت حرفة معينة صورة لذلك النشاط الاقتصادي الذي كانت تمارسه العامة بمختلف شرائحها،في الأسواق التي اعتبرت المجال الواسع لتجمعات الحرفيين والتجار، والباعة، والدلالين، والحمالين والسماسرة، وغيرهم من مختلف الأصناف والأجناس، الذين كان وجودهم ضروري في المجتمع، لما قاموا به من دور أساسي في الحياة الاقتصادية في الأندلس.

لقد أفضى اتساع نشاط الأسواق إلى ظهور فئة صغار التجار الذين احترفوا التجارة و كانوا يزاولون نشاطهم في دكاكينهم المنتشرة في الأسواق لبيع مواد ضرورية لحياة الناس اليومية، فقد كان علي بن هشام بن حجاج الشريشي(ت 616هـ/1219م) يعيش من تجارة يديرها في الصابون[4]، كما نشطت دكاكين التجار التي كانت تمول الأسواق بمختلف السلع، إذ إذ يفيدنا" ابن عبد الملك المراكشي أنّ محمد بن عبد الكريم بن يوسف الغرناطي (ت 558هـ/1162م) كان يتجر في سلع العطر[5]، وهنا لا تفيدنا المصادر بوضعية هؤلاء التجار

1-النباهي، المصدر السابق، ص127
2-المقري، المصدر السابق، ج1، ص199
3-راغب السرجاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى،2009، ص130.
4- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص419
5-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س6، ص395

واكتفت بذكر بعض التراجم التي زاولت مهنة التجارة من دون تفاصيل، وهنا يذكر "ابن الأبار" أنّ محمد بن إبراهيم بن عيسى الأنصاري (ت 606هـ/1209م) تحرف بالتجارة[1]، وهي نفس العبارة التي يرددها "المقري" في ترجمته للتاجر أبي عبد الله محمد بن علي التجيبي (ت653هـ/1255م) الذي كان محترفا بالتجارة في غرناطة[2].

كما اعتبر اليهود من أهم العناصر الفاعلة في الحركة التجارية، فتمكنوا من ممارسة عدة أنشطة باعتبارهم من العناصر المكونة لفئات المجتمع أهمها التجارة التي برزوا فيها بقوة، خاصة منها تجارة العبيد، وتجارة أسرى الحروب[3]، وقد كنا قد أشرنا إلى ذلك سابقا.

وربما يكون هؤلاء التجار قد تمتعوا بمستوى معيشي طيب مقارنة ببعض الحرفيين، فكانوا يتصدقون على الفقراء، وحسبنا دليلا أنّ التاجر محمد بن عبد الله الأنصاري(598هـ/1201م)كان "يتعيش من تجارة يديرها ويصرف أكثر من ربعها في الصدقات وفكّ الأسرى وشبه ذلك من وجوه الخير"[4].

1-الباعة في الأسواق

جسّدت الأسواق الحياة الاقتصادية للمجتمع الأندلسي خلال العصر الموحدي، باعتبارها مرآة الحياة الاقتصادية وعنوان النشاط التجاري والصناعي بل والاجتماعي ، فكانت بمثابة حلقة وصل في النشاط الاقتصادي بين المنتجين والمستهلكين وقد كانت أكثر تنظيما، ويرجع الفضل في ذلك إلى جهود الدولة التي حرصت على تنظيمها عندما أوكلت مهمة ذلك إلى الأمناء، و ذلك بتصنيفها حسب المهن مما جعل تنظيمها أمرا ميسورا، فعهد الحاكم يعقوب المنصورعرفت الأسواق تنظيما محكما عندما أبدى هذا الحاكم عناية خاصة بالأسواق والمحتسبين و"أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم"[5].

1-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص133

2-المقري، المصدر السابق، ج2، ص.58

3- الضبي، المصدر السابق، ص45-46.

4-ابن الأبار، المصدر السابق، ص282

5–عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص175

والغالب على الأسواق الأندلسية أنها كانت متخصصة في نوع معين من البضائع مثل أسواق المواد الغذائية، وأسواق الملابس وغيرها، فكان لكل نوع من السلع سوق تجمع فيه الحوانيت التي تبيع البضائع، ويقصد الناس هذه الأسواق للحصول على كل مايلزمهم حتى أنه خصص في كل ربض أسواق متنوعة حتى لا يحتاج أهله إلى غيره[1].

وقد أشارت المصادر التاريخية عن وجود العديد من الأسواق اليومية والأسبوعية[2]، والتي كانت تتواجد في المدن وفي القرى بصفة دائمة وقد كانت عامرة[3]، ومن مظاهر تنظيم الأسواق جعل الدكاكين صفا متصلا ويقابله مثله ويفصل بينهما ممر معقود السقف، وفي المساء تضاء المصابيح، وبعد انتهاء السوق لا يبقى إلّا الحرس[4]، ولهذا حظيت الأسواق وحوانيت التجار بحماية خاصة، عندما عينت الدولة حرسا خاصا مكلفين بالسهر عليها.

وتطلبت الحركة التجارية بالأسواق نقل البضائع والسلع من مكان لآخر، ولتنظيم هذه الحركة وجد الحمالون[5] الذين يقومون بنقل البضائع والأغراض إلى أصحاب المحلات أو إلى الناس، فضلا عن وجود الدلالين الذين يتجولون في الشوارع أو الأسواق لعرض سلعهم[6]، والسماسرة الذين اهتم"القاضي عياض" في نوازله بمسائل تضمينهم، بسبب ما كان كان يقع من خلاف بينهم وبين التجار، إذ سئل "عما جرى عليه العمل بقرطبة في تضمين السماسرة لما أخذوه من الثياب للبيع فدّعوا تلفه، وهل حكمهم في ذلك مع أرباب السلع الذين دفعوا إليهم للبيع ومع التجار في الطلائب التي يطلبونها أم لا؟

1- مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص32
2-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص220 / المقري، المصدر السابق، ج1، ص159/ الحميري، المصدر السابق، ص342
3-المقري، المصدر نفسه، ج1، ص159.
4-عباس يحي أبو المعاطي محمد، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس(238-488هـ/852-1095م)دراسة تاريخية مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة،2000، ص520
5-ابن زهر، المصدر السابق، ص127
6-القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق، ص162

فأجاب "والذي كنت أفتي به في ذلك على طريق الاستحسان مراعاة للاختلاف ألا يصدقوا في دعوى التلف إلا أن يكنوا مأمونين معلومين بالثقة وأنّ الأصل فيهم لا ضمان عليهم لأنهم أجراء مؤتمنون"[1].

وما يوضح بأنّ السماسرة في العصر الموحدي لم يكن لديهم ضمان لأنهم أمناء، هو تعقيب ابنها القاضي "محمد بن عياض" على النازلة التي أجاب عنها والده ومقارنتها بعصره عن قضية تضمين السمسار عندما قال:"المعلوم المشهور عندنا في السماسرة والمأمورين والوكلاء أن لا ضمان عليهم لأنهم أمناء وليسوا صناع كانوا بحوانيت أم لا".[2]

ومن ثمّ تفرع الباعة في الأسواق إلى:

أ-الباعةالثابثون

كان هؤلاء الباعة يشكلون أصنافا مختلفة من البائعين باختلاف السلع التي كانوا يبيعونها في دكاكينهم التي وجدت بالأسواق، والتي احتوت على دكاكين كثيرة تجمع صنائع متنوعة[3]، وهذا حسب نوعية البضائع المعروضة، فنذكر على سبيل المثال لا الحصر دكاكين العطارين، والكتانين[4]، والجزارين[5]، إضافة إلى دكاكين الخياطين وبائعي الثياب والملابس، والملابس، والتي لم تخل أي مدينة أندلسية منها[6]، فضلا عن وجود سوق الصاغة باشبيلية[7]، باشبيلية[7]، والذي كان بدوره يضم عدة دكاكين.

كما انتشر باعة اللحوم أو الجزارين في الأسواق، وقد خصصت لهم دكاكين صغيرة كانت تباع فيها مختلف أنواع اللحوم التي كان يجلبها لهم الذباحون كل صبيحة[8]، ومن الذين

1- القاضي عياض وولده محمد، المصدر السابق ، ص163
2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص38
4-ابن القطان، المصدر السابق، ص222
5- ليوبولدوطريس بالباس، المرجع السابق، ص485-501
6-المرجع نفسه، ص484
7-المقري، المصدر السابق، ج4، ص297.
8-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع نفسه، ص485

امتهنوا الجزارة أبو عبد الله بن الخطاب المرسي(ت580هـ/1184م)[1]، الذي امتهن الجزارة في دكانه.

وقد خضعت عملية بيع اللحوم إلى مراقبة المحتسب لقمع الغش، الذي اشترط أن تكون على اللحم ورقة بسعره، وإن خالف ذلك فإنه يتعرض لعقوبات قاسية بقول "ابن سعيد":" ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدّ له المحتسب في الورقة، ولا يكاد تخفى خيانته، فإنّ المحتسب يدسّ عليه صبيا أو جارية يبتاع أحدهما منه، ثم يختبر الوزن المحتسب، فإن وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس، فلا تسأل عما يلق، وإن كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الأسواق نفي من البلد"[2].

كما خصصت دكاكين لبيع المواد الغذائية خاصة الفواكه، وقد أشار المؤرخون إلى أنواع الفواكه التي كانت تباع في تلك الدكاكين؛ فالمؤرخ "ابن سعيد"يشير إلى "التين الأسود اللون شديد الحلاوة واللوز وغيرها من الفواكه والتي كانت تحمل إلى بقية الأقطار"[3]، و أكّد العمري على "التين الذي لا يكاد يخلو أي دكان من بيعه"[4]، وهذا ما يبين انتشار الباعة الثابتين في دكاكينهم والتي كانوا يبيعون فيها الفواكه، فضلا عن وجود نص نقله "المقري" عن أحد الرحالة الذي رأى" العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير"[5]، ناهيك عن محلات بيع الحلوى في الأسواق، خاصة وأن الأندلس اشتهرت بصناعة الحلوى وعرفت منها الأنواع الكثيرة[6]، كما قامت في الأندلس أسواق خاصة لبيع الدواب[7]، منها سوق

1-ابن دحية الكلبي، المصدر السابق، ص81
2-نقلا عن ابن سعيد، المقري، لمصدر السابق، ج1، ص.218
3-ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص140/ ابن غازي، أبو عبد الله محمد العثماني المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، الرباط،1988، ص11
4-العمري، المصدر السابق، ص234
5-نقلا عن ابن سعيد، المقري، المصدر السابق، ج1، ص152
6-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1، ق2، ص565/ المقري، المصدر نفسه، ج4، ص63
7-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص347

سوق الخيل[1]، ووجد بشاطبة رحبة لبيع التحف الفخارية[2]، كما أفردت أسواق لبيع الرقيق والجواري[3]، وسوق للقيان "[4]، وسوق الخفاقين وهم بائعي الأخفاف في الدكاكين[5].

ب ـ الباعة المتجولون

كان الباعة المتجولون يطوفون في الأسواق أو في الشوارع ينادون على سلعهم المعروضة للبيع، وعادة ما كانت هذه السلع تتشكل من الأطعمة والأغذية والتي يقومون بعرضها أمام المارين مستعملين أسلوب المناداة، فيخرج إليهم من يريد الشراء ومن هؤلاء باعة السمك الذين اتخذوا مكانا مخصصا لهم ينادون على بضاعتهم في الأسواق[6]، وقد انتشر باعة السمك كثيرا في اشبيلية باعتبارها من المدن الساحلية التي عرفت أنواعا لا تحصى من السمك[7]، فكان الغذاء التكميلي لأهلها[8]، وحرصا من بائع السمك على نظافة السوق؛ فقد كان يعين مكانا خاصا يتعاطى فيه مهنته، لأنّ اختلاطه بباقي المحلات قد يسبب إزعاجا وضررا للمارة ولباقي التجار[9]، ثم يبدأ بالمناداة على سلعته، فقد شاهد"ابن سعيد " أحد الباعة المتجولين وهو أبو عبد الله محمد بن الدمن[10] "ينادي في الأسواق حتى أنه تعيّش ببيع السمك"[11].

وقد أدى انتشار الأسواق ونشاط الحركة التجارية إلى ظهور البائعين المتجولين الذين كانوا ينادون بسلعتهم ليتمكنوا من بيعها وتحصيل قوتهم اليومي، فقد كان أحد أصدقاء الحفيد أبي بكر بن زهر(ت595هـ/1198م)يبيع الزيتون في الأسواق ويسدّد بثمنه ديونه[12]، أمّا

1-ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص149
2-سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص351
3-" مشى صالح بن يزيد بن صالح بن موسى النفزي (ت 648هـ/1248م) من أهل رندة إلى سوق الرقيق فرأى جارية عسجدية اللون"، ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص 287
4-ابن عذاري، المصدر السابق، ص450
5- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص38
6- ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص338
7- المقري، المصدر السابق، ج1، ص208
8- طاهر قدوري، السمك والتغذية بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد10،2014 ، ص46-50
9-المقال نفسه،ص47
10-لم أقف على ترجمته.
11-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص302
12-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص479

علي بن أحمد بن علي بن فتح الشريشي (ت 583هـ/1187م)فقد كان يحمل الخبز يوميا إلى السوق لبيعه تكسبا للعيش[1].

لقد كان الباعة المتجولون يأتون صباحا إلى الأسواق لبيع منتجاتهم، والظاهر أنّ أغلب هؤلاء الباعة كانوا من البوادي أي فلاحين يأتون من المناطق المجاورة إلى الأسواق لبيع محاصيلهم الزراعية، حاملين ما تنتجه البادية من فواكه وخضر وغيرها من الأطعمة وحتى الحيوانات، فيشتريها التجار أو الباعة الذين يملكون محلات خاصة بهم من الباعة المتجولين ليعيدوا بيعها في دكاكينهم[2].

ولم تكن الشوارع والطرقات تخلو من باعة الأطعمة المتجولين الذين كانوا يقومون بطبخ المأكولات في منازلهم، ويخرجون باكرا إلى السوق أو إلى الطرقات التي كانت تعج بالمسافرين لعرض المأكولات، فيقدمون خدماتهم لزبائنهم المسافرين الذين وجدوا كل أنواع الأطعمة معروضة، إضافة إلى الحوانيت لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة"[3]، وهو ما أشار إليه الرحالة "الإدريسي" في رحلته " أن الخبز والفواكه والسمك كانت تباع للمسافرين"[4].

ويمكن القول أنّ الباعة المتجولين اتخذوا من الشوارع أو الأسواق أو حتى الطرقات النائية التي يمر منها المسافرون مكانا لترويج مختلف مبيعاتهم، معتمدين على أسلوب المناداة لجذب انتباه الناس حتى يتمكنوا من تحصيل قوتهم.

خامسا:الفاعلون في الحركة الثقافية

1-المعلمون

يعتبر المعلم عنصرا فعالا في المجتمع، فهو يحمل رسالة سامية تنعكس على المجتمع بالرقي والازدهار، وتتمثل مهمته في تربية النشء وتثقيفه وصقل مواهبه، فهو الفاعل الحقيقي لكل نهضة ثقافية، ولأي تقدم في المجتمعات الإنسانية.

1- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص170
2-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص486
3- المقري، المصدر السابق، ج1، ص226
4-الادريسي، المصدر السابق، ص201

عرف العهد الموحدي نهضة الحياة الثقافية فانتشرت مجالس التعليم بالمدن والقرى بواسطة الكتاتيب والزوايا والمساجد، وحث الموحدون منذ بداية دعوتهم على ضرورة تعليم القرآن عن طريق المعلمين وجاء ذلك في رسالة وجهها عبد المؤمن بن علي إلى "أتباعه في مختلف الولايات بضرورة تعليم القرآن وتحفيظه لجميع الناس"[1].

ومن تمّ اتخذ المعلمون والمؤدبون في الأندلس أماكن متعددة لتعليم الصبيان، وقد بينت كتب التراجم على امتهان العديد من الناس مهنة التعليم مما أدى إلى انتشار أماكن تحصيل العلوم، منها الكتاتيب أو الكتاب[2]والتي كان يتعلم فيها الصبية أولى مراحل التعليم والمتمثلة في مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم[3].

ويبدو أنّ وضعية هذه الكتاتيب كانت بسيطة بحيث لا تعدو أن تكون حانوتا يكتريه المعلم[4] ويعيش من مدخوله، أو اقتطاع من المسجد حانوتا للتعليم وهو ما يستشف من النازلة الواردة على "ابن بشتغير":" عندما أقبل رجل على اقتطاع من الجامع حانوتا وجعل يؤدب فيه أطفال العامة بالأجرة"[5]، ويضيف "ابن الأبار "أنّ"منهم من كان يعلم بداره"[6].

أما المسجد فقد كان المكان المخصص للدراسة وقراءة القرآن[7]، وقد زاول فيه طلبة العلم دراستهم مقابل أجر يدفعونه لمعلمهم، وقد نفى "ابن سعيد" أن يكون للأندلسيين مدارس يتعلمون فيها حينما قال:" فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرؤون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جاريا، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم"[8].

1-رسائل موحدية، مجموعة ليفي بوفنسال، ص131/ يوسف علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مطبوعات الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى،1995، ص230.

2-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص77/ صفية الديب، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر،2002، ص137-2.138

3- ابن الأبار، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4- المصدر نفسه، ص286.

5- ابن بشتغير، المصدر السابق، ص202

6- ابن الأبار، المصدر السابق، ص275

7- كان محمد بن محمد بن عبد العزيز يقرئ القرآن بالمسجد في بلنسية، المصدر نفسه، ص65

8- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص221،

وفي المرحلة الأولى من التعليم كان الصغار يتعلمون في الكتاتيب القرآن الكريم الذي هو في الأصل أساس التعليم وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام[1]، ثمّ يتوجهون لتعلم العربية وتجويد الخط والتلاوة[2].

ومن دون شك فقد كان الخواص وميسوري الحال يجلبون لأبنائهم أحسن المؤدبين لتعليم أبنائهم في منازلهم، وفي هذا الصدد يورد لنا "ابن الأبار" تراجم لبعض المؤدبين منهم محمد بن عبد الرحمن بن احمد[3] (ت633هـ/1235م) الذي إستأدبه بعض الأكابر لبنيه[4]، وأحمد بن عبد الله بن محمد[5](ت618هـ/1221م)الذي استأدبه بعض الأمراء لبنيه فأقرأهم القرآن والعربية[6].

أما المعلم فكان يقوم بتعليم أبناء العوام مقابل أجرة[7]، في مختلف الأماكن التي خصصت للتعليم والتي انتشرت بربوع البلاد، ولهذا اصطلحت العامة على تعظيم المؤدب ومخاطبته بالأستاذ، بقول "ابن دحية":" اصطلحت العامة إذا عظموا المحبوب أن يخاطبوه بالأستاذ، وإنما أخذوا ذلك من الماهر بصنعته لأنه ربما كان تحت يده غلمان يؤدبهم فكأنه أستاذ في حسن الأدب"[8].

ولهذا اختار الحكام أشهر المؤدبين علما وأدبا لتربية وتعليم أبنائهم، إذ يروى عن الحاكم يعقوب المنصور أنه"طلب من قاضيه أن يختار له معلما أو معلمين لتعليم ولده أحدهما هو برّ في دينه والآخر هوبحر في علمه فاختبرهما"[9]، ويفيدنا"ابن الخطيب"

1-ابن القطان، المصدر السابق، ص178- 179/محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، ص83-84

2-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص51/ عمار طالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ج1، ص233-235

3-يكنى أبو القاسم ويعرف بابن حمنال، من أهل مرسية، كان يكتب المصاحف، حسن الوراقة توفي سنة 633هـ/1235م)،ابنالأ بار، المصدر السابق،ج2، ص135.

4- المصدر نفسه، ج1، ص98

5-يكنى أبا العباس، من أهل اشبيلية، أصله من أبذة، عمل بجيان، ولد سنة 561هـ/1165م، كان معتنيا بالحديث دروبا على تقييده، توفي سنة 618هـ/1221م، نفسه، ص98.

6- نفسه، الصفحة نفسها

7-ابن بشتغير، المصدر السابق، ص202/وقالت العامة: "كثير ما يقول الصبيان إذا غاب المعلم"، الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم1119، ص260

8-ابن دحية الكلبي، المصدر السابق، ص32.

9-الزركشي، المصدر السابق، ص32

بمعلومات عن المؤدب عبد الله بن سليمان بن داود(ت612هـ/1215م)[1]، الذي امتهن مهنة المؤدب في البلاط لأسرة الخليفة محمد الناصر بن يعقوب(595-610هـ/1198-1213م)، فكان "أستاذ الناصر وإخوته"[2]، ويضيف "الذهبي"أنّ"المنصور استدعاه لتأديب بنيه فأقرأهم بمراكش وحظي لديه ونال من جهته وجاهة متصلة ودنيا عريضة وتصرف في الخطط النبيهة، وأدب الناصر ولد المنصور ونال دنيا عريضة"[3].

واستطاعت المؤدبة حفصة بنت الحاج الركونية[4] (ت580هـ/1184م) الحصول على مكانة مرموقة في دار الحاكم يعقوب المنصور، فكانت تعلم النساء[5] وأصبحت " أستاذة وانتهت إلى أن علمت النساء في دار المنصور"[6]، ويضيف الذهبي أن سيدة بنت عبد الغني الغرناطية[7](ت647هـ/1249) كانت "حافظة القرآن علمت في دور الملوك دهرها كله"[8]، ومن دون شك فإنّ المؤدبين كانوا أحسن حالا من المعلمين، فكسبوا من مهنتهم أموالا كثيرة ، وفي هذا السياق يترجم "الذهبي" لأحد المؤدبين وهو علي بن يوسف بن محمد الأنصاري[9](ت619هـ/1222م)، الذي جمع من مهنته أموالا كثيرة بقوله "أدب بالقرآن والعربية واستفاد بتعليم العربية مالا جليلا"[10].

وكانت الحاجة الماسة إلى تعليم أبناء العوام تستدعي كثرة أصحاب هذه المهنة، وحسبنا دليلا كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين وحتى المدرسين[11]، التي وردت في كتب التراجم الأندلسية، والتي يبدو من خلالها أنّ المعلمين عاشوا عيشة بسيطة، يؤدون مهنتهم مقابل أجر زهيد لا يكفيهم تكاليف الحياة فامتهنوها مضطرين تكسبا للعيش، فهذا يزيد بن محمد بن يزيد

1- يكنى أبا محمد، جال في الكثير من المدن الأندلسية للتعلم، فاخذ القراءات والحديث واللغة عن الكثير من الشيوخ، كان حافظا لأسماء الرجال، توفي بغرناطة سنة 612هـ/1215م، الذهبي، المصدر السابق، ص218

2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص318

3- الذهبي، المصدر السابق، ص218

4-حفصة بنت الحاج الركوني، من أهل غرناطة، كانت أديبة وشاعرة، خدمت في البلاط في الموحدي، ابن الأبار، المصدر السابق، ص260/ ابن الزبير، المصدر السابق، ص459.

5-خليل بدوي، موسوعة شهيرات النساء، دار أسامة للنشر، الأردن، الطبعة الأولى،1998، ص99.

6-ابن الزبير، المصدر السابق، ص370

7-هي سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدرية الغرناطية، تكنى أم العلاء، كانت حافظة للقرآن مليحة الخط، يذكر الذهبي أنها نسخت كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي بخطها، الذهبي، المصدر السابق، ص441.

8- الذهبي، المصدر السابق، ص441

9–يكنى أبو الحسن الضرير، أدب بالقرآن والعربية، وبلغ في الفهم والذكاء الغاية، المصدر نفسه، ص326

10-نفسه، ص326

11-نفسه، ص299

يحي اللخمي (ت 588هـ/1192م) تعيّش من تعليم الصبيان بعد ما كان ذا ثروة ذهبت منه عند دخول النصارى المرية فاضطرته الحال إلى تعليم الصبيان[1]، وصار عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري[2](ت 637هـ/1239م) في آخر عمره مكتبا للصبيان بداخل مالقة[3].

ومن المؤكد أنّ دخلهم الزهيد دفع البعض منهم إلى مزاولة مهنة التعليم والبحث عن حرفة أخرى تدفع عنهم شقاء الحياة، فكان عبد الله بن عيسى بن عبد الله الأنصاري (ت 604هـ/1207م) معلم ويعيش من كراء حانوت له[4]، وعلّم إبراهيم بن إبراهيم بن محمد الأنصاري[5] (ت583هـ/1187م) القرآن واتخذ من بيع العشب حرفة أخرى[6].

ويفيدنا "ابن الأبار"عن أحد المعلمين وهو موسى بن حسين بن موسى بن عمران [7] (ت (ت 604هـ/1207م)، الذي كان ميسور الحال "يعيش بإشبيلية بدراهم كان ورثها عن أبيه، فلما فنيت لزم صناعة التعليم وأقام على ذلك نحوا من سبع وعشرين سنة ، جمع منها مالا كثيراً إلى أن آسن وضعف، فأقتنى من تلك الأموال كتبا صار يبيعها ويتقوت منها".[8]

ووقف بعض المؤدبين موقفا سلبيا من أخذ أجرة عن التعليم، فعاشوا على قناعة شديدة ورأوا في تعليم الصبيان القرآن الكريم ثوابا وأجرا، وقرروا أن لا يأخذوا أجرا ولا هدية ومثال ذلك المؤدب محمد بن إبراهيم بن محمد(ت 587هـ/1197م)[9]، الذي" أقرأ بالقرآن نحوا من أربعين سنة، ولم يأخذ من أحد أجرا ولا قبل هدية"[10]، بل ومنهم من أفنى حياته في

1-ابن الزبير، المصدر السابق، ص362
2-يكنى أبا زيد ويعرف بالقمارشي، من أهل الفضل والدين، وكان يعقد الوثائق، ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص261
3-المصدر نفسه، ص261
4- ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص286.
5- يكنى أبا إسحاق ويعرف بالعشاب، من أهل أشونة، كان يبع العشب ويقرئ النحو، المصدر نفسه، ج1، ص136.
5ص136.
6- نفسه، الصفحة نفسها
7-يكنى أبا عمران، من أهل مارتلة، وسكن اشبيلية له حظ وافر من الأدب والحديث، وكان منقطع القرين في الزهد والعبادة، نفسه، ج2، ص179.
8-نفسه، الصفحة نفسها
9-يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة، نزل بجزيرة شقر من أعمال بلنسية واقرأ بها القرآن، كان رجلا زاهدا يشار إليه بإجابة الدعوة، نفسه، ص66.
10-نفسه، الصفحة نفسها

تعليم القرآن، إذ كان محمد بن عبيد الله بن أحمد الرندي (ت 576هـ/1180م)ماهرا يقرئ القرآن ويعلم العربية دأب على ذلك حياته كلها[1]، ووردت إشارة "لابن الخطيب "عن أحد المعلمين المهرة والذي كان مقصدا للمتعلمين للاستفادة من علمه وهو عبد الله بن سهل الغرناطي (ت 553هـ/1158م) الذي "كانت النصارى تقصده من طليطلة تتعلم منه"[2].

ومن دون أدنى شك فإن مهنة التعليم هي مهنة نبيلة، غير أنها لم تلق دائما من بعض أصحابها الاحترام، فقد تعرض المعلمون لانتقادات حادة فقد قيل فيهم ما يحقر مهنتهم، إذ ضربت العامة أمثلة تبين تصرفاتهم الشخصية وأساليبهم التعليمية وعدم العدل في صبيانهم الذين يعلمونهم، خاصة من تفاوتت أوضاعهم الاجتماعية بحسب اختلاف آبائهم في الغني والفقير والجواد والبخيل، فكانوا يهتمون اهتماما خاصا بأطفال الأغنياء دون أبناء الفقراء والضعفاء، وورد ذلك في خطابهم التالي:"الرقيق للتعنيق، والخشين للتفليق"[3]، ولذلك ندد "ابن الحاج" بتصرفاتهم، فجعل ابن الفقير والغني على حد واحد في التربية والتعليم[4].

والأكيد أنّ تصرفات بعض المعلمين قد رسخت في ذاكرة المتعلمين عندما أبدوا تصرفات حسنة أعجبت الصبيان كانت سببا في فرحهم فيحرصون بذلك على التعلم والذهاب إلى شيخهم لتعلم القرآن، وتبقى تلك التصرفات في ذاكرتهم حتى الكبر، فالمؤرخ "ابن عسكر" يتذكر جيدا عندما كان صغيرا تصرفات معلمه قائلا:"كنت أقرأ عليه القرآن في الصغر وأنا يومئذ من نحو ست سنين فربما كان النوم يغلبني فكان يضمني إلى نفسه ويغطيني بردائه"[5].

وصفوة القول أنّ المعلمين والمؤدبين، قد امتهنوا هذه المهنة حبا فيها، وكانت تكسبهم أموالا قليلة، لذلك اضطروا إلى البحث عن مهنة أخرى تعينهم على غلاء المعيشة، ومع هذا فقد حظيوا بالحب والتقدير من طرف العامة والخاصة.

1- ابن الأبار، المصدر السابق ، ص51
2- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص308
3-الزجالي، المصدر السابق، ج2، مثل رقم 236،ص59
4- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د.ت)، ج2، ص209
5- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص158

2-**الناسخون والوارقون**

تعتبر مرحلة حكم الموحدين في بلاد الغرب الإسلامي العصر الذهبي للوراقة، حيث نبغ وراقون مجيدون وخطاطون بارعون، تفننوا في تنويع الخط؛ وظهر بعض المزخرفين للكتب والمجيدين للتسفير، فازدهرت بذلك صناعة الورق وتنوعت الحرف.

ومن بواعث نهضة الخطاطة أن الحكام أنفسهم كان لهم اهتمام خاص بهذه الناحية، فكانوا يجيدون الكتابة بأكثر من خط، ويوقعون المنشورات الرسمية بيدهم بخط الثلث المشرقي وبالمداد الأحمر لهم، إذ يفيد أحد الباحثين أن الخليفة المرتضى الموحدي(646هـ/1248م) كان يكتب بثلاثة خطوط، وتوفر بلاطه على ديوان للنساخين الذي يشرف عليهم رئيس مسؤول عنهم[1].

وأدى هذا الحال إلى انتشار العلوم في الأندلس بمختلف تخصصاتها ومراكز التعليم إلى إقبال الناس على اقتناء الكتب، مما سمح بانتشار المكتبات، هذه الأخيرة التي مثلت المظهر المادي للنهضة العلمية والثقافية التي عرفتها البلاد، وشكلت أهمية بالغة في المجتمع، وبلغت تطورا وانتشارا كبيرين[2]، إذ يروى أنّ الحاكم يعقوب المنصور لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب[3].

والحق أن تطور وازدياد عدد المكتبات كان نتيجة مباشرة لكثرة التأليف وغزارة العطاء لما استوعبته المكتبات من مؤلفات أدبية وطبية وتاريخية[4]، والتي كانت بمثابة المكون الثقافي العقلي للنخب المثقفة في الأندلس، في عصر ازداد فيه الاهتمام بالحركة العلمية، وتكوين المكتبات وتزويدها بالكتب ولولوع العلماء بها، وهذا بشهادة"ابن سعيد "عندما

1-محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى،1991، ص33.
2-عز الدين موسى، المرجع السابق، ص226/ سامية مصطفى مسعد، الوراقة والوارقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى،2000، ص25
3-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص176/ بن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، (د.ت)، ص55/عبد الهادي أحمد الحسيسن، المرجع السابق، ص73
4-حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الاندلس، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الاولى، 1998، ص97

قال:"أهل الأندلس أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب"[1].

إنّ انتشار الكتب راجع بالدرجة الأولى إلى توفر الورق بالأندلس خاصة في بلنسية، إذ اعتبرت هذه المدينة المركز الرئيس للورق في الأندلس الموحدية، مما أدى إلى كثرة الوراقين والنساخ[2]، هذا إلى جانب شاطبة التي كان يضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذي لا نظير له[3]، فاهتم الأندلسيون بالوراقة والكتب؛ إذ يذكر "ابن الأبار" أن أحد الوراقين وهو محمد بن خير بن عمر (ت573هـ/1173م)كان "يملك الكثير من الكتب و يسهر على العناية بها وعلاجها وتصحيحها بحسن خطه وجودة تقييده طيلة حياته، وحين توفي بلغت أثمانها الغاية"[4]، فكان هذا الوراق ذا همة عالية في تحصيل الكتب حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب ما جعل الناس يقبلون على اقتنائها مهما غلا سعرها.

لقد تفوق الأندلسيون في صناعة الورق ومهروا فيها حتى أنهم كانوا أحرف الناس في صناعة الورق وازدادت مع رواج النشاط العلمي، وتقدم كتب التراجم فيضا من المعلومات عن أولئك الذين اتخذوا من الوراقة حرفة لهم[5].

وبتوفر الورق وازدياد الطلب عليه، انتشرت مراكز صناعته واتسعت أسواقه واهتم سكان الأندلس بالوراقة والنسخ واقتناء الكتب، وبات بديهيا أن تظهر وسط هذه الأجواء المليئة بالعلم طبقة من الحرفيين تعيشوا بالوراقة، وأصبحت للوراقة سوقا يقصدها رجال الأدب، حتى أنه كان لعناية أهل اشبيلية بالكتب واشتغال الكثير منهم بتجارتها، أن كان بها شارع يسمى شارع الوراقين[6]؛ بالمثل عرفت مدينة شلب ظهور عدد من الوراقين[7].

1- المقري، المصدر السابق، ج1، ص462-463
2-عز الدين موسى، المرجع السابق، ص224/ سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص348
3-المرجع نفسه، ص347
4-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص49
5-المصدر نفسه، ج1، ص109/ ج2، ص251،101/ الذهبي، المصدر السابق، ص217،105/ ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ج2، ص395
6-سامية مصطفى مسعد، المرجع السابق، ص21
7-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص157

فالوراقة مهنة تقوم بنسخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس، والوراق من يقوم بذلك وقد يكون هو الناسخ أو غيره وله من ينسخون له، بالإضافة إلى ما يستتبع عملية النسخ من التجليد والتذهيب وغيرها، ومن ثمّ يطلق اسم الوراق على من يكتب المصاحف و يبيع الورق والكتب، فعبد الله بن ابراهيم بن الحسن الوراق[1](ت 611هـ/1214م) كان يتجر في الكتب[2]، و كان محمد بن عبد الله التجيني[3](ت606هـ/1209م)وراقا يبيع الكتب[4]، و موسى بن حسين بن موسى[5](ت604هـ/1207م)" يعيش باشبيلية بدراهم كان ورثها عن أبيه فلما فنيت لزم صناعة التعليم وأقام على ذلك نحوا من سبع وعشرين سنة واقتنى من العائد عليه بها أعلاقا وذخائر من الكتب فلما أسن وضعف عن التعليم تركه وصار يتقوت من أثمان تلك الكتب يبيعها شيئا بعد شيء إلى أن فنيت ويسّر الله له شيئا يعيش به نحوا من تسعة أشهر"[6].

فهذه النصوص لها دلالات واضحة على كثرة نسخ الكتب وبيعها، وإقبال الناس على اقتنائها من السوق المخصص لذلك[7]، مما شجع الكثير من الناس على امتهان هذه الحرفة، والأكيد أنّ صناعة الورق فتحت المجال لظهور حرفة النسخ، والتي كان يقوم بها النساخ ونالوا من وراء عملهم أموالا، واشتهر وراقون آخرون بحسن الخط ودقة الضبط، ومن هؤلاء محمد بن عبد الرحمن بن أحمد (ت 633هـ/1235م)الذي كان يكتب المصاحف كان يجيد نقطها ويعرف رسمها مع براعة الخط وحسن الوراقة[8]، أما محمد بن محمد بن يحي من من شقر(630هـ/1232م) فكان يكتب المصاحف ولم يكن أحد في زمانه يدانيه في المعرفة والبصر برسمها مع حسن الخط والإتقان[9]، وكان محمد بن موفق البلنسي(ت

1-هو عبد الله بن إبراهيم بن الحسن بن منتال يكنى أبا محمد، من أهل بلنسية، كتب علما كثيرا بخطه، مولده سنة 550هـ/1155م، الذهبي، المصدر السابق، ص217

2-المصدر نفسه، الصفحة نفسها

3-محمد بن عبد الله التجيبي من أهل بلنسية، وأصله من سرقسطة، كان أديبا حلو النادرة فكها، ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص95

4-المصدرنفسه، ص95/ الذهبي، المصدر السابق، ص105

5-موسى بن حسن بن عمران القيسي، يكنى أبا عمران الزاهد الميرتلي، نزيل اشبيلية، كان منقطع القرين في الورع والزهد والعبادة، مع حظ وافر من الأدب، كان ملازما بمسجده داخل اشبيلية يقرئ ويعلم، الذهبي، المصدر نفسه، ص169/ ابن الأبار، المصدر السابق، ص180.

6- المصدر نفسه، ص181

7-سامية مصطفى مسعد، المرجع السابق، ص21/جودة هلال ومحمد محمود، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)،1986، ص80

8-ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص135

9-المصدر نفسه، ص133

563هـ/1167م)عارفا بمرسوم الخط في المصاحف معروفا بالضبط وحسن الوراقة يغالي فيما يكتب مع التجويد والإتقان[1].

ولكن المصادر التاريخية المطلع عليها لا تسعفنا بتفاصيل كافية حول صنعة الوراقة وطريقة النسخ وأجرة الوراق والناسخ، والواضح أن بعض النساخ كانوا يسمعون من شيوخهم وينقلون في نسخهم ما يسمعونه في حلقات الدرس وهو ما يفيدنا به "ابن الأبار" في ترجمته لمحمد بن محمد بن سليمان الأنصاري، الذي "كان يكتب بخطه علما جما، فقرأ وأقرأ كبيرا وأفاد واستفاد كثيرا وقد نقلت من خطه ما نسبته إليه في هذا الكتاب وأجاز لي بلفظه وسمعت منه بعض نظمه"[2].

أمّا مكان العمل فيبين "المقري" أن أحد الناسخين كان "يسكن في غرفة ويعيش من النسخ، ومارس مهنته في الليل تحت ضوء السراج"[3]، ولعل في هذا النص ما يكشف على أن هذه المهنة شاقة ومتعبة تستغرق وقتا طويلا يدوم إلى ساعات متأخرة من الليل.

وبالرغم من أنّ المصادر لم تطالعنا على أجرة الوراق، إلاّ أن المعطيات المتحصل عليها توضح أن الوراقين مارسوها تكسبا للعيش ومصدرا للرزق، ولم تكن الأجرة تكفيهم عناء الحياة لضعف حالهم، فتجدهم يبحثون عن عمل آخر لكسب المزيد من المال للعيش، إذ تعيش محمد بن محمد بن سليمان(ت 610هـ/1213م) من الوراقة لإقلاله[4]، ووجدنا أنّ أحد الوراقين كان يعمل بالوراقة واضطرته الحال إلى تعليم الصبيان، وكتب الوثائق فكان يعيش من ذلك[5].

وإلى جانب هؤلاء الوراقين، اشتهر نساخ مصحفيون اختصوا بنسخ القرآن الكريم وبلغوا فيه عناية فائقة، فمحمد بن عبد الله بن محمد (ت610هـ/1213م)، إلى جانب كونه

1- ابن الأبار، المصدر السابق ، ص32
2-المصدر نفسه، ص101
3- المقري، المصدر السابق، ج3، ص534
4- ابن الأبار، المصدر السابق، ص101
5-ابن الزبير، المصدر السابق، ص362

عالما ووراقا يصول ويجول في ميدان النسخ، وبذل قسطا وافرا من العناية بالخط والاشتغال بالنسخ، كان يكتب المصاحف وينقطها وكتب ألف نسخة من كتاب الله عز وجل[1].

ويبدو أنّ نسخ المصاحف والطلب المتزايد على شرائها كان تجارة مربحة للناسخ، فمحمد بن أحمد بن عبيد الله الاشبيلي (ت 574هـ/1178م)اقتصر في معيشته على نسخ المصاحف[2]، ولهذا وجد نساخ اختصوا بنسخ القرآن الكريم، و نساخ آخرون اتخذوا من صنعة الوراقة مصدرا لرزقهم، إضافة إلى طبقة العلماء وهي الطبقة التي كانت تنسخ الكتب للاستعمال الشخصي في الغالب وضمها للمكتبة الخاصة [3].

و بلغت صناعة تجليد الكتب في هذه الفترة درجة عالية من الرقي والإتقان، وخير دليل على ذلك هو مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي بالغ الصناع في تعظيمه وتأنقوا في استعمال أحفظته بقول "المقري":"حشروا له الصناع المتقنين والمهرة المتفنيين ممن كان بحضرتهم العلية أو سائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذّاق كل صنعة، ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظّامين والجلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنانين، ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب إلى الحذق في صناعة، إلاّ أن أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه"[4].

ويعتبر عمر بن مرجي الاشبيلي أحد الناظمين والمزينين لمصحف عثمان بن عفان[5]، وبذلك بلغت صناعة تجليد الكتب درجة عالية من الإتقان والرقي، إذ يشير "ابن سعيد "إلى أنّ بلنسية اشتهرت بالكتابة بالذهب والتصوير فيه "[6]، ولم تكن مهنة نسخ المصاحف من اختصاص الرجال فحسب، فقد احترفت مئات من النساء نسخ المصاحف وكتب العبادات

1- ابن الأبار،المصدر السابق، ص105
2- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق2، ص666
3-أسيا ساحلي، فئة الوراقين في المغرب الأوسط، مخبر العلوم الاجتماعية والتاريخية، مجلة الناصرية، العدد 4، 2013، ص435
4-المقري، المصدر السابق، ج1، ص611/ محمود بوعياد، الرحلة العجيبة لنسخة من مصحف الخليفة عثمان في أرجاء المغرب والأندلس، مكتبة النشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى،2007، ص58 وما يليها.
5- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص351
6-ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص36/ والمغرب في حلى المغرب، ج2، ص260.

التي يكثر الإقبال عليها، وكن يبعنها فيما بعد إلى الوراقين لما يمتزن به في عملهن من إتقان كبير، ومهارة في الكتابة هذا فضلا على أنهن أرخص أجرا[1].

ومن حصاد ما تطرقنا إليه عن العامة ودورهم في تنشيط الاقتصاد الموحدي يمكن القول بأنّ الحرف في العصر الموحدي شملت كل ما تعلق بالنشاط الصناعي والفلاحي والرعوي والتجاري الذي كان يقوم به العوام، ولا يخفى علينا أن مستوى معيشتهم كان بسيطا للغاية، حتى عاشت فئة من الحرفيين حياة سوء وفقر، واضطر الكثيرون إلى البحث عن عمل آخر لتسيد متطلبات الحياة، في حين كانت وضعية بعض الصناع والتجار والخطاطين والوراقين مريحة للغاية.

- ظهر أن الحرفيين زاولوا مهامهم في الأسواق أو في الشوارع وعلى حواف الطرقات بينما ظلت حرفة الطحن تتواجد بضفاف الأودية، ومورست حرفة غزل النسيج والخياطة والوراقة داخل المدينة، أما الحرف التي كانت تسبب إزعاجا للناس فإنها مورست خارج أسوار المدينة مثل الحدادة.

- أن الأسواق كانت مرآة لتنوع النشاط الاقتصادي، إذ كانت تعج بفئات اجتماعية مختلفة بحثا عن الرزق، فظهر التجار والباعة والحمالون وباعة الأطعمة والجزارون وغيرهم، كما توفرت الأسواق على دكاكين وحوانيت عرضت مختلف أنواع السلع، فضلا على أنها كانت المكان المناسب لممارسة مختلف الحرف والصنائع، فضلا عن الأسواق التي خصصت للبضائع كسوق العطارين والعشابين والخياطين وغيرها من الأسواق.

وللأسف الشديد فإنّ أقلام المؤرخين لم تؤرخ للحرف التي زاولها العوام بل لم يدمجوهم في المجتمع كما فعلوا مع العناصر الأخرى، كالأطباء، والشعراء، والقضاة والكتّاب، ولهذا جاء الحديث عن هؤلاء مقتضبا جدا في هذا الفصل لأننا لا نملك نصوصا تسهل لي الكتابة بالتفصيل عن الحرفيين في العصر الموحدي، سوى ماعثرنا عليه من كلمات متفرقة هنا وهناك في كتب التراجم، ومهما يكن من أمر ذلك وحتى وإن أغفلت المصادر التاريخية و أقلام المؤرخين الإشادة بالدور الكبير الذي لعبه الحرفيون خاصة منهم

1-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص378

البنائين والنجارين والصفارين وغيرهم وإبراز دورهم الكبير والرائع في حركة البنـاء، فـإنّ ما شيدته أياديهم من مشاريع عمرانية شاهدة على إبداعهم.

الفصل الخامس: التمثلاث الذهنية للعامة بين الواقع وأفق التجاوز.

أولا- أثر الفقر وتمثلاته الذهنية

1- الأسباب الطبيعية والبشرية

2- أنواع الفقر

3- انعكاسات الفقر

ثانيا: الأمراض ووسائل العلاج

1- أسبابالإصابة بالأمراض

2-أهم الأمراض المستعصية

3 -أساليب العلاج عند العامة

ثالثا-السحر والخرافات السائدة

رابعا: تجليات ممارسة المروحات والمسليات

1-الدعابة والفكاهة والسمر

2-النزهة والترويح عن النفس

3-الغناء والرقص

4-معاقرة الخمر

5-ظاهرة عشق الغلمان وممارسات جنسية أخرى.

إن التوجه للكتابة عن التمثلات الذهنية لعامة الأندلس في العصر الموحدي حتم علينا التعامل مع أنواع من المصادر كانت إلى زمن غير بعيد مغيبة عن البحث التاريخي، والمتمثلة في كتب الطب والأغذية، لأجل تجاوز العقبة المنهجية؛ إذ أفاد هذا النوع من التأليف في الكشف عن ما أغفلته مصادر الحدث التاريخي في تتبع ذهنيات العامة، وتفسير سلوكها وطرق التفاعل مع محيطها في الحقبة مدار البحث. ويتصدر كتاب التيسير في المداواة والعلاج لأبي مروان عبد الملك ابن زهر (ت 557 هـ/1161م)، وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار(ت646هـ/1248م)من جملة الكتب التي أنارت طريق البحث في الكشف عن كثير من القضايا الاجتماعية للعامة في زمن حكم الموحدين للأندلس. هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي زودت البحث بمادة طيبة في إماطة اللثام عن بعض السلوكات الاجتماعية للعامة، خاصة منها كتابي "التكملة" لـ "ابن الأبار" و"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" لـ "عبد الملك المراكشي"، إضافة إلى روايات "ابن عذاري" وكتاب "أمثال العوام" للزجالي" الذي جسد الخطاب الشعبي للعوام، لا سيما تلك الأمثال المتعلقة بأثر الفقر في ذهنياتهم؛ فضلا عن "كتاب المغرب في حلى المغرب" لـ"ابن سعيد" الذي خدم كثيرا وسائل التسلية والترفية التي مارستها العامة، إضافة إلى نصوصه القيمة حول الغناء والمغنين، هذا فضلا عن نصوص "الحجاري"[1] في كتابه "المسهب في أخبار المغرب "، والتي جاءت غنية بأخبار الحياة اليومية لعامة الأندلس، كون المؤلف جال في ربوع بعض المدن الأندلسية للتعرف على ما أنتجته قريحة أدباء عصره في الأدب والشعر والنثر[2].

كما كان الفضل لكتب الجغرافية والرحلات[3] في معرفة بعض الأمراض والمعتقدات الشعبية التي كانت منتشرة ببعض القرى الأندلسية، استطعنا تركيب بعض الجوانب المتعلقة بالفقر ومظاهره، والأمراض التي كانت تصيب العامة من المجتمع؛ كما حاولت

1-أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن وزمر الصنهاجي الحجاري، أصله من واد الحجارة، نشأ الحجاري في أسرة علم وأدب، توفي سنة 550هـ/1156م، ينظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، دار العلم للملايين، بيروت،الطبعة 3،1997، ج5، ص314/ امحمدبوشريط، الحجاري وإسهاماته الثقافية:كتاب المسهب أنموذجا، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 10، 2014، ص.96

2- المقال نفسه، ص.111

3-الإدريسي، المصدر السابق، ص200/ الحميري، المصدر السابق، ص255/ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر،بيروت، ط3، 2007، ص390

رصد ردود فعل العوام اتجاه الكوارث الطبيعية التي عرفها الإنسان وأثرها في بروز ذهنيات خرافية وأخرى سحرية كشكل من أشكال الرضوخ أو التجاوز للأوضاع السائدة.

ومما لا شك فيه أنّ المجتمع العامي بشرائحه الاجتماعية المتفاوتة عاش ظروفا معيشية صعبة، تداخلت فيها الحروب المتكررة والجوائح، بالمشاكل الاجتماعية التي طرحتها الظروف الاقتصادية المزرية، وما أفرزته من ذهنيات وأنماط سلوكية غريبة، أدت بالعامة إلى إظهارسلوكات عدوانية كالسرقة، والركون للسحر، أو اللجوء للتسول لحجب مظاهر الفقر التي عاشوا في كنفها لسنوات عدة، أو معاقرة الخمر والبغاء وسلوكات أخرى لتجاوز محنهم.

أولا- أثر الفقر وتمثلاته الذهنية

شكل الفقر ظاهرة اجتماعية متميزة في المجتمع الأندلسي وخيم على طبقة العوام نتيجة لمستواها المعيشي المتدني، إذ ظهرت معالمه بشدة مع اندلاع الحروب أو الكوارث الطبيعية وما خلفته من ارتفاع مهول في أسعار المواد الغذائية، وعليه يمكن إرجاع أسباب الفقر إلى عوامل طبيعية ممثلة في الكوارث الطبيعية وأخرى بشرية وما سببته الحروب من دمار.

1-الأسباب الطبيعية والبشرية

لا بد من الإشارة إلى أنّ للبيئة أثرها الكبير على الحياة العامة إيجابا أو سلبا، وقد كان الإنسان رهن البيئة المحيطة به، وكثيرا ما كان عاجزا عن عمل أي شيء اتجاه تلك البيئة إلاّ في حالات خاصة محدودة، فهناك الأمطار والثلوج والسيول والقحط والجفاف والزلازل، وكلها ذات أثر بالغ على حياة الإنسان واستقراره وتطوره.

شهدت بلاد الأندلس في ظل الموحدين جملة من الكوارث الطبيعية أفصحت عنها المصادر التاريخية، منها المرتبطة بفيضان نهر اشبيلية في العديد من المرات حتى أوشك أهلها على الهلاك[1]، وهو ما حدث عام 564هـ/1169م[1]، وعام 574هـ/1178م[2]، غير أنّ

1-المقري، المصدر السابق، ج1، ص.480

أخطرها ضررا كان سيل 597هـ / 1201م الذي اعتبره المؤرخون من أكبر السيول وأعظمها عبرة وأشدها آثارا[3]؛ ولقد شكلت السيول خطرا على حياة السكان و على المزروعات خاصة في المناطق المنحدرة، حيث تجرف القشرة الغنية للتربة وقد تقلع غطاءها النباتي وتأتي على زرعها وضرعها وجميع عمرانها.

والراجح أنّ كثرة السيول التي أعقبت فترات من القحط والمجاعة التي اجتاحت اشبيلية قد أسهمت في استفحال ظاهرة الفقر التي انتشرت في ظل واقع مثخن بالجدب ونزيف بشري هائل[4] حتى تغيرت أحوال أهلها ؛ كما كان للشدة التي عاناها أهل بلنسية جراء هطول أمطار غزيرة، وقعها ومحنها على الفقراء الذين هدمت منازلهم حتى أنّ أحد المؤرخين تعجب من الذين نجوا من هذه الكارثة[5].

ولم تكن السيول الجارفة وحدها سببا في تخريب منازل العامة أو بعث الذعر في أنفسهم، بل إنّ العواصف القوية[6] التي ضربت الأندلس لها صداها ومحنها على الإنسان حتى أنها أحيت بعض الذهنيات والخرافات عند العوام[7]، وبالمثل فقد عرفت الأندلس كوارث أخرى منها القحوط التي أصابت البلاد مرات عدة، كالذي حدث سنة 565هـ/1170م[8] و الزلزال الذي حدث عام 565هـ/ 1169م فتسبب في انهيار ديار كثيرة[9]، وعليه لقد أزهقت هذه الكوارث أرواحا كثيرة ودمرت المباني ومهدت الطريق لتفشي الأوبئة[10].

1-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص234.
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص.140
3-ابن عبد الملك، المصدر السابق، س5ق2، ص661/ الحميري، المصدر السابق، ص59/ العبدري، أبو عبد الله محمد الحيحي،رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كروي، دار سعد الدين للطباعة والنشر،دمشق،الطبعة الأولى، 1999، ص106
4- يذكر ابن صاحب الصلاة أن "جامع العدّبس ضاق بأهل اشبيلية"، ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص384/ ابن عذاري، المصدر السابق، ص.110
5- ابن مغاور الشاطبي، المصدر السابق، ص215.
6- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص498.
7-وفي هذا الشأن ذكر ابن عذاري أن الحاكم يعقوب المنصور لما دخل إلى قرطبة عام 586هـ/1190م أمر بقلع الصورة التي كانت على باب الزهراء، وكان من الاتفاق أن ذهبت ريح عاصف بأصيل ذلك اليوم أثرت في خباء الساقة بعض التأثير، وقطعت في طنبه كالقطع اليسير فارجف جهال من عوام قرطبة أن ذلك بسبب صورة الزهراء"ابن عذاري، المصدر السابق، ص .205
8- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص397.
9-المقري، المصدر السابق، ص480
10-ابن عذاري، المصدر السابق، ص.137

عكست هذه الكوارث معاناة أهل الفاقة والخصاصة طيلة الحقبة المدروسة في مصارعتهم للجوع وندرة الغذاء وغلاء المتوفر منه في الأسواق، فهذه المحن والمآسي كشفت بعمق صورة من صور الفقر الذي استهدف العوام ومحيطهم، بسبب الأوضاع الاقتصادية التي أسهمت بشدة في ارتفاع الأسعار، وبالتالي انتشار ظاهرة الفقر التي تجلت بوضوح في المجتمع والتي رجحها أحد الباحثين بأنها إفراز طبيعي للكوارث الطبيعية[1].

واعتبرت الحروب أحد أهم العوامل الأساسية في انتشار ظاهرة الفقر لما يترتب عنها من آثار على مستوى معيشة الفرد وتجعله يعيش في مستوى أدنى[2]، فالحروب تؤثر على النشاط الاقتصادي فترتفع أسعار المواد الغذائية وتحدث المجاعة، كما أنّ الحصار الذي يفرض على المدن يؤثر على السكان، لأنه يوقف أي نشاط وبالتالي لا يجد الأفراد الموارد المتاحة لهم والمحدودة، فيصلون إلى مرحلة الفقر وهي عدم القدرة على إشباع الحاجات؛ وثمة فيض من النصوص التي تؤكد أثر الحصار في حدوث المجاعات، وكنا قد أشرنا إليها سابقا.

ومما لا شك فيه فإنّ حصار العديد من المدن كانت مقرونة بانتشار المجاعات وبالتالي ظهور العديد من الأمراض والأوبئة زادت في تفاقم الأوضاع وانتقال العدوى، ومن ذلك انتشار وباء الطاعون الذي بدأ بالأندلس سنة 572هـ / 1176م عندما عزم الحاكم أبو يعقوب يوسف على الانصراف من الأندلس على رأس جيش في حملة عسكرية، ظهرت ملامح هذا الوباء بمدينة كونكة بقول ابن عذاري:" لما استغاث أهلها بأمير المؤمنين وكان الناس من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة"[3]. وفي السياق نفسه صور لنا المؤرخ "ابن أبي زرع "محنة هذا الوباء قائلا:"وكان الناس

1-عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص.87

2-يمكن مراجعة أسباب الفقر عند فاطمة العيساوي، عن الفقر والفقراء في تاريخ المغرب – ضمن كتاب وقفات في تاريخ المغرب- دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، الرباط، الطبعة الأولى،2001، ص154/ حميد تيتاو، الحرب والمجتمع، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، منشورا ت عكاظ،2010، ص90.

3- ابن عذاري، المصدر السابق، ص137

يموتون فيه من غير مرض، فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه فان مات حمل إلى موضعه وأهله[1].

إذن هذا التناوب بين كثرة الحروب وحصار المدن ترك بصمات عميقة تجلت مظاهرها في البؤس والمجاعة على إنسان الأندلس الذي تأثر من قلة المؤن وارتفاع الأسعار، ومن ثمّ تفاقمت أوضاعه المعيشية، وهي الصورة التي تتجلى من خلال قراءتنا للمصادر المغربية والأندلسية؛ وغني عن القول أنّ الفقراء في الأندلس واجهوا في العصر الموحدي محنا ومعاناة حقيقية اقترنت فيها كوارث الطبيعية والحروب بالغلاء والمجاعة والوباء.

2-: أنواع الفقر

الفقراء ليسوا فئة واحدة، فهناك الفقر الخفيف، والفقر الشديد، والفقر المدقع وبين كل فئة وأخرى مظاهر متنوعة وعليه صنّف الفقر خلال الحقبة المدروسة إلى نوعين:

أ-فقر زمني أو مؤقت:

وهو الفقر الظرفي الناجم عن ظروف اقتصادية أو عسكرية أو كوارث طبيعية، فينجم عنها ارتفاع مفاجئ في الأسعار بسبب الاضطراب وعدم الاستقرار في النشاط الاقتصادي. ومن دلائل حدوث هذا النوع من الفقر في الأندلس في الفترة المحددة ما رواه المؤرخ "ابن صاحب الصلاة" عن الجفاف الذي امتد إلى أواخر عام 565هـ/1170م[2]، هذا الجفاف الذي تسبب في قلة الغذاء حتى أنّ أهل بطليوس عانوا من عدم القوت[3].

لم تكن الكوارث الطبيعية لوحدها سببا في حدوث الفقر الزمني بل كانت الفتن دافعا قويا لحدوث الفقر لما تخلفه من انعكاسات على أوضاع المجتمع فالمؤرخ "ابن صاحب الصلاة "ترك لنا صورا عن أوضاع قرطبة زمن الفتنة قائلا:" حل بقرطبة من الفقر

1-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص145
2-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص.397
3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص110

وظهر على هيئة أهلها صور البؤس فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية ما لم يذقه أحد من الأوائل في الفتنة الحمودية"[1].

تركت هذه الأوضاع بصمات البؤس والمجاعة والأمراض وغلاء الأسعار على إنسان الأندلس فتضاعفت محن المستضعفين من العوام جراء تداخل الكوارث الطبيعية بالفتن البشرية ؛ فلم يستتب الأمن والاستقرار للدولة، غير أنّ هذا النوع من الفقر يمكن تجاوزه بالتكافل والتضامن الشعبي ودعم الدولة المادي في مثل هذه الظروف، فالحكام الموحدون كانوا يبدون تضامنا حقيقيا مع الفقراء والمساكين خاصة في أوقات الشدة من خلال الإحسان وإمداد الأسواق بالمؤن الضرورية، فلما "علم الخليفة المستنصر الموحدي ما حل بالمسلمين في بلاده من المجاعة في غلاء السعر والشدة أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملة فإنه تصدق منها شيئا كثيرا وأعطى من الأموال عطاء جزيلا فحسنت أحوال الناس بذلك"[2]،كما انتشرت ظاهرة الإحسان على الفقراء من خلال تضامن الأغنياء معهم عن طريق الصدقات وتقديم الأطعمة والأموال[3].

ب-فقر مطلق

هو ذلك الفقر الدائم الذي يعاني منه الإنسان طول حياته، ويعتبر الضعفاء من الفقراء أكثر عرضة لهذا النوع من الفقر، فكتب التراجم عبرت عن طبقة الفقراء بأساليب مختلفة، فكان وصف عبدالله بن طلحة الأشبيلي(ت643هـ/1245م) يعاني العوز ولكنه صبر على شدة الفقر وقلة ذات اليد[4]، وعانى إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب الأنصاري (ت 590هـ /1193م)من الضر والفاقة فكان ينفق في الشهر درهما ونصف لا يزيد على ذلك[5]،

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص205.
2- ابن عذاري، المصدر السابق، ص267
3-االنباهي، المصدر السابق، ص131/ الذهبي، المصدر السابق، ص309/ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق س5، ق2، ص645
4- المصدر نفسه،س4،ص166
5- ابن الآبار، المصدر السابق، ج1، ص137

ويخبرنا" ابن زهر" في كتابه عن أحد الفقراء الذي كان يشرف على علاجه بأنّ حياة هذا الفقير كانت" كلها حياة سوء"[1].

إذن كان الفقراء والمساكين يشتكون قلة الطعام واللباس لأنهم لم يجدوا الدخل اللازم للحصول على احتياجاتهم من الغذاء واللباس، وليس بمقدورهم الحصول على ذلك حتى أن "المقري" سرد لنا في إحدى الروايات أن "هذيل الاشبيلي (ت 602هـ/1205م) خرج يوما من مجلسه فنظر إلى سائل عاري الجسم، وهو يرعد ويصيح: الجوع والبرد، فأخذ بيده، ونقله إلى موضع بلغته الشمس، وقال له صح الجوع، فقد كفاك الله مؤونة البرد"[2].

ويروي لنا المؤرخ "ابن سعيد" حالة عائلة بلغت بها حالة الفقر إلى حد أنها لم تجد حتى الفحم لطهي الطعام، وللتسخين في أيام الشتاء البارد بقوله:"نزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا:إن كان عندكم ما أشتري لكم فحما تسخنون به فإني أمضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحما فأضرم نارا"[3].

3-انعكاسات الفقر

لقد ألقى الفقر بظلاله على العديد من القضايا الاجتماعية التي هزت المجتمع الأندلسي، من خلال المساهمة في انتشار الأمراض وسوء التغذية وظهور مشكلة السرقة وتبني آخرون التسول نتيجة عجزهم عن تحصيل قوت يومهم.

أ-سوء التغذية وانتشار الأمراض

جرت العادة على استخدام لفظ سوء التغذية ليعني بالتحديد نقص التغذية، ففي المجاعات وحالات التضرر لن يتصور الإنسان غير النقص الشامل للغذاء، وعليه فقد عانى الكثير من فقراء الأندلس من سوء التغذية وانتشار الأمراض بسبب الحروب التي أدت إلى نقص الغذاء وتضرر المحتاجين.

1-ابن زهر، المصدر السابق، ص229
2- المقري، المصدر السابق، ج4، ص127
3-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص224.

عرفت الأندلس نتيجة لاستفحال ظاهرة الفقر المدقع، حالات تضرر جراء سوء التغذية منها حالة أحد الفقراء الذي بات صائما واضطر إلى بيع ثيابه من أجل الحصول على الغذاء[1]، وبهذا كانت أزمة سوء التغذية المشكلة الصحية الأولى التي يكمن سببها الرئيس في عدم القدرة على الحصول على الغذاء فيضطر الفقراء و"تحت ضغط الظروف الاجتماعية القاسية في أيام الجدب إلى جمع أجباح النحل وبقاياها ليصنعوا منها الخبز يؤكل كما يؤكل الخبز فيشبع والناس يكرهونه"[2].

وتحت وخزات الجوع اضطرت شرائح عريضة إلى تغيير أنظمتها الغذائية بحيث كان الجائعون يضطرون إلى تناول مواد تكميلية حيث يرتد الاقتصاد إلى شكله البدائي، فيسود القطف والالتقاط والصيد والقنص، وكلها مظاهر تعكس عودة الإنسان إلى الطبيعة[3].

إذن النمط الغذائي للإنسان تغير خلال الجوائح التي أصابت الأندلس في العصر الموحدي، إذ أنّ المجاعات التي عصفت بالمنطقة أدت إلى تغير المنظومة الغذائية، وذلك يرجع إلى عدم التوازن بين عدد السكان وموارد التغذية، لذلك حاول السكان إيجاد نظام غذائي غير مألوف بهدف التكيف، وقد تكون هذه الأغذية في إطار التحول من المحرم إلى المباح فتصبح غير خاضعة للمرجعية الدينية أو القيم الأخلاقية والجمالية والذوقية[4].

و طالعتنا المصادر التاريخية[5] عن انتشار الأمراض و الأوبئة عند العوام، وقد مثلت الأمراض المتنقلة عن طريق المياه النمط الرئيس لأمراض الفقراء فأثرت على جانبهم الصحي، وكانت أخطر هذه الحالات تلك الأمراض ذات الصلة بالماء ؛ وقد أمكن استخلاص بعض القرائن الدالة على ذلك لأحد المستضعفين الذي وجده الطبيب عبد الملك بن زهر(ت 557 هـ/1161م)، وهو في طريقه إلى اشبيلية في حالة يرثى لها بسبب

1-ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص137
2-ابن البيطار، المصدر السابق،ج3، ص177
3-عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص185
4-إبراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات، المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12_14م)، مجلة عصور جديدة العدد7-8خريف، شتاء 1433_2012/1434-2013.ص98
5-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص492/ ابن زهر، المصدر السابق، ص229/ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص510.

شربه للمياه العكرة أدت إلى تدهور حاله بقول "ابن أبي أصيبعة": " إن الطبيب عبد الملك بن زهر في وقت مروره إلى دار أمير المؤمنين بإشبيلية وجد في طريقه مريضا به سوء قتبه، وقد كبر جوفه واصفر لونه فكان أبدا يشكو إليه حاله، ويسأل النظر في أمره، فلما كان بعض الأيام سأله مثل ذلك فوقف أبو مروان بن زهر عنده، ونظر إليه فوجد عند رأسه إبريقا عتيقا يشرب منه الماء، فقال إكسر هذا الإبريق فإنه سبب مرضك؛ فقال له: لا بالله يا سيدي فإني مالي غيره، فأمر بعض خدمه بكسره فكسره فظهر منه لما كسر ضفدع وقد كبر مما له فيه من الزمان. فقال ابن زهر: خلصت يا هذا من المرض أنظر ما كنت تشرب، وبرأ الرجل بعد ذلك"[1].

وهناك ملاحظة لا تقل أهمية عن الخلل الذي أصاب الفقير في الأندلس ذو الأجر الزهيد الذي كان يعاني من الفاقة ويتقشف في معيشته حتى إذا تعلق الأمر بصحته وبعلاجه، و إلاّ كيف نفسر كثرة الأمراض التي كانت تصيب الضعفاء من العامة، فالطبيب أبو بكر بن القاضي أبو الحسن الزهري[2]، كان يطبب الناس من دون أجرة ويكتب النسخ لهم[3].

ب-اللصوصية

تشكلت فئة اللصوص عادة من ظروف اجتماعية صعبة، فالأوضاع الاقتصادية والطبيعية التي مرت بها الأندلس خلفت فئات عاجزة عن تحصيل قوت يومها، وبالتالي تتسع ظاهرة الفقر لديهم، فتتشكل فئة ناقمة ومتمردة تتبنى اللصوصية كمصدر للحصول على العيش.

ظهرت وسط الأوضاع الاجتماعية الصعبة التي كان يعيشها العوام ظاهرة السرقة والتي تبنتها جماعات ناقمة على أوضاعها الاجتماعية المتأزمة[4]، ولا شك في أنّ الضغط السكاني الذي عايشته اشبيلية كان له الأثر في ظهور اللصوصية؛ فقد أشار "ابن صاحب

1-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص477.
2- هو الطبيب أبو بكر بن القاضي أبو الحسن الزهري القرشي قاضي اشبيلية، اشتغل بالأدب وتميز في العلم، خدم بالطب توفي في دولة المستنصر (610-620هـ/1213-1223م)، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص492.
3-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
4- محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)،2004، ص83

الصلاة "إلى:" جامع العدبّس الذي ضاق بأهل اشبيلية "[1]، وأكّد "النباهي" ذلك بخصوص البلاد الأندلسية، لضيق حالها واتساع نطاق مدنها[2]؛ فهذا الضغط السكاني أسهم من دون شك في تغيير البنية الديموغرافية لهذه المناطق نتيجة لحصول نزيف بشري كان له الأثر البارز في ظهور السرقة.

لقد أمدتنا المصادر[3] بأخبار عن بعض اللصوص الذين شكلوا عصابات في المحاور الرئيسية التي كان يسلكها المسافرون فيتعرضون لمسلك التجار ويراقبون تحركاتهم ويأخذون أموالهم، إذ كثيرا ما تعرض أرباب الدواب لسرقة حمولتهم وحتى دوابهم من طرف اللصوص، وهاهو المؤرخ "ابن مغاور الشاطبي"(ت 587هـ/1191م) شاهد على عصابة لصوص وقطاع طرق أثناء رحلته من اشبيلية إلى شاطبة قائلا:" :"وبوادي الطين ناس في زي الشياطين وعزة السلاطين، عربان كالغربان، ونذير بالشر عريان وانج يا فلان،فهنا سلب فلان"[4]؛ ولا مراء في أن ظاهرة التلصص قد انتشرت بفعل الحروب السائدة إذ يؤكد "ابن الأحمر":" أن المحن كثرت بالعدوتين وانقطع السفر من الأسباب وكثر النهب وانقطعت الطرق"[5].

وبالموازاة نشطت اللصوصية في فترة الفوضى التي عرفتها الأندلس خاصة في السنوات الأخيرة من الحكم الموحدي، واشتداد هجمات النصارى على المدن الأندلسية وسقوط أغلبها في أيديهم أدى إلى انتشار ظاهرة التلصص خاصة في المناطق النائية بقول "المقري":" انتشار اللصوص وأهل الشر في المواضع المنقطعة النائية عن العمران"[6]، أما "الحميري" فوصف أهل بنبلونة بالفقر واللصوصية قائلا:"أهل بنبلونة فقراء جاعة

1- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص.384
2-النباهي، المصدر السابق، ص.175
3-ابن مغاور الشاطبي، المصدر السابق،ص169/ المقري، المصدر السابق،ص203 /ابن سعيد، المصدر السابق،ج1،ص118
4-ابن مغاور الشاطبي، المصدر السابق، ص170.
5-ابن الأحمر الغرناطي، المصدر السابق، ص.31
6- المقري، المصدر السابق ،ج1، ص203

لصوص"[1]، ولعلّ في نص أورده"ابن سعيد" ما يثبث انتشار اللصوص بقرطبة عندما شاهد أبو يحي بن هشام القرطبي"على نهر قرطبة ثلاثين مصلوبين من قطاع الطرق"[2].

لقد كان للفقر الأثر الواضح في ظهور السرقة كمصدر لعيش الفقراء الجياع بقول العامة:"من صاب القوت لا يتعد"[3]، ولكن ينبغي التنبيه إلى أنّ الأزمات والحروب لم تكن لوحدها السبب في انتشار السرقة، بل إنّ أثر الوضع المعيشي الصعب كان ظاهرا في تعاملهم خصوصا بعد ما عجزت جماعات من الناس عن العمل، فصار أسهل عليها تعاطي السرقة من الموت جوعا، كما هو الحال بالنسبة لأحد الفقراء الذي اضطر تحت وخزات الجوع إلى سرقة شاة وذبحها [4]، وهذا ما يثبت صحة ما ذهب إليه أحد الباحثين إلى اعتبار السلب والنهب والتدمير ليس في الواقع إلا سلوكا طبيعيا أو اعتياديا في أوقات حلول الجوع والوباء[5].

وعلى غرار ذلك تزايد عدد اللصوص في الأندلس بسبب الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية، غير أنّ تحركاتهم الليلية داخل المدن انتشرت بكثرة فكانوا يفتشون أقفال المنازل للسطو عليها[6]، ومن هنا فقد اتسعت هذه الظاهرة حتى صارت موجة عامة في الأندلس وأصبحت تخيف الشباب والكهول، وفي نص "لابن مغاورالشاطبي" ما يثبت حالة الذعر التي أصابت الكهول والشيوخ جراء تفشي ظاهرة السرقة بقوله:"ناس ترى الحنق يتلمظ في عبوسم، وينذر ببؤسهم، ويترجم عما في نفوسهم، من البغضاء الكامنة لشيخهم ورئيسهم، ما حلق التوحيد على آذانهم، ولا ظهر في صلواتهم، ولا آذانهم ، طالما أخاف شبابهم وكهولهم السبيل، وعمروا متلصصين الخندق والمسيل"[7]، كما أنّ هذه الظاهرة ترسّخت حتى عند الصغار الذين أصبحوا يتهمون كل غريب يقترب من منازلهم بالتعدي على أمتعتهم، وفي هذا الشأن أورد "ابن سعيد"عن رحلته إلى إحدى قرى

1- الحميري، المصدر السابق، ص.104
2-ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص.90
3-الزجالي، المصدر السابق، ص328، مثل رقم 1417
4-أبو القاسم بن سراج الأندلسي، المصدر السابق، ص.134
5-عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص.94
6- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص.118
7- ابن مغاور الشاطبي، المصدر السابق، ص.170

الأندلس مع والده نص في غاية الأهمية عن انتشار الفقر والسرقة بقوله:" نزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا :إن كان عندكم ما اشتري لكم فحما تسخنون به فإني أمضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحما فأضرم نارا فجاء ابن له صغير ليصطلي فضربه، فقال له والدي لم ضربته؟فقال ليتعلم استغنام مال الناس والضجر للبرد من الصغر، ثمّ لما جاء النوم قال لإبنه: أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليّ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبي منتبها ويده في الكساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال: هذه مروءات أهل الأندلس، وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضلك على نفسه، ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك بها وهو نائم "[1]، هذا لأنّ اللصوص كانوا يستغلون الفراغ الناجم عن تنقل الحراس للسطو على المنازل "، وذلك بعد أن يظهروا على المباني المشيدة ويفتحوا الأغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوفا أن يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك و لا تكاد في الأندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبحه اللصوص في فراشه"[2].

ومن هنا عمل الحكام الموحدون على تثبيت الأمن المفقود[3]، وتأمين الطرق والمدن والشوارع بالعسس والحراس وتفعيل خطة الطواف بالليل"[4]، وكان القائمون بمهمة الحراسة يعرفون بالدرابين[5].

ورغم الإجراءات الأمنية فقد تعرضت العديد من المنازل إلى عمليات السطو والنهب راح ضحيتها العديد من الأشخاص، وعادة ما كانت السرقة تتم في الليل في أوقات الغفلة، حتى يتحصل اللص على ما يريد، وعادة ما كانت السرقة تنتهي بجريمة وهي قتل صاحب المنزل؛ وهذه الجرائم جعلت الحكام يرفعون من درجة التصدي للصوص"

1-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر نفسه، ج1، ص.224
2- المصدر نفسه، ص.219
3-محمد المغراوي، المرجع السابق، ص.25
4-المقري، المصدر السابق، ص.219
5- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وصار لكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغيائهم في أمور التلصص"[1].

ويمكن القول أنّ اللصوص شكلوا عصابات خطيرة لها قوتها وخطرها، فكانوا يلاحقون التجار والمسافرين ويقطعون سبل المارة ويسطون على المنازل، كلها سلوكات عدوانية لم تكن في الأصل إلاّ نتيجة من نتائج الفتن والحروب التي ألمت بالأندلس فانتشر الفقر وكثر الغصب والتعدي لدى الكثيرين ممن مستهم الحاجة.

د- **التسول**

لقد جسدت ظاهرة التسول أزمة اجتماعية خطيرة، وازدادت تجذرا بفعل غلاء الأسعار خلال الأزمات من قحط وجفاف ومجاعات وكوارث طبيعية التي اجتاحت الأندلس، فأثقلت كاهل العامة بمختلف شرائحها، ونجم عن هذا الواقع المتأزم بروز فئة اجتماعية ناقمة وهم أهل السؤال، وفي حقيقة الأمر أنّ هذه الطبقة لم تكن إلّا إفرازا طبيعيا للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

إنّ الملاحظة الجديرة بالتسجيل أن أهل الأندلس أحبوا العمل والكد، ونظروا إلى التسول نظرة منفرة[2]، واستقبحوا عادة التسول، وإذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يتسوّل سبوه وأهانوه، فضلا عن أن يتصدقوا عليه؛ فلا تجد بالأندلس سائلا إلّا أن يكون صاحب عذر[3]، ويبدو أنّ عادة التسول كانت مذمومة، لأنهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم وهو ما جعل المؤرخ " ابن سعيد" يصفهم بخوف ذلّ السؤال وينسبهم إلى البخل[4]، ولعلّ في ذلك ما يفسّر ذمّ الكثير من المحتاجين لهذه العادة فلا يقبلون من أحد شيئا، حتى أنّ أحد العوام كان يعمل الخوص بيده في خلوته ويبيعه ويتصدق منه لأنه كان يرى كراهية البطالة[5].

1- المقري، المصدر السابق، ص219
2- محمد سعيد الدغلي، المرجع السابق، ص.50
3-المقري، المصدر السابق، ص.220
4- ابن سعيد، نقلا عن المقري المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5- نفسه، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص.137

كان المتسولون يخافون إهانة وسب العامة لهم، هذه الأخيرة التي أظهرت سخطا واضحا على القادرين على العمل، فإتّخذت أسلوب الحيطة والحذر من بعض السائلين الذين كانوا يتمتعون بصحة جيدة؛ وإذا كان أهل الأندلس قد كرهوا التسول وأوجدوا أسانيد في أحاديث نبوية تتعلق بالعمل والكد، إلّا أن هذا لا يعني أنّه لم تنتشر آفة الشحاذة في المجتمع، والتي يرجح انتشارها أولا إلى الغلاء الفاحش الذي شهدته المواد الغذائية، والمجاعات المتتالية؛ إذن شريحة المتسولين كانت نتيجة حتمية للأزمات التي عرفتها الأندلس فانعكس ذلك على الواقع الاجتماعي لفئة الفقراء التي لم تكن قادرة على تحصيل قوتها اليومي.

وقد اتخذ المتسولون والضعفاء الأسواق[1] والمساجد وأبواب الحمامات أماكن لتجمعهم،فكانوا يزعجون الراجلين في الأسواق وسط حشد مزدحم من الناس[2]، ويشير الباحث بالنثيا إلى أنّ متسولي الأندلس كانوا يقومون بجولات في الطرقات وينشدون مقاطع من الأغنيات الشعبية أو الزجل كسبا لعطف ورحمة المارة[3]،فمن المتسولين من كان يتفنن في التسول حتى يبلغ في حرفته ما يريد بلوغه فيبكي على باب المساجد[4].

بيد أنّ الصدقات الكثيرة خاصة من الزهاد والمتصوفة كشفت عن أحد أهم مظاهر التآزر والتضامن الاجتماعي مع طبقة الفقراء والمساكين، فتنافسوا في إنفاق الطعام على المتضررين جوعا، كما اهتموا بتوفير الطعام للجياع والمحتاجين، بل من المتصدقين من كان يطيل الجلوس في آخر النهار خشية أن يأتي محتاج ضعيف[5].

ويمكن القول أنّ طبقة المتسولين لم يكن لها أي دور في عملية الإنتاج، بل شكلت عبئا ثقيلا على كاهل الدولة الموحدية التي عجزت عن استيعابهم وإدماجهم في كيان المجتمع، فضلا عن بعدهم عن المواقع السياسية والحقول المعرفية، ولكن موقف السلطة ظلّ سلبيا اتجاه ظاهرة التسول في الأندلس، فليس ثمة إشارة واضحة عن أي محاولة

1-المقري، المصدر السابق، ج1، ص220/ ابن عذاري، المصدر السابق، ص123
2-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص500.
3- انخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)،ص.160
4-المقري، المصدر السابق، ج4، ص.127
5-النباهي، المصدر السابق، ص163.

قامت بها لاستئصال هذه الآفة أو إيجاد حلول ناجعة لها[1]، ومن ثم بقيت قيم الرحمة والإحسان من جانب الرعايا تجسد الحل الوحيد للتخفيف من بؤس هذه الفئة الاجتماعية.

ومما سبق ذكره نستنتج أنّ الفقر شكل تحديا حقيقيا أمام الدولة الموحدية ومس طبقة عريضة من المجتمع بسبب الأوضاع التي مرت بها الدولة، و التي كشفت بعمق عن عدد كبير من الفقراء الذين مستهم الحاجة بسبب انتشار المجاعات وارتفاع أسعار المواد الغذائية ونفاذها في الأسواق أو احتكارها من طرف التجار، ممّا أدى إلى استفحال ظاهرة الفقر الذي اعتبر مصدر العديد من المشكلات، فألقى بظلاله على العديد من القضايا الاجتماعية التي هزت وخلخلت كيان المجتمع الأندلسي بمساهمته في ارتفاع عدد اللصوص وقطاع الطرق واستفحال ظاهرة التسول، ناهيك عما خلفه من آثار على صحة المستضعفين بانتشار الأمراض الخطيرة بسبب سوء التغذية .

ثانيا: الأمراض ووسائل العلاج

تعرض العوام في الأندلس إلى أمراض عديدة ومختلفة نتيجة لانتشار الفقر ومظاهره، بعضها كان مرضا معديا وآخر عضالا يؤدي إلى الوفاة، ووباء أودى بحياة المئات من المستضعفين، وبذلك شكلت تلك الأمراض تحديا كبيرا أمامهم، جعلتهم يلجؤون إلى طرق علاج مختلفة، فولدت لديهم سلوكات ومواقف عديدة، تحولت بعد ذلك إلى عادات وتقاليد راسخة في ذهنياتهم؛ وللوقوف عندها استلزم الأمر معرفة أسبابها التي تعددت:

1-أسباب الإصابة بالأمراض

1- إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، مجلة مكناسة الزيتون، العدد 6، 1992،ص 115

أ-**فساد الأغذية**

يشير مؤرخو الطب إلى أن تناول بعض الأغذية قد تتسبب أحيانا في حدوث أمراض خطيرة تؤدي إلى الهلاك أحيانا[1]، فالإفراط في الغذاء قد يكون سببا مهما في حدوث الكثير من العلل، لهذا اعتبر "ابن خلصون" أنّ حفظ الصحة يكون بحفظ الأطعمة المتناولة[2].

إنّ الخلل في النظام الغذائي هو مشكلة متعددة الجوانب، فثمة إشارة جد مهمة عن عواقب الإفراط في تناول الغذاء أدت إلى حدوث مرض كان السبب في وفاة صاحبه، عندما أفرط في تناول التين المجفف حتى أصابته نغلة في جنبه، أحدثت له داء التشنج الذي توفي به[3].

إذن هناك سبب واضح لحدوث المرض وهو الإفراط في تناول الأغذية التي تحدث خللا في نظام الغذاء قد تؤدي إلى الوفاة، كما أنّ مؤرخي الطب وضعوا أسبابا أخرى للإصابة بعلل كثيرة منها تلوث الماء.

ب-**فساد الماء**

إن تأثير تلوث المياه على الصحة، لا يقل خطورة عن الإفراط في تناول الأغذية، فتلوّث الماء أو قلته ظاهرة عامة وشائعة أدت إلى حدوث علل كثيرة[4]، وقد لفت "الحميري " آثار هذه الظاهرة عند حديثه عن أهل قرية بنتيج بالقرب من وبدة، نتيجة تعقد مائها على أسنان أهلها فشملتهم تلك العلة[5]، وهذا برهان على حدوث المرض بسبب تلك الطفيليات التي تعلق في الأسنان فتسبب علة الحصى.

1-سراج الدين عبد اللطيف بن موسى، الموصل إلى الأغراض في مداواة الأمراض، مخطوط بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية، قسم المخطوطات، ص3/ ابن خاتمة، المصدر السابق، ص13/ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص477.

2-ابن خلصون، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خلصون، كتاب الأغذية وحفظ الصحة، مخطوط رقم 3931، الخزانة الحسنية، الرباط، ورقة ص17.

3-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص477.

4-ابن خاتمة، المصدر السابق، ص21

5-الحميري، المصدر السابق، ص608.

وقد مثلت الأمراض المتنقلة عن طريق المياه النمط الرئيس لأمراض الفقراء فأثرت على جانبهم الصحي، وكانت أخطر هذه الحالات تلك الأمراض ذات الصلة بالماء، وهو ما حدث لأحد المسننين الذي اضطر إلى شرب المياه القذرة مما تسبب في تدهور صحته[1].

إذن تلوث الماء وشرب المياه القذرة والراكدة لفترة زمنية طويلة له انعكاس خطير على صحة الإنسان، لأن جسم هذا الشيخ المسن لم يتحمل تلك الطفيليات التي علقت بقارورة الماء، والأكيد أنّ نقص المياه أو الصعوبة التي تلقاها في الحصول على الماء جعلته يشرب تلك المياه الملوثة؛ خاصة وأنّ الأندلس في هذه الفترة عرفت قحط وجفاف الأمر الذي أدى إلى انتشار الأمراض.

بالمقابل لا تقتصر المشكلات الصحية في الأندلس على الأمراض الناجمة عن تناول الأغذية، ولا على مشكل فساد المياه، بل يعتبر الهواء أحد مسببات الأمراض.

ج-فساد الهواء

يعتبر كلٌ من"ابن خاتمة" و"ابن خلدون" أنّ تغير الهواء المحيط بالإنسان وعدم استقرار الجو، سبب في حدوث المرض[2]، ذلك لأنّ تلوث البيئة مشكلة ترتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان لأنه لا يستطيع الاستغناء عن الهواء ولو للحظة واحدة، وبالتالي فساد الهواء الذي يرجح أن يكون من انتشار العدوى من خلال الفضلات البشرية سبب مقنع لحدوث علل عظيمة، وهو ما حدث فعلا في الطاعون الذي ضرب الأندلس في العصر الموحدي.

د-الجوائح الطبيعية

تسببت الجوائح الطبيعية في حدوث مجاعات وأمراض كثيرة عندما يعاني الإنسان فيها من سوء تغذية غير سليمة خارجة عن المعايير العلمية لاحتياجاته الفعلية من المواد الغذائية، مما يؤدي إلى اعتلال الصحة وحدوث المرض.

1-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص477.

2-ابن خاتمة، المصدر السابق، ص6ص/ ابن خلدون، المصدر السابق، ص96

إنّ سبب تلك الجوائح هو عامل المناخ بالدرجة الأولى، فقد تميزت الأندلس لسنوات عدة بتساقطات ضعيفة أدت إلى حدوث قحوط، وقد كفانا الباحث الحسين بولقطيب العناء في رصدها ضمن دراسته القيمة التي أنجزها حول "جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين"[1]، هذه الجوائح التي كانت من الآفات المألوفة خلال العصر الموحدي بالأندلس، وما انجر عنها من مشاكل اجتماعية واقتصادية وحتى صحية.

اعتبرت سوء التغذية المشكلة الصحية الأولى التي يكمن سببها الرئيس في عدم القدرة على الحصول على الغذاء الملائم خاصة في أيام المجاعات والقحوط، أين تختل الأنماط المعيشية وتكون سببا في حدوث الأمراض[2].

تشير النصوص التاريخية إلى انتشار الإصابة بالأمراض في الأندلس، عندما تعرض عامتها إلى الجوع عند حروبهم مع النصارى، فيورد لنا "ابن صاحب الصلاة" في أحداث سنة 567هـ/1172 تعرض الناس إلى الجوع والموت، قائلا "نال الناس الضعف والجوع من عدم القوت والعلف ومات كثير من الخيل والبغال والجمال في العقبة"[3]، ويضيف "ابن خاتمة" إلى أن "سكان المرية تعرضوا إلى مجاعة شريرة حتى اضطروا إلى أكل حبوب متعفنة من القمح والشعير قديمة الاختزان، وكان أكثر من هلك من هؤلاء السكان هم الضعفاء من الناس"[4].

إذن تسببت ظاهرة المجاعة في وفاة العديد من المستضعفين، وبالتالي قد يضطر البعض وتحت وخزات الجوع إلى تغيير أنظمتهم الغذائية، فيلجؤون إلى تناول مواد تكميلية حيث يرتد الاقتصاد إلى شكله البدائي، فيسود القطف والالتقاط والصيد والقنص، وكلها مظاهر تعكس عودة الإنسان إلى الطبيعة[5]، وهو ما حدث فعلا سنة 612هـ/1215م

1-الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2002، ص.41
2-ابن البيطار، المصدر السابق، ج4، ص510.
3-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص510.
4-ابن خاتمة، المصدر السابق، ص6.
5-عبد الهادي البياض، المرجع السابق،ص188.

بإشبيلية عندما اضطر أهلها إلى سلوك التقاط الثمار منها البلوط عندما عدم الطعام، فاتخذ أهلها أشجار البلوط قوتا لأنفسهم ودوابهم[1].

وبذلك حاول السكان إيجاد نظام غذائي غير مألوف بهدف التكيف، والملفت للانتباه في مثل هذه الحالات تغير النمط الغذائي للأفراد خلال الجوائح، لأنّ المجاعات التي عصفت بالمنطقة أدت إلى تغير المنظومة الغذائية للإنسان بسبب عدم التوازن بين عدد السكان وموارد التغذية.

ويمدّنا "ابن عبد الملك المراكشي" بصورة لا تقل مرارة عن الصور التي أشرنا إليها سابقا، لمّا حدثت سنة 646هـ /1248م مجاعة باشبيلية نتيجة للحصار الذي تعرضت له فحل بالناس من الموت وباء وجوعا[2].

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أنّ معظم المجاعات التي وقعت بالأندلس كانت مقرونة بأوبئة وأمراض فتاكة زادت من تفاقم الوضع بحكم انتقال العدوى، ذلك أنّ الوباء الذي وقع سنة 571هـ/1176م زاد من حدة النزيف البشري، وكشف اللثام عن وضعية مأساوية نجد أصداءها في نص "لابن عذاري" بقوله:"ولا يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله"[3].

وبالتالي فإنّ الجوائح الطبيعية وفساد مياه الشرب والهواء وتناول الأغذية غير الصحية، هي المسؤولة عن الإصابة العالية بالأمراض إلى حد كبير، والتي مست خاصة الطبقة الفقيرة التي ضاقت ذرعا بالجوائح الطبيعية والحروب.

1-رسائل موحدية، تحقيق أحمد عزاوي ج1، الرسالة رقم82، ص303.
2-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5، ق1، ص201.
3-ابن عذاري، المصدر السابق، ص136.

2-أنواع الأمراض المستعصية

تعتبر الأمراض المستعصية بحق من أعظم مآسي الحياة مهما تقدمت حضارة الإنسان، فإن الفيروسات والبكتيريا وغيرها من مسببات العدوى ستظل بالمرصاد للفقراء؛ عندما يكثر الإهمال أو تنتشر الفاقة أو تشتد المجاعة، وقد كانت الطبقة العامة أكثر عرضة للأمراض المعدية نتيجة لتدني مستوى معيشتهم، فواجهوا أمراضا خطيرة كانت أعظمها الطاعون والجذام.

أ-الجذام

يعتبر الجذام واحدا من أكثر الأمراض المعدية المزمنة تشويها وإعاقة للإنسان، فهو يؤثر على الجلد ليؤدي إلى مختلف التشوهات،فتتآكل منها الأعضاء وتتساقط[1]، لذلك اعتبره" ابن رشد" من العلل الرديئة التي تصيب البدن وتفسد أعضاؤه[2].

لقد احتل مرض الجذام موقع الصدارة من الأمراض في الأندلس، وقد ارتبط بأمراض أخرى كالجرب والبرص، غير أنّ المصادر المطلع عليها لا تفيدنا بشيء بخصوص هذه الأمراض، ويبدو أن سبب الإصابة بهما يعود إلى مساكنة المجذومين واستنشاق الهواء الفاسد[3].

والملاحظ أنه تزايد عدد المجذومين في الأندلس، حتى تطلب تخصيص للمرضى المصابين بالجذام باب خاص بهم يخرجون منه يدعى باب المرضى[4]، وهذا تفاديا للعدوى من جهة وخوفا على سلامة الآخرين من جهة أخرى، حتى أصبح المجذوم منبوذا في المجتمع ومثيرا للقلق وهو ما حفظته لنا أمثال العوام[5].

ولكن الملفت للانتباه هو أنّ العامة أعطت سببا لحدوث مرض الجذام، غلب عليه الطابع الخرافي الذي لقي حظه ضمن تفسيرات هذا المرض، فاعتبر أهل باجة أنّ من

1– عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص173

2- ابن رشد، الكليات في الطب، تحقيق وتعليق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2005ص.97

3- حبيب مصطفى عز الدين، المرجع السابق، ص415

4- العمري، المصدر السابق، ص230

5-قالت العامة:"اقل للمجذوم: تكل مكشوف؟ قال: لن يزيد النحس ينقص"، الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 79،ص23

يصيبه مرض الجذام فذاك عقاب من الله، وهو ما حدث لعمر بن سحنون (ت568هـ/1172م) عندما عاقبه الله بمرض الجذام[1].

ولكن يصعب تفسير هذا السبب فهو بعيد عن الواقع، إذ لم تكن الأسباب التي وضعها أهل الاختصاص لتحدد سبب حصول المرض عند العامة التي عجزت عن إيجاد تفسير لمرض الجذام، فاعتبروه عقاب إلهي يستوجب البعد عن صاحبه حتى لا يتعرض الآخرون منه للأذى.

ب-وباء الطاعون

يعتبر مرض الطاعون من أشد الأمراض الوبائية المعدية التي فتكت بالإنسان عبر التاريخ، إذ يرتبط حدوثه بوقوع أوبئة بين البشر تؤدي إلى فساد الهواء، إذ يموت الناس دون أن يصيبهم مرض، وهذا راجع كله إلى تغير ظروف البيئة المحيطة بالإنسان.

لحقت بالمجتمع الأندلسي في العصر الموحدي وضعية مأساوية بسبب حدوث الأمراض الوبائية، عندما تلازمت فيها حروب الموحدين بانتشار الأمراض وعجز الإنسان عن مواجهتها لمّا قام بإشعال الحروب وما انجر عنها من انتشار الأمراض الخطيرة، كان أعظمها الطاعون العظيم الذي ظهرت بوادره عام 572هـ / 1176م عندما عزم الخليفة أبو يعقوب على الانصراف من الأندلس على رأس جيش في حملة عسكرية فظهرت ملامح هذا الوباء بمدينة كونكة، لما استغاث أهلها بأمير المؤمنين وكان الناس من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة[2].

إنّ هذا الوضع الذي آلت إليه الأندلس، كانت له جذوره العميقة في التكوين السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمعظم أرجاء البلاد، فانتشر البؤس الذي أخرج حقيقة المأساة الرهيبة التي عانى منها البشر خاصة فئة المستضعفين، من جراء سوء التغذية حتى أنهم لم يستطيعوا الحركة.

لقد فتك هذا الوباء القاتل بأرواح الكثيرين، غير أن المصادر وللأسف لم تعطينا إحصائيات دقيقة عن عدد الموتى فقد اكتفت بالتعبير عن كثرتهم دون الإشارة إلى العدد،

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص129
2-ابن عذاري، المصدر السابق، ص137

وبذلك أضحى مرض الطاعون الشغل الشاغل للسلطة الموحدية، في وقت لم تستطع فعل شيء اتجاه خطره الذي أصبح يهدد حتى الحكام أنفسهم في قصورهم، والأكثر من هذا دلالة أنه كان يموت في كل يوم في دور الحكام ثلاثون شخصا حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم[1].

فإذا كانت قصور الأغنياء تحصي يوميا عدد القتلى حتى أصبحت شبهفارغة[2]،فماذا عن الفقراء الذين عاشوا طيلة حياتهم البؤس والفقر يكابدون آلام المحن والأزمات؟ يؤكد المؤرخ" ابن أبي زرع" أن هذا الوباء زاد من معاناة المستضعفين سنة610 هـ/1213م، عندما انتشر هذا الوباء العظيم انتشارا بقوله: "وفيها -أي السنة المذكورة-كان الوباء العظيم بالأندلس"[3].

وبالتالي كان لهذا الوباء القاتل أثر كبيرعلى البيئة في بلاد الأندلس وانعكس ذلك على الحياة العامة، وأثر تأثيرا كبيرا على كل منحى من مناحي الحياة، ويصور لنا المؤرخ نفسه محنة هذا الوباء قائلا:"وكان الناس يموتون فيه من غير مرض، فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه فان مات حمل إلى موضعه وأهله"[4].

وثمة إشارة جدّ مهمة توضح هروب أكثر السكان إلى البلدان الأخرى بحثا عن ظروف حسنة للعيش بعيدا عن الأوبئة، إذ ينوّه "الحميري" في أخبار سنة 635هـ/1238م التي عم فيها الموت الكثير بالمغرب والأندلس، أنه هرب أكثر أهل البلاد جراء تفشي وباء الطاعون[5].

وما هذا النص إلاّ دليل واضح على أن المستضعفين والفقراء هم أكثر عرضة للموت والهجرة أثناء انتشار الأوبئة بينما ينحشر الخواص وحاشيتهم في القصور.

1- ابن عذاري، المصدر السابق ، ص136
2-ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ط) 1987، ص72
3-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص272
4- المصدر نفسه، ص145
5-الحميري، المصدر السابق، ص255

لم يكن الطاعون الوباء الوحيد الذي فتك بأرواح طبقة عريضة من العوام، بل تزودنا مصادر الفترة مجال الدراسة[1] بانتشار أمراض أخرى يتبادر إلى أذهاننا أنها أمراض سهلة العلاج وليست بالخطرة، ولكنها في أوساط العوام قد تؤدي بحياتهم نتيجة انتشار الفاقة وسوء التغذية،و ينبهنا لذلك الطبيب " ابن زهر" عندما أشار إلى مرضى عاصرهم أصابتهم علل مختلفة أدت إلى وفاتهم، إذ يذكرأنّ رجلا أصابته علة عظيمة وهي السعال الشديد حتى ذهب معظم لحمه[2]،ومات آخر بحمى عظيمة أصابته[3]، وتسبب إسهال في وفاة محمد بن أحمد بن أبي جعفر من أهل بلنسية سنة 586هـ/1190م[4]، وتوفي محمد بن أحمد بن أبي خيثمة سنة 639 هـ/1241مبعلة البطن بعد أن اشتكى منها مدة ثمانية أشهر[5]،كما توفي عبد الرحمن بن احمد الأنصاري بذبحة أصابته سنة 566هـ/1170م[6]،وأصيب يحي بن عبد الرحمن القرطبي بفالج أقعده و أدى إلى وفاته بمالقة سنة 563هـ/1167م[7]؛ ومن الملفت للنظر أنه حتى الأطباء أنفسهم لم يسلموا من بعض الأمراض إذ يشير" ابن أبي أصيبعة" إلى طبيب الحاكم يعقوب المنصور وهو أبو الحجاج يوسف بن موراطير[8]، أنه توفي بعلة النقرس[9]، فإذا كانت هذه الأمراض تصيب الأطباء أنفسهم بالرغم من باعهم الطويل في ميدان الطب، فماذا عن العامة المستضعفين الذين مستهم العديد من الأمراض المعدية بسبب انتشار الفاقة.

3-أساليب العلاج عند العامة

لا سبيل إلى الشك في أن انتشار الأمراض جعل الكثير من العوام يلجؤون إلى الطب البديل أو الشعبي الذي أصبح أكثر استقطابا للمرضى، نتيجة دخلهم الزهيد مما جعلهم

5-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص205/ ابن زهر، المصدر السابق، ص200-201/ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج6، ص149 .
2-ابن زهر، المصدر السابق، ص200
3-المصدر نفسه، ص201
3-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج6، ص149
4-ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص216
6- الذهبي، المصدر السابق، ص245.
7-المصدر نفسه، ص412
7- أبو الحجاج يوسف بن موراطير كان فاضلا في صناعة الطب، خدم بصناعة الطب الخليفة يعقوب المنصور، ولما توفي خدم ابنه الناصر، ومن بعد الناصر خدم لولده أبي يعقوب يوسف المستنصر، وكان قد عمر عمرا طويلا، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق،ص.490
8-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ،ص490، وتوفي بعلة النقرس أيضا الكاتب أبو إسحاق برّار بن محمد سنة 559هـ/1163م، ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق،ص9205

يبحثون عن الاستشفاء من دون دفع المال، وأنّ المرض بصفة عامة كان يصيب الطبقة الفقيرة من الضعفاء على العموم.

عانى العوام في الأندلس من انتشار أمراض خطيرة بسبب انتشار المجاعات وما انجر عنها من سوء التغذية، حتى جعلت بعض الأطباء يطببون الناس من دون أجرة[1]، أما الطبيب أبا بكر بن طفيل(ت581هـ/1185م)[2]، فإنه خصص دارا لمن يجتاز به من الأضياف وأصحاب الآلام[3].

وما هذا إلاّ دليل واضح على أن العديد من العوام لم يجدوا حتى المال لعلاج أنفسهم من الأمراض التي كانت تصيبهم فيلجؤون إلى علاج أنفسهم بمعارفهم، وبالرغم من اختلاف صور ووسائل هذا العلاج وتباينها وتضاربها أحيانا، فإنّ ما يجمع بينها ويوحدها هو كونها نابعة ومنحدرة من تجربة تاريخية حفظتها الذاكرة الجماعية وصارت توظفها في خدمة المجتمع، وتجب الإشارة إلى أن كثيرا من عناصر هذا الطب مأخوذة من الطب العلمي، لكن وصولها إلى العامة أفقدها صبغتها العلمية وأضفى عليها صفة البساطة والتفاهة أحيانا[4].

ولهذا نجد أن الكثير من الناس اعتمدوا على العلاج الروحي و العلاج بالأعشاب الطبيعية، فانتشرت صناعة الأدوية والعقاقير في الأندلس بسبب وفرة الأعشاب، وهو ما ساعد العشابين على تركيب أدويتهم في دكاكينهم لعلاج المرضى، وقد كان لهؤلاء العشابين الخبرة في الأعشاب وأنواعها وفوائدها، لذلك قصدهم الناس للتزود بحاجياتهم، فقد كان للعشاب أحمد بن محمد الاشبيلي (ت562هـ/1166م) دكان متسع يقعد فيه لبيع

1-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص492

2–أبو بكر محمد بن طفيل، كان جليس يوسف بن عبد المؤمن ويستفيد منه يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهارا ولا يظهر، حتى اتهم بأنه سمه، وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بأنه أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته، توفي ابن طفيل بحضرة الموحدين مراكش، وذلك 581هـ/1185م وحضر جنازته الخليفة الموحدي أبي يعقوب المنصور، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص177/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص480/ /ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص69.

3- ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، ج2، ص69

4-محمد حقي، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال، المغرب،2007، ص64

الحشائش الطبية والنفع بها[1]، حتى أطلق عليه اسم عبقري الصيدلة[2]، أما الطبيب العشاب حسن بن أحمد بن عمر(ت603هـ/1206م) فقد كان موفقا في العلاج وفاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب[3].

وتعتبر الأسواق المكان المناسب للعديد منهم لممارسة مهنتهم وبيع الأعشاب وإعداد الأدوية للفئات المستضعفة، كما اتخذ العديد من الأطباء دكاكين لهم في الشوارع والأسواق[4] وحتى بجانب المساجد؛ وهو ما أشار إليه" العمري" عند وصفه لدكاكين العطارين التي كانت تحيط بجامع غرناطة[5].

وهو ما يبين أنّ العشابين كانوا يقيمون دكاكينهم بالقرب من التجمعات، ومن هنا نستنتج أن الدكاكين والأسواق صارت المظهر الطبي البارز في الأندلس في العصر الموحدي والتي استقطبت الكثير من الزبائن وجعلتهم يبحثون عن العلاج بالأعشاب الطبية؛ هذا عن الطبقة التي كانت تملك ما تيسر لها من مال لشراء الأدوية من العشابين، أما الطبقة المستضعفة فإنها كانت تعالج المرضى بالأعشاب التي تلتقطها من الطبيعة اعتمادا على معارفها[6].

فضلا عن ذلك اعتقد الكثير من العوام في نجاعة مياه العيون لعلاج بعض الأمراض، فوجد في جامع المرية ماء قليل ينزل من السارية اليمنى مما يلي المنبر كل من تنثّر به عالجه من الحمى[7]، وقرب مدينة مرسية توجد عين ماء عذب بارد يقصدها من علق العلق بحلقه فيفتح فاه فيسقط العلق من الحلق لحينه[8].

إذن كانت مياه العيون الباردة تعالج العديد من الأمراض كالحمى، العلق والوجع حسب اعتقادات العامة، كما وجدت حمات حارة تعالج أمراض أخرى ويبدو أنها كانت

1-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1،ق2، ص513
2- إسلام صبحي المازني، المرجع السابق، ص158
3- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص214
4-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص188
5-العمري، المصدر السابق،230
3-أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق،ج1،ص101/ أبو حامد الغرناطي، المصدر السابق، ص114.
4-الزهري، المصدر السابق، ص.206
5-الحميري، المصدر السابق، ص539.

مخصصة للأمراض الجلدية المعدية وخوفا من انتشارها خصصت السلطة أموالا للحد من انتشارها فقد أجرى الحاكم

يعقوب المنصور بالإنفاق على أهل المارستان والجذمى والعميان في جميع عمله[1].

اهتم سكان الأندلس ببناء مراكز صحية للأمراض المعدية، كالجرب والجذام والجذري التي كانت عادة ما تصيب عوام الفقراء والضعفاء بغية التداوي بالمياه المعدنية الحارة، أهمها الحمات التي كان يقصدها المصابون منها حمة مالقة حيث الماء الساخن العجيب الغريب[2]، وحمة جيان عظيمة[3]، التي كان يقصدها عدد من المرضى وذوي العاهات أملا في الشفاء، إذ وجد بالقرب من بجانة من ناحية الغرب حمتين صغيرتين هما حمة غشتر وحمة شتين[4]، وفي رحلته إلى الأندلس أشار "ابن بطوطة "إلى" الحمّة التي بها العين الحارة، وفيها بيت لاستحمام الرجال، وبيت لاستحمام النساء"[5].

لقد كان المرضى يقيمون في الحمة لغاية شفائهم، وهو ما يوضح أنّ اعتقادهم كبير في أنها كفيلة وحدها بشفائهم، وبذلك فإنهم غير مضطرين للجوء إلى الأطباء، وهو ما أكّده "الإدريسي" عندما قال:"كان يقصد الحمة عدد كبير من المرضى وذوي العاهات ومن كل الجهات فيلزمون المقام بها إلى أن تستقل عللهم ويشفوا من أمراضهم"[6].

لقد أقبل الأندلسيون على العيون والحمات قصد الاستشفاء، وتجدر الإشارة إلى أن السلطة الموحدية قد سخرت جهودها للحد من انتشار بعض الأمراض المعدية كالجرب والجذام،فقام الحاكم يعقوب المنصور ببناء المارستان للمرضى والمجانين وجارى الإنفاق على أهل المارستان والجذمى والعميان في جميع عمله[7].

فلا ندري إن كان هذا تقربا للعامة، أم خوفا من العدوى خاصة إذا علمنا أنّ الخليفة عبد المؤمن بن علي قد أصيب به[8]، أم خوفا من الاعتقادات السائدة حول هذا المرض إذ

1-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص217
2- النباهي، المصدر السابق، ص97
3- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص46
4-االادريسي، المصدر السابق، ص201
5-ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ط3، 2007، ص390
6-الادريسي، المصدر السابق،ص200
7-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص217
8– عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص173

اعتبرت العامة أن من أصابه مرض الجذام فذاك عقاب من الله[1]، ومهما يكن من أمر هذه التساؤلات، فإنّ السلطة قد اتخذت التدابير لمواجهة الأمراض والأوبئة وجهزت كل الوسائل الضرورية لصحة السكان.

كما لجأ بعض المرضى إلى كرامة الأولياء والمتصوفة باعتمادهم على العلاج بالدعاء، فقد كان الفقيه الزاهد أبو عمران المرتلي[2] قبلة للعوام يستوهبون دعاءه[3]، أما إذا إذا توفي الولي فقد كانت العامة تقصد ضريحه للتبرك به[4]، عندما شكل تراب الأضرحة والقبور استعمالا واسعا في أوساط العامة للعلاج فاتخذوه علاجا لبعض الأمراض، فيمسحون به وجوههم أو يعلقونه، فكان العوام يتبركون بتراب قبر أحد المتصوفة ويأخذون منه بعض الشيء قصد الاستشفاء به للمرضى[5].

ويبرز هذا النص أن استعمال تراب القبور وأماكن إقامة الأولياء كان منتشرا في الأندلس، واستقطب فئات العامة التي كانت تبحث عن كل الطرق للعلاج بالطب الشعبي، أما بعض المرضى فقد اختاروا طريقة سهلة للعلاج وهي اللجوء إلى العرافين الذين ينظرون في الأكتاف والغبار والرصاص الذائب، وهي أمور واسعة الانتشار، وهو ما نستشفه في نازلة وردت عند الونشريسي مفادها " حكم النظر في الأكتاف والغبار والرصاص"[6]، وظل العلاج بكي المريض آخر وسيلة يلجأ إليها المرضى لعلاج أنفسهم حسب ما عبرت عليه العامة في أمثالها الشعبية[7].

يتبين مما سلف أن طرق العلاج في الأندلس قد اتخذت أشكالا مختلفة من طرف العوام الذين لم تسمح لهم ظروفهم الاجتماعية التوجه إلى الأطباء للعلاج، واكتفوا بعلاج كافة أنواع الأمراض بالتوجه إلى الحمات والعيون، والمداواة بالأعشاب الطبيعية،

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص296

1-الفقيه أبو عمران المارتلي، أحد شعراء الزهد بالأندلس، والمار تلي نسبة إلى بلده حصن مارتلة، ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص136/المقري، المصدر السابق، ج3، ص225

3- ابن سعيد، المصدر السابق، ص137

4- تبرك الناس بزيارة قبر الوليد بن محمد بن أحمد (ت سنة 590هـ/1193م) ابن الزبير، المصدر السابق، ص316

5- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س5،ق1،ص430/ ابن الزبير، المصدر السابق، ص269

6-الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص182

7-تقول العامة:"آخر الطب الكي"الزجالي، المصدر السابق،مثل رقم248، ص61

7ص61

والتوجه إلى الأولياء والتبرك بهم، وبذلك عبرّت تلك الأمراض عن مظهر آخر من مظاهر الفقر التي عاشتها هذه الطبقة، في ظل ظروف معيشية صعبة جراء تداخل الجوائح الطبيعية بالفتن البشرية، عانوا من خلالها مرارة أمراض مستعصية من جهة والفاقة من جهة أخرى.

ثالثا-السحر والخرافات السائدة

يعتبر السحر والخرافات والتنجيم من الظواهر الاجتماعية التي شهدتها الأندلس في العصر الموحدي، والتي اعتبرت إفرازا طبيعيا للمشاكل والأزمات التي عرفها هذا العصر، فالصعوبات التي واجهها الإنسان جعلته يعيش حياة مرتبكة هيمن عليها هاجس الخوف، ولذلك أراد الخروج من تلك الاضطرابات والمشاكل والارتباك بأي وسيلة حتى وإن تطلب الأمر الذهاب للسحرة والمشعوذين، أو استعماله طقوسا سحرية، وتصديقه للبدع والخرافات الشائعة لحل مشاكله وتأمين معاشه.

انتشرت في بلاد الأندلس اعتقادات كثيرة عند العوام ولكن ماهي الأسباب التي جعلت طبقة عريضة من المجتمع تلجأ إلى تلك المعتقدات والأفكار الغيبية للتعبير عن أمانيها؟ .

يمكن إرجاع انتشار المعتقدات الغيبية إلى سرعة تصديق العامة لتلك الأفكار والمعتقدات القديمة، خاصة منها المتعلقة بالظواهر الطبيعية وخوف الإنسان من غضب الطبيعة وضياع مورد معاشه وهو الماء والأرض، فراح يصدق كل الخرافات،ومن ذلك تصديق عوام قرطبة خرافة دور الطلسم الذي انتزعه الحاكم يعقوب المنصور وما أصاب المدينة بعد ذلك من ريح عاصف بسبب اقتلاعه بقول" ابن عذاري":" لما نزل المنصور بقصر قرطبة ومشى أثناء ذلك للزهراء بنية الاعتبار بآثار القرون الذاهبة والأمم السالفة فأمر بقلع الصورة التي كانت على بابها وكان من الاتفاق أن ذهبت ريح عاصف بأصيل ذلك اليوم أثرت في خباء الساقة بعض التأثير وقطعت في طنبه كالقطع اليسير فأرجف

الجهال من عوام قرطبة أن ذلك بسبب صورة الزهراء وان كانت طلسما لما ارتدعها من الأشياء"[1].

فيتضح من خلال النص اعتقاد العوام أن عواصف الرياح التي ضربت قرطبة كانت ناتجة عن اقتلاع أحد طلاسمها، وهذا ما يفسر قوة تأثير الرياح ككارثة طبيعية في حياتهم، إذ بعث في نفوس من صدقها الذعر فهذا التعليل يبين أن العوام كانوا أكثر تصديقا لتلك الخرافات بحكم تدني مستوى الوعي في صفوفهم وسهولة تقبلهم لأفكار الخلاص مهما كانت عارية من روح العلم ومنطق العقل[2].

ومن مظاهر تصديق العامة للخرافات المرتبطة بالجوائح وتقبلهم للشائعات ما نص عنه "الحميري" عن أهل لورقة :"الذين زعموا أن فيها جرادة من ذهب طلسما لدفع مضار الجراد، فسرقت من هناك، فلم يزل الجراد من حينئذ ظاهرا عندهم فاشيا"[3].

ومن هنا نستنتج أن العوام كان تفكيرهم خرافيا لأنهم ربطوا آفة الجراد بالطلسم، خاصة وأن الجراد هو أحد أسباب هلاك المحاصيل الزراعية، ومن تم صدقوا تلك الخرافة ظنا منهم بأنّ الطلسم سيدفع عنهم مضار الجراد، ومن القرائن الدالة على تصديق العواملكل الخرافات المتعلقة بالظواهر الطبيعية، اعتقادهم أنّ الناس بغرب الأندلس إذا أحبوا المطر أقاموها فيمطر الله جهتهم، وهذا ما أثار دهشة واستغراب المؤرخ "ابن سعيد"[4].

وبما أنّ الأندلس قد ترددت عليها فترات من القحوط والمجاعات، فقد مهدت الطريق لتسرب بعض الخرافات في أوساط العوام، إذ تراهم يحتفلون بالأعياد الفلاحية أو عيد العنصرة، وهو المعروف عندهم بالمهرجان[5] ظنا منهم أنهم بإحيائه سيؤمنون موارد عيشهم التي تخضع لمؤثرات المناخ، خاصة وأنّ بإحياء هذا العيد فإنهم سيودعون فصلين جميلين و سيستقبلون فصلي الخريف والشتاء، وما يصحب هذين الفصلين من تهديد

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص205
2- عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص133
3- الحميري، المصدر السابق، ص513
4- ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص204.
5- ابن البيطار، المصدر السابق، ص390

الطبيعة لموارد الإنسان[1]،فيرتدون الثياب البيضاء في المهرجان، ولا تخلع إلّا عند استهلال أول يوم من شهر أكتوبر، فهذا السلوك جزء من نسق الطقوس الاحتفالية الرمزية المصاحبة للمهرجان ، والغنية بدلالات التبرك والتطهر لطرد عوامل القحط واستجلاب الغيث، ذلك أن الثوب الناصع لا ينزع إلا بعد بدء موسم المطر[2].

ومن شدة تقديسهم لعيد العنصرة وإحيائه كل سنة، ادعاؤهم أنّ في هذا العيد يسمعون فيه صراخ نبات اللوف، ويقولون من سمعه يموت في سنته تلك[3]،فهذا الاعتقاد مهدت موارده إلى انتشار خرافات لا أصل لها في أوساط العوام، الذين تسربت إلى أذهانهم أساطير لا أصل لها فراحوا يصدقون أي شيء لإبعاد شبح الجوع أو الموت.

وساد الاعتقاد بالفأل في الأندلس ودلالته على الخصب العام، فتفاءلوا بنبات البصل البري وهو أول نبات يقوم في الخريف، وهو عندهم سمة للعام الطيب يتفاءلون بكثرة زهره[4]،فتجدهم يبتهجون في موسم العصير ويتفاءلون به، وتصوروا أنّ إنجاب الأطفال في مناسبة عيد العصر سيجعلهم محظوظين وسعداء[5]، وبالمثل فإنهم يقيمون لعيد النيروز احتفالا لأنهماعتقدوا أنه يدخل السرور عليهم ويوسع في الترفيه لأحوالهم وتبشيرا بخصب عامهم وتفاؤلا لبسط الرزق فيه لهم فيبهجون[6].

وفي هذا المنحى أحدثت بعض المزاعم الشعبية المتعلقة ببعض النباتات البرية خوفا وسط شريحة من العوام، الذين اعتقدوا أنّ المرأة الحامل إذا تخطّت نبات يدعى الحرشاء أسقطت جنينها[7]،وأنّ نبات جوز النعاس إذا أخذ وعلق على الأطفال نوّمهم[8]، وساد الاعتقاد عندهم بضرورة تحصين البيوت بنباتات التقطوها من الطبيعة[9]،فمثلا غرس

1-قالت العامة:" خروجك من ينير أخير خروجك من العنصر"، الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 914، ص205
2-عبد الهادي البياض، المرجع السابق، ص145
3- ابن بيطار، المصدر السابق، ص390
4-أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج2، ص438
5-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص226
6-ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1،ق2، ص566
7-أبو الخير الاشبيلي، المصدر السابق،ج1، ص194
8- المصدر نفسه، ص147.
9-نفسه، ص71

غرس نبات العوسج في الدار سيبطل تأثير السحر[1]،وأكل الفجل بالعسل يبطل السحر أيضا[2].

إلى جانب هذه المعتقدات الشائعة انتشرت ظاهرة معرفة الغيب وتتجلى في إمعان النظر في كتف الشاة وقراءة ما فيها من رموز وهي طريقة برع فيها المهدي ابن تومرت[3]؛ لإستقطاب قاعدة عريضة من العامة في بداية دعوته، وهذا ما يبين انسياق السلطة حول تصديق المنجمين واعتمادهم عليهم في أغراضهم السياسية، فهاجس الحرب والصراعات كانت من مجمل القضايا التي جعلتهم يعمدون إلى التنجيم لقراءة الطالع وكشف خبايا المستقبل[4].

ولا سبيل لإنكار أنّ العامة كانت أكثر الشرائح الاجتماعية استعمالا للسحر، هذه الظاهرة التي لم تكن في حقيقة الأمر سوى تعبير عن خفايا المجتمع العامي[5]،الذي لم يجد وسيلة لتحقيق طموحاته سوى اللجوء إلى السحر رغبة في قضاء حوائجه من أيسر طريق، فزعم الكثيرون إلى استعمال الشعوذة كلما سدّت في وجوههم الأبواب، وقد أشار "الزجالي" إلى ذلك في أزجاله التي تنبه بكثرة المشتغلين بالسحر خاصة من طرف النساء بقول العامة: "ضرابةالخفيف، المقرع والتكتيف"[6]، اللواتي حرصن على تحسين أوضاعهن الاجتماعية مهما كلفهنّ الأمر فيلجأن إلى من يدّعون السحر ومعرفة الغيب من أجل ذلك، فيصنعون لهم الحروز التي كانت تعلق على أجسام أصحابها لتحجب عنهم

1-ابن زهر، كتاب الأغذية، تقديم وترجمة وتحقيق، اكسييراثيون غارثيا، المجلس العلمي للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1992، ص106

2-إبراهيم القادري بوتشيش، الفكر السحري والعرافة بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ملتقى الدراسات المغربية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك السعدي، تطوان،1993، ص346

2-نفسه، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص119، نقلا عن ابن حجر التميمي، منتهى الأعلام بوفاة الصحابة وملوك الإسلام، مخطوط رقم 1507، الخزانة الحسنية، الرباط، ص470

3-رقية بن خيرة، الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنيين الخامس والسادس الهجريين(ق11-12م) -دراسة في ظاهرة الانحراف، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة معسكر، 2016-2017، ص136

5-ينظر إبراهيم القادري بوتشيش، المقال السابق، ص342

6- الزجالي، المصدر السابق، مثل رقم 1632، ص372.

الأضرار وعبرت العامة عن ذلك بـــ"حروزحطاب"[1]، و بالمثل لجأت البغايا إلى ممارسة السحر باستعمال النباتات الطبيعية في أعمالهن[2].

وقد كان المشتغلون بالسحر والشعوذة يمشون في الأسواق وهم يضحكون لجذب المارة إليهم ويبادرونهم بالسؤال، وهو ما حدث فعلا عندما " ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل وجد قلوبا منحرفة عن دولة بر العدوة مهيأة للاستبداد فملكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنّه صاحب شعوذة يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال"[3]،كما نجد بعض السحرة يقصدون بائعي العقاقير الذين مارسوا الدجل والشعوذة[4]، مستغلين جهل العوام حتى أنهم كانوا يبيعون عقاقير مزورة فيستبدلون الأصلية منها بأخرى تشبهها من النبات البري الذي كان متوفرا في جبال الأندلس[5].

وهناك معتقد آخر والذي أصبح من العادات الراسخة عند أهالي منطقة لماية[6]، إذ وجد بإحدى جبالها تمثال تختبر فيه الفتاة إن كانت بكرا أم لا، فاعتقد أهلها أنه لا يسقط من منخر ذلك التمثال الأيمن نقط ماء، وأنّ العذراء من النساء تختبر به وذلك بأن تحاذي بيدها أنف التمثال فإن كانت بكرا قطر الماء في يدها، وإن لم تكن بكرا لا توافق يدها ولو جهدت في ذلك جهدها[7].

وإلى جانب ذلك شاعت روايات باطلة امتزجت فيها ذهنيات العامة وإيمانهم بالفكر الخرافي،بطلها ساحر يدعى أبو عبد الله علي بن محمد بن رزين الجزيري المشار إليه سابقا، فقد أحدثت هذه الرواية هلعا في شرائح عريضة من المستضعفين، و نسجت حول هذا الثائر الذي فشل الموحدون في إلقاء القبض عليه في بلاد المغرب وتمكن من الفرار

1-المصدر نفسه، مثل رقم843، ص192
2-ابوالخير الاشبيلي، المصدر السابق، ج2، ص617.
1- المقري، المصدر السابق، ج1، ص215.
4-ليوبولدو طريس بالباس، المرجع السابق، ص498
5-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
6-إقليم لماية من أقاليم كورة رية بالأندلس، وبهذا الإقليم جبل متصل بفحص قرطبة ويعرف بوادي لماية، الحميري، المصدر السابق، ص511
7- المصدر نفسه، ص512

إلى الأندلس[1]، خرافة وسط العوام بأنه ساحر عليم[2]، وأنّه يتقمص صورة الحيوانات كالقطط والكلاب والحمير وغيرها[3]، فانطلقت حيلته تلك على ذهنية العامة التي أصبحت ترجم الكلاب بالسنانير أملا في التخلص منه[4].

وربما تكون هذه الإشاعات التي نسبت للجزيري بأنه ساحر، هو ما جعل السلطة الموحدية تقتله تقربا للعامة، وللإشارة فإنّ الممارسات والطقوس الخرافية والانشغال بالسحر لم تخص طبقة العوام فحسب بل حتى الخواص، فالمهدي ابن تومرت" وصف بأنه كان حاذقا في ضرب الرمل"[5].
ويرجح أن يكون هؤلاء الخواص قد مارسوا طقوسهم في سرية، فاعتناؤهم بعلم التنجيم والفلسفة مبرر لذلك، فقد علت همة الحاكم أبي يعقوب يوسف إلى تعلم الفلسفة "فجمع كثيرا من أجزائها وأمر بجمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي"[6].

ولم تكن هذه الرواية الوحيدة التي تدل على انشغال الخواص بالفلسفة بقول"ابن سعيد":" وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم، فإنّ لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولايتظاهر بهما خوفا من العامة، فإنه كلما قيل – فلان يقرأ الفلسفة - أويشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه، فأنزل في شبهة ورجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أويقتله السلطان تقربا لقلوب العامة"[7]، وثمة إشارة دالة على تقريب الحكام الموحدين للمنجمين، ومن كان يشتغل بهذه العلوم[8]، ولكنهم أخفوا ذلك بسبب تلك الكراهية التي كانت تصيب من يدرس الفلسفة أو يتعلمها، حيث يرمى من يشتغل بهذه العلوم بالزندقة والانحراف، ولتجنب سخط العامة

1- ابن عذاري، المصدر السابق، ص207
2-محمد المغراوي، المرجع السابق، ص44
3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص246.
4-المصدر نفسه، الصفحة نفسها
5-العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت(د.ت)، ج4، ص71
6-عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص175
7-المقري،المصدر السابق، ج1، ص221
8-يشير ابن عذاري إلى أن بعض المنجمين كانوا يخبرون أمراء بني عبد المؤمن بما سيحدث لهم، ويضيف في نص آخر إلى أن السلطان أبو الحسن علي بن السعيد كان له منجم ينبؤه بما سيحدث، ابن عذاري، المصدر السابق، ص276، 385

بدأت السلطة تضطهد كتب الفلسفة،وتشدد الحاكم يعقوب المنصور في ذلك، و"قصد أن لايترك شيئا من كتب المنطق والحكمة باقيا في بلاده، وأباد كثيرا منها بإحراقها بالنار، وشدد في أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى وجد أحدا ينظر في هذا العلم، أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عظيم"[1].

ولكننا نجد في هذا تعليلا لموقفهم، فقد حظي عندهم أصحاب هذه الكتب كابن طفيل وابن رشد بالمناصب والعطايا وإهداء مؤلفاتهم لأمراء الموحدين، غير أنهما ما لبثا أن عانيا من الملاحقة والاضطهاد ونذرت كتبهم وأصبح العثور على نسخة منها عسيرا[2]، حتى أنّ الفيلسوف "ابن رشد" عبّرعن هذا التشدد والتضييق الذي تعرض له الفلاسفة في عصره في كتابه قائلا: "إن الفيلسوف في هذه المدن، فإنه يكون بمثابة إنسان وسط الوحوش الضارية "[3]، ولذلك كانت هذه العلوم تخفى أحيانا وتبرز أحيانا أخرى حسب الحالة التي تكون عليها إرادة السلطة المتحكمة في زمام المبادرة داخل المجتمعات، والتي تظهر أكثر من مرة رضوخه الرأي جمهور الفقهاء ورأي العامة[4].

وهناك نص للمؤرخ "النباهي" يؤكد فيه أنّ الخواص اعتنوا بكتب النجوم عندما قال:"إنما وضعت كتب النجوم ليتمعّش بها الجاهلون من العامة، ولا حقيقة لها""[5]، وأنّ الادعاءات التي وجهت للعامة بشأن انشغالهم بعلم النجوم فقط تخطيط من السلطة لتجنب سخط العامة، التي عرف عنها التمرد وقلة الرضا بأمورهم على حد تعبير"ابن سعيد"عند وصفه لعامة الأندلس بقوله: "عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا، ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم"[6].

إنّ عدم قدرة العوام على تجاوز المحن التي عايشوها والظروف القاسية التي لحقت بهم خاصة في الفتن وانتشار المجاعات، جعلتهم يلجؤون إلى الفكر الغيبي وتصديقهم

1-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص479
1-خوليانذريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ترجمة الطاهر احمد مكي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية،1994، ص201.
3-ابن رشد، تلخيص السياسة لأفلاطون، ص146
3-الحبيب حاكمي، المرجع السابق، ص294.
5-النباهي، المصدر السابق، ص54.
6-ابن سعيد، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج1، ص154.

للخرافات، فذهنياتهم ارتبطت بتصديق الشائعات الزائفة والروايات الباطلة، لتغطية واقعهم المر الذي غلبت عليه الفاقة والضنك وعجز فيه إنسان الأندلس عن مواجهة الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة به من كل الجهات.

رابعا: تجليات ممارسة المروحات والمسليات.

مارس الأندلسيون كغيرهم من المجتمعات، هوايات مختلفة قصد التسلية والترويح عن أنفسهم، وسنقف عند أهم وسائل اللهو والترفيه التي مارستها العامة أوحتى التي اشتركت فيها مع الطبقة الخاصة، تحت غطاء الترويح والدعابة والتسلية ولكنها في حقيقة الأمر بيّنت بروز سلوكات اجتماعية لاأخلاقية، أدت إلى انتشار مظاهر الانفلات الديني الذي وقع فيه ذو الأهواء والشهوات.

1- الدعابة والفكاهة والسمر

اعتبرت مجالس الدعابة والفكاهة والسمر من أهم المجالس التي كان يحبها الأندلسيون من أجل الترويح عن أنفسهم، وقد أفصح المؤرخ "ابن سعيد" في مصادره المطلع عليها عن وجود المضحكين والظرفاء في الأندلس خاصة في مدينة اشبيلية، فكان عامتها يحبذون نهرها لأنه ميدان لهوهم ومضحكاتهم وتنديرهم[1]،والحقيقة أنّ النوادر أو الهزل والسخرية ماهي إلاّ سلوك أخلاقي يكشف عن ذلك التفاعل الاجتماعي الذي كان بين أوساط العامة في المحيط المجتمع، هذا الأخير الذي يعطيه حق الرقابة على الأخلاق والسلوك[2]،ولدينا خبر عن انتشار الفكاهة والسمر باشبيلية، إذ يفيدنا" الحجاري"أنّ "أهل اشبيلية كانوا من أكثر العالم طنزا وتهكّما وقد طبعوا على ذلك"[3].

1-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص208.
2-أحمد شايب، الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الثانية، 2008، ص160.
3-الحجاري، المسهب في أخبار المغرب، نقلا عن المقري، المصدر السابق،ج1، ص208.

ويضيف المؤرخ ذاته أنّ العامة ألفت دواوين في النكت والتسلية بقوله:"ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين كثرته وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب، ولا استغرب أحد ما أورده ولا تعجّب، إلاّ أنّ مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضياعا "[1].

فهذا النص قوي الدلالة على أنّ عامة الأندلس أحبوا الفكاهة والنكت والضحك بل وألفوا في هذا الشأن، وهو ما يبين غزارة إنتاجهم الثقافي العامي، ولعل ما كانت تقوله العامة من أمثال وأزجال وأدب يدل على ثقافتهم الشعبية، ومثال ذلك ما رواه "ابن سعيد" عن حافظ اشبيلية الهيثم بن أحمد بن أبي غالب[2]، أنّه من أعجب عجائبه كان يملي على شخص شعرا وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجل وكل ذلك ارتجالا دون توقف[3].

لقد كان المضحكون والهزليون وحتى الجاهلون والحمقى أو العبامون كما وصفهم أحد المؤرخين[4]، يجذبون الناس بالضحك الساخر والهزل بغرض الكشف عن عيوبهم الاجتماعية[5]،فشاهد "ابن سعيد" بقلعة بني سعيد رجلا يركّب الحكايات كثير النوادر[6]، وصحب المؤرخ نفسه عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الذي كان واحد عصره في الأدب الرائع، وقد أفنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب[7].

ولم يكن المضحكون من الرجال فقط، بل عرفت الأندلس مضحكات أمثال نزهون بنت القلاعي[8]حتى أنها اتصفت بكثرة النوادر، وهي التي قالت لابن قزمان القرطبي

1-المقري، المصدر نفسه، ج3، ص156

2-هو أديب وشاعر من اشبيلية، كان أعجوبة دهره في الرواية للأشعار والأخبار، عاصره المؤرخ ابن سعيد، لم أقف على تاريخ وفاته، ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص190/ المقري، المصدر السابق، ج3، ص377

2-ابن سعيد، المصدر السابق، ص190.

4-ابن المرابط، المصدر السابق، ج1، ص131

4- شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،(د.ط)،2003،ص220.

6-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص149

7- المقري، المصدر السابق، ج1، ص194

8- من أهل غرناطة، كانت أديبة وشاعرة، لم أقف على تاريخ وفاتها، الضبي، المصدر السابق، ص511

الزجال (ت 555هـ/1160م) وقد أمرته بغفارة صفراء وكان قبيح المنظر:"أصبحت كبقرة بني إسرائيل ولكن لا تسر الناظرين"[1].

لقد كانت مجالس الفكاهة لا تخلو من الاستجمام كتلك التي يعقدها أبو علي عمر بن محمد[2]، فتراه يأتي بحكايات ونوادر مضحكة يقرأها على أصحابه بقصد الترفيه عليهم[3].

إضافة إلى ذلك فقد وردت إشارات إلى المزاح والضحك والفكاهة عند بعض الشعراء الأندلسيين الذين وجدوا في ذلك ترويحا لنفوسهم ومرحا لهم، فقد كان أبو محمد عبد الله الحجاج الاشبيلي(ت601هـ/1204م)كثير الإجمال والمطايبة والمرح[4]،وتحدث "ابن سعيد"عن أبي زكريا[5] يوما في عسكر السلطان وهو راكب بغلة وقد انحدرت به وجاء جمل من فوقه فقال مخاطبا للجمل:"بفضلك ألا أصبر حتى امضي عنك"[6].

وبهذا فقد مزج المضحكون والهزليون الفكاهة بالأدب في مجالسهم، ومنه وصف "ابن سعيد" أهل الأندلس:" بالدعابة والحلاوة في محاوراتهم، ضف أنّ أجوبتهم بديهية مسكتة والظرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم"[7]، إذن الضحك والمزاح والنوادر كانت السمة البارزة على عامة الأندلس، لذلك لذلك انتشرت مجالسه في كل مكان، بين مختلف شرائح المجتمع، وعلى مختلف أعمارهم ومستواهم الاجتماعي، وانتمائهم الديني والعرقي.

ويضيف المؤرخ نفسه أنّ أبو علي عمر بن محمد كان يقرأ على أصحابه نوادر مضحكة، أعجبها الشاعر الاشبيلي أبو بكر أحمد الصابوني (ت636هـ/1238م) "كان يلقب بالحمار، فلا حجة يوما في مسألة فقال له: كذا هي يا حمار يا حمار، إلى أن تدرج

1-ابن سعيد، المصدر السابق، ص95

2-من أهل اشبيلية، يقول عنه ابن سعيد كان إمام النحاة بالأندلس والمغرب، قرأت عليه باشبيلية، لم يذكر تاريخ وفاته، المصدر نفسه، ص103/المقري، المصدر السابق، ج3، ص490.

3-ابن سعيد، المصدر السابق، ص104

4-ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ص43

5- لم أقف على ترجمته.

6-ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص153

7-نفسه، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج3، ص385.

حتى قال يا ملء السموات والأرض حميرا، ثم جعل أصبعيه في أذنيه وزحف إلى أذيال الحصر وهو ينهق كالحمار"[1].

والأكيد أنّ الهزل كان إحدى أهم الظواهر المنتشرة بالأندلس الموحدية خاصة في قصور الحكام الذين وجدوا في هؤلاء الهزليين راحة لقلوبهم وبسطا لأنفسهم، حتى أنّ الحافظ أبو زكريا كانت له نوادر مضحكات ويخاطب السلطان من الألفاظ العامية المحشوة بسوء الأدب بما يضحك[2]، فضلا عن وجود أحد الهزليين بقلعة بني سعيد وهوأحمد بن لب الذي كان مضحك الطلعة يمدح محمد بن سعيد صاحب القلعة[3].

ومما سبق ذكره يبدو أن الفكاهة والضحك والمزاح شكلت أهم الظواهر الإنسانية التي خصت بها الأندلس، واعتبرت من وسائل التسلية وإدخال الفرح والبهجة إلى النفوس لتجاوز الضغوطات النفسية، وتنسيهم بعض من تعب الدنيا.

2-<u>النزهة والترويح عن النفس</u>

سنحت الطبيعة البهيجة للأندلسيين الاستمتاع بأوقات فراغهم والتمتع بجمالها وقضاء فترات من الراحة والاستجمام، فاستعملوا مختلف الوسائل للتسلية والترفيه عن النفس، كارتياد الحدائق والمنتزهات وسماع الموسيقى أو التوجه للسباحة في الأودية.

تمتع الأندلسيون بمسارح الطبيعة الأندلسية الجميلة، ومستغلين في ذلك وجود المنتزهات التي كان يقصدها العوام وحتى الخواص الذين أقاموا تلك المنتزهات والقصور، فتغنى بجمالها الشعراء وأبدع في وصفها الكتاب[4]، فعندما حل الحاكم الموحدي الموحدي أبو يعقوب يوسف باشبيلية سنة 567هـ/1171م أمر ببناء قصور رائعة في ضواحي باب جهور سميت بقصور البحيرة، أقيمت حولها مزارع كبيرة، وغرست فيها أشجار الزيتون والتين والكروم وأشجار مثمرة عجيبة ومتنوعة الأصناف، كانت تنتج فواكه رائعة المذاق كما جلب من منطقة الشرف إلى البحيرة عشرة آلاف فرع من أشجار

1-ابن سعيد، المصدر نفسه، ج2، ص104
2-المصدر نفسه، ج1، ص153
3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص153
3-ينظر ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص207،108.

الزيتون، من أجود الأصناف، وأمر السلطان عماله في غرناطة ووادي أش أن يبعثوا إليه للغاية ذاتها بأصناف مختلفة من الأجاص المسمى الكمثرى ومن البرقوق المعروف بأعين الثور ومن الخوخ والتفاح كذلك[1].

لقد اشتهرت العديد من المدن الأندلسية بمنتزهاتها وبساتينها الجميلة التي كانت مقصدا للاستجمام والتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة[2]، فأهالي مالقة كانوا يقصدون واديها للهو وبساتينها الرائعة المناظر للنزهة والترويح عن النفس[3]، كما كان أهالي اشبيلية يخرجون كل يوم خميس برسم الفرجة وأكل المجبنات[4].

انطلاقا من ذلك يبدو واضحا اهتمام الحكام بإيجاد أماكن يلجؤون إليها للترويح عن أنفسهم، كما أقاموا المنتزهات العامة يقصدها الأفراد على مختلف طبقاتهم،فعرف عن غرناطة جمال بساتينها وطيب هوائها التي استقطبت كل من رغب في الاستجمام بقول "ابن الخطيب":"وفحصها لا يشبّه بشيء من بقاع الأرض طيبا ولا شرفا إلا الغوطة"[5].

علاوة على ذلك فقد كان أهل المرية في أيام الربيع يرحلون مع نسائهم وأولادهم باحتفال في المطاعم والمشارب والتوسع في الإنفاق[6]، وبالمقابل كانت عامة اشبيلية تحبذ نهرها لأنه ميدان لهوهم ومضحكاتهم وتنديرهم[7]، وقد اتخذ أهلها من ضاحيتها طريانة[8]منتزها لهم، فيخرجون إليه كلما سنحت لهم الظروف، ويقضون أوقاتهم في التنزه التنزه على شاطئ نهر اشبيلية تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار أو يصيدون من أسماكه التي لا تعد ولا تحصى أو يسبحون، أو يكترون القوارب للنزهة فيه، ويتخلل ذلك كله حلقات الرقص والغناء والشراب وسماع الموسيقى العذبة من مختلف أدوات الطرب،

1-ليوبولدو بالباس طريس، المرجع السابق، ص248

1- تواتية بودالية، الحديقة الأندلسية، مجلة عصور، وهران، العدد 24-25، 2015، ص61-62.

2-ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص207.

3-ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص156

5- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص17

6-الادريسي، المصدر السابق، ص200.

7-ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص208

7-طريانة مدينة قبالة اشبيلية وهي كالحاصر لإشبيلية لأنها أمامها من البر الآخر على نهرها الأعظم، البرسوي، المصدر السابق، ص455

ومن وقت لآخر تسمع الضحكات العالية لنادرة قيلت، أو لنكتة طريفة والجميع لاه ضاحك، وإلاّ اعتبر ثقيل الظل[1].

أما أهالي مدينة نارجة فكان لهم موعد مع واديها للهو والاستمتاع في أيام صباغة الحرير، بشهادة المؤرخ "ابن سعيد" قائلا:"اجتزت مرة مع والدي قرية نارجة، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيما، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بما يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا الطراز، فقال والدي اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه"[2].

ويستفاد من هذا أنّ الأندلسيين كانوا يحبون الخروج للنزهة، ويعدون طعاما وشرابا للنزهة، فيقضون أوقاتهم وسط أجواء الفرحة وتبادل الحديث والضحك، كل حسب رغبته.

ولم يفت لأهل مالقة الاستمتاع بالربيع، فتراهم يخرجون في هذا الفصل إلى مزارع كروم العنب والتين فيفرحون بجني المحصول[3]، ووجد بهذه المدينة واد من أحسن الأودية الأودية كان مقصدا للزوار قصد الراحة والتسلية على النفس، فتعقد على ضفافه مجالس يتبادلون فيها أطراف الحديث[4].

وبهذا شكلت الحدائق العامة والمنتزهات والأودية مصدرا من مصادر الترويح عن النفس والاستجمام في الأندلس، خاصة وأن الحكام الموحدين قد اهتموا بالحدائق العامة والبستنة وسخروا لها الإمكانيات المادية والبشرية.

3-الغناء والرقص

1-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص335
2-المقري، المصدر السابق، ج1، ص178
3-المصدر نفسه، ص349
4- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص348

ازدهر فن الغناء والموسيقى والتوشيح والأزجال في الأندلس، وغلب الغناء على المجتمع في ظل حكام يرعون الفنون ويشجعون أهلها بالبذل والعطاء[1]، وهو ما أشار إليه "الشقندي"(ت627هـ/1229م) في رسالته عن فضل الأندلس عندما قال:"جميع أدوات الطرب وشرب الخمر في وادي اشبيلية غير منكر ولا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة"[2].

فهذا النص يفسر شيوع مجالس الطرب والغناء في العديد من المدن الأندلسية، فأهالي مدينة نارجة كان لهم موعد مع واديها للهو والاستمتاع والشرب والغناء والطرب[3]، حتى غدت اشبيلية حاضرة للغناء بقول "ابن رشد":"ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب في قرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية "[4].

ويمكن القول أنّ اشبيلية تألقت من جديد واستعادت مركزها الذي كانت تتبوأه زمن بني عباد[5]، خاصة بعد أن اتخذها عبد المؤمن بن علي الموحدي قاعدة له في الأندلس، وقلد ولايتها إلى ابنه أبي يعقوب يوسف، الذي تأثر برقة الحياة في الأندلس، وشارك في الحركة الأدبية والفنية، فكان مولعا بالفنون والبناء وأحاط نفسه بترف لا مثيل له، يعيد إلى الذاكرة أيام خلفاء بني أمية العظام بحاضرتهم قرطبة[6].

ومع كثرة الغناء والمغنين بالأندلس الموحدية انتشرت الملاهي الليلية خاصة في مدينة طريانة التي أصبحت المكان المناسب لممارسة الفساد والرذيلة، لما يرتكب فيها من مخالفات على إثر شرب الخمر والمسكرات والاستمتاع بالغناء، والمغنيات وحفلات المجون والخلاعة التي كانت تُحْيا بالمدينة، حتى أصبحت مقصدا للعديد من الناس للتفرج، لأنّ الغناء مع شرب الخمر له تعاون على تفريج الكرب على رأي المؤرخ"ابن

4-السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي) مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت) ، ص113

5-الشقندي، رسالة عن فضل الأندلس، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج3، ص212،

3-المقري، المصدر نفسه، ج1، ص178

4- المصدر نفسه، ص155.

5 ـ فلنتينا سليمان عفانة، المرجع السابق، ص106

4-السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص113/ رضا عبد الغنى الكساسبة، النشر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر(د.ط) ،2004، ص121

الكردبوس"[1]، فعندما مرّ أبو جعفر أحمد بن عبد الملك[2] ليلة بطريانة، مال نحو منزه فيه طرب فسمعه[3]، ويضيف" ابن سعيد"عن هذه المدينة قائلا:" طريانة يكون فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في البلاد"[4].

بالمقابل وجدت بآبدة أصناف الملاهي والراقصات المشهورات بحسن الانطباع والصنعة، حتى وصف المقري الراقصات بأنهن" أحدق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدّاك وإخراج القروي والمرابط والمتوجه"[5].

وتعددت بذلك آلات الطرب وانتشرت أدوات الموسيقى، بقول الشقندي:"وجدت باشبيلية من أصناف أدوات الطرب كالخبال والكريك والفوطة والورطة والربابة والقانون والمؤنس والكثيرة والفنار واللامي والشقرة والنور وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيق والبوق وإن كان جميع هذا موجود في غيرها من بلاد الأندلس"[6].

وبالمثل ثمة قرائن كاشفة عن احتراف العوام الغناء كمكسب للعيش، وذلك بتعليم الجواري الغناء وتأديبهم فكان لأبي علي بن يبقى[7]جارية قد أدبها وعلمها الغناء[8]،كماكانت الغناء[8]،كماكانت بعض عجائز النسوان تقمن بمهنة تعليم الغناء لجوار مملوكات لهن ومستأجرات عليهن[9].

وبذلك تألق العديد من المغنيين أمثال أبي عامر بن محمد بن الحمارة الغرناطي[10] الذي كان يعمد للشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عودا للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به[11]،ونبغ في الموسيقى أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الأديب[1] (ت

1-ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص369

6-أبو جعفر احمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة، وكان احد كتاب أبو سعيد بن عبد المؤمن، ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص136/ المقري، المصدر السابق، ج4، ص192

3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص214

5- المقري، المصدر السابق، ج3، ص525

6-الشقندي، رسالة في فضل الأندلس، نقلا عن المقري، نفسه، ج3، ص213.

3-أبو علي بن يبقى، ولي أعمال مالقة حين كان واليها أبو العلاء مأمون بني عبد المؤمن (624هـ/1226م)، لم أقف على تاريخ وفاته، ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص354

8- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

9- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص116

6-هو شاعر وأديب يقول الضبي:" أنه خبيث الهجاء"، ويضيف ابن دحية بأنه كان وزيرا، لم أقف على تاريخ وفاته،الضبي، المصدر السابق، ص495، ابن دحية، المصدر السابق، ص109.

11- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص94

579هـ/1154م) الذي وصف بأنه كثير المداعبة، ويعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود[2].

لقد كان المغنون يغنون بالزجل فتذوقه العوام وهو في الحقيقة يتضمن حياتهم الاجتماعية، فهو خير معبر عن عواطفهم[3]،ومثال ذلك ما رواه "ابن سعيد "عن يحي بن عبد الله بن البحبضة[4] الذي كان يقول أزجالا على طريقة البداوة التي يغنّون بها على البوق[5].

انتشر الغناء في الأندلس وأقبل الناس عليه، وظهر العديد من المغنيين والموسيقيين لعرض أغانيهم وسط حلقات الرقص والشراب وسماع الموسيقى العذبة من مختلف أدوات الطرب[6]، ومن ثمّ انتشر فن الرقص الذي ارتبط بمجالس الغناء والطرب على أنغام الموسيقى، ومن الصعب أن نتعرف على جماعة تحترف الرقص دون مصاحبة الغناء والموسيقى، ولذلك فقد اعتبر الرقص من مكملات مجالس الغناء في الأندلس، فهو ينطق بالمشاعر في آفاق رحبة تعبر عن رغبة النفس البشرية، مما يؤكد حب أهل الأندلس للغناء والرقص[7].

وقد كانت الراقصة تمارس مهنتها إمّا في الأعراس[8]، أو في مجالس الخمر كما صورها لنا الشاعر أبو علي حسن بن الأنصاري(ت604هـ/1207م)وهو يصف راقصة ماهرة تدعى نزهة، والتي عرفت برشاقتها في الرقص أبهرت المشاهدين بقوله:

من بحرالطويل

"تَخُطُّ" الشَّوْقُ فِي القَلْبِ شَخْصهَا فَفِـي كُلِّ مَا تَأْتِيـهِ حُسْـنٌ وتَحْسِـينُ

8-هو الأديب أبو الحكم عبيد الله الباهلي الأندلسي المريي، كان متقنا للصناعة الطبية، مشهورا بالشعر والأدب، يعرف الموسيقى، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص569.

2- المقري، المصدر السابق، ج2، ص135

10-فوزي سعد عيسى، الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين، دار المعرفة الجامعية، مصر،1990، ص196

4-يقول ابن سعيد انه كان في المائة السابعة، واشتغل بأعمال السلطان، لم أقف على ترجمة وافية له، ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص118

5-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

6-عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص335

4- نضال سالم النوافعة، الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير مرقونة، جامعة مؤتة، الأردن،2004، ص20

8- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص305.

ولَيْــــثَ تُطِيقُ "الشّـينُ"فِي حَالِ نُطْـقِهَا فَمِنْ أَجْلِ بُعْدِ الشّينِ بَاعَدَهَا الشّينُ

إذَا رَقَـصَـتْ أبْصَرْتُ كـلَّ بَـدِيـعَـةٍ تَـرَى أنَـقًا حُبّنَا وحُـبًّا هِيَ النُّـــونُ

فـيَا نُزْهَـةَ الأبْـــصَارِ سُمِّيتْ نُزْهَــةً لِكَـيْ يُـوضَـحُ المَعْنَى بَيَانٌ وتَـبْيِـــنُ[1]

وبذلك سادت في مجالس الأنس، الفرح والنشوة والبهجة والرقص مع تناول الخمر، بالرغم من أنّ الحاكم يعقوب المنصور "قد حارب المغنين وأمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين والقبض على من شهر من المغنين"[2]، إلاّ أنّمجالس الغناء والرقص انتشرت انتشارا بليغا، ولم يكن السبب في انتشار الغناء ومجالس الأنس والطرب في المجتمع آنذاك إلاّ من قبيل توافر الثروة بيد الحكام، وتسامحهم في انتشار الملاهي والحانات وهو ما وضحناه سابقا، وازدحام العديد من الناس على الغناء حتى غدت العديد من المدن مكانا مناسبا لارتكاب المخالفات.

وصفوة القول أن المستوى المعيشي للعوام كشف بعمق عن مظاهر الحياة اليومية، والذي أفرز العديد من الصور المأساوية لطبقة عريضة من المجتمع، وبين مدى معاناة السواد الأعظم منهم في مجتمع كانت السمة الغالبة عليه كثرة الحروب والصراعات، فعاشت العامة حياة بسيطة للغاية تجسدت ملامحها في غذائهم ولباسهم، وسكناتهم الهشة، فهذا الوضع دفع بالكثير منهم إلى ممارسة سلوكات لا أخلاقية بحثا عن المتعة أو تكسبا للأموال .

4- معاقرة الخمر

عرفت بلاد الأندلس انتشار مظاهر الإقبال على الملذات لإشباع الحواس، فانتشرت بذلك ظاهرة شرب الخمور والحانات والإقبال على الشهوات والاستمتاع بالغناء، والتردد على الملاهي الليلية من طرف الطبقة الخاصة، وما لبث ذلك أن تفشت تلك المظاهر السيئة في أوساط فئات العامة.

1-ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ص144

1-ابن عذاري، المصدر السابق، ص174

إنّ الدولة الموحدية قامت على أساس محاربة المنكرات من بينها شرب الخمر، الذي انتشر انتشارا بالغا في أواخر عصر المرابطين، وعمّ كل منازل الأندلس وصار قوتا لأهلها حتى أنّ "الفتح ابن خاقان" كتب إلى أحد القضاة يترجاه للحد من الخمر قائلا:"والراح قد استحل حرامها، واستسهل مرامها، وغذت في كل منزل قوتا، وبدت كؤوسها درّا يحمل ياقوتا"[1].

ومن هنا تشدد الحكام الموحدون تشددا لحد القتل في أمر الخمر[2]، فالمؤسس الروحي للدعوة الموحدية المهدي ابن تومرت "لما دخل المغرب أخذ يمشي في الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكسر المزامير وآلة اللهو ويريق الخمر حيثما وجده، يفعل ذلك في أي بلد حل فيه وأي موضع نزل به"[3].

و المعلوم أنّ الحكام الموحدين أبدوا تشددا واضحا في شأن الخمر، حيث كان للطابع الديني الذي قامت عليه الدولة أكبر الأثر في هذا الاتجاه ،وثمة رسائل موحدية تدعو إلى تحريمها، ومعاقبة شاربيها ومن يتاجر فيها، فيقول أبو جعفر بن عطية في رسالة له كتبها عن الخليفة عبد المؤمن بن علي تظهر مدى تشدد الموحدين في شأن الخمر:"وآمر بالنظر في الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمني شربها ومستعمليها، فيراق مسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامدا، وشربه مدمنا عليه ومعاهدا، ولم ترعه الحدود، ولم تقيده القيود، ولم يعظه الاعتبار، ولم ينفعه الأذكار، فيمح بأثره، ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر وجماع الإثم و كاسفة شمس العقل، والبلاغة من كل قبيح من الفعل، والفاتحة كل مرتج من أبواب العصيان، وهي رجس من أعمال الشيطان"[4].

ولم يدّخر المهدي ابن تومرت وسعا في محاربة الخمر" بضرب الناس بالأكمام والنعال وعسب النخل، وقد أُتِيَ إليه برجل سكران، فأمر بحدّه، فقال رجل من وجوه

2-محمود مكي، المرجع السابق، ص189
2- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1، ق2، ص566
3-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص173
4- رسائل موحدية، مجموعة ليفي بوفنسال، ص132

أصحابه يسمى يوسف بن سليمان: لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها"[1].

وأقصى ما وصلت إليه عقوبة شارب الخمر هي جلده، حيث أنّ الحاكم يعقوب المنصور، أقام الحد بالجلد أربعين جلدة على أحمد بن مسعود العبدري القرطبي(ت599هـ/1202م) لِما تبت عليه من شرب الخمر"[2].

إنّ ما قام به الخليفة هو إرضاء للعامة الرافضة لهذه المنكرات، فالمؤرخ "ابن سعيد "يشير إلى محاسن أهل الأندلس الذين عملوا على كسر أواني الخمر حيثما وقعت عين أحد من أهلها عليها، والتستر بأنواع المنكرات"[3]،ولقد أوكل الموحدون مهمة محاربة شاربيها لصاحب خطة الشرطة الذي كان يحد على شرب الخمر، حتى أنه كان يطبق الحد على شاربي الخمر دون استئذان السلطان[4].

ورغم هذه الإجراءات، إلاّ أنّ السلطة لم تستطع القضاء على هذه الآفة، لأن شرب الخمر كان متداولا في أوساط العامة بأنواعه المختلفة، كالخمر الأحمر والأسود[5]، بل و كان يقدم للضيوف أحيانا[6] بسبب انتشار زراعة الكروم أو العنب والتي هي أصل الخمور[7]، و الملاحظة الجديرة بالذكر أن قضية شرب الخمر في الأندلس قد عرفت تشددا تشددا مع بداية الدولة الموحدية، وتواصلت إلى عهد الحاكم يعقوب المنصور الذي بتوليه سدة الحكم تشدد في الكثير من الأمور لما رآه من المناكر والتنافس في الشهوات ونفاق سوق الغانيات الملهيات، فأمر بإراقة المسكرات وقطعها والتحذير بعقاب الموت على استعمالها[8].

4 – عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص145
2- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، س1،ق2، ص566
3- المقري، المصدر السابق، ج1، ص462
4- المقري، المصدر السابق ، ص218
5- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص140
6- المصدر نفسه، ص140
7-ابن زهر، المصدر السابق، ص.44
7– ابن عذاري، المصدر السابق، ص173

وعلى الرغم من هذا التشدد في شأن الخمر، فإنّ المصادر المطلع عليها تشير إلى احتدام موجة اللهو والمجون وما والاها من شرب الخمرفي الأندلس الموحدية، وبات بديهيا أن تنتشر مجالس الشراب والحانات في العديد من المدن الأندلسية[1]، خاصة مدينة مالقة التي اشتهرت بجودة خمرها[2]،أما اشبيلية فكان شراب الخمر فيها مباحا[3]،وحتى مقابر هذه المدينة لم تسلم من نشاط المدمنين الذين جعلوها مكانا مناسبا للممارسة نشاطهم[4].

وبذلك نستنتج أنّ عادة شرب الخمر كانت منتشرة في أوساط العامة وأصبح العديد من العوام مدمنين عليها، يجتمعون على مجالسها حتى في الشوارع لطرد الهموم التي اعترضت حياتهم اليومية[5]، دون أن ينكر عليهم أحد ذلك.

وقد ضمت مجالس الأنس والخمر القيان من راقصات وندماء ومغنيين، فالندماء يقصون النوادر الأدبية ويروون الأشعار[6]،أما الغلمان فقد أضفوا على مجالس الشرب حللا من اللهو فتداول فيها الخمارون شعر المجون وسط الغلمان والفتيان، فالبعض يغني والآخر يسقي شرابا[7]، ولم يجد العوام أدنى حرج من المجاهرة بشرب الخمر، إذ يشير" ابن سعيد" إلى أبي الحسن رضيّ بن رضا المالقي[8] الذي كان منهمكا في شرب الخمر حتى أنه لا يكاد يصحو منها[9]،هذا وتطلبت جلسات الخمر اختيار النديم والساقي وحتى

1-علي الغريب محمد الشناوي، الخمريات في الأدب الأندلسي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى،2010،ص119/ نادر فرج زيارة، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي(92-688هـ/711-1269م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010 ،ص199

2-ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص349

3- الشقندي، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج3، ص212.

4-ابن عبدون، المصدر السابق، ص74

5-رقية بن خيرة، معاقرة الخمور في المجتمع الأندلسي بين التنظير الشرعي والواقع التاريخي خلال عصري الطوائف والمرابطين، المواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، العدد11، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر،2016، ص145

6-عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة 2001، ص170

7- علي الغريب محمد الشناوي، المرجع السابق، ص9

8-لم أقف على ترجمة وافية له غير أن ابن سعيد يذكر بأنه عاصر فترة الحاكم الناصر لدين الله أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن عبد المؤمن (595-610هـ/1198-1213م)، ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص351

9- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الراقصات، فالوشاح أبو الحجاج يوسف بن عتبة الاشبيلي (ت636هـ/1240م)كان يشرب مع ندمائه تحت قصب فارسي[1].

و يمكن القول بأن المحاولات التي قام بها بعض الحكام لاستئصال هذه الآفة من المجتمع، لم تجد نفعا أمام انتشارها البالغ وسط كل الشرائح الاجتماعية، وفي كل الأماكن حتى في الشوارع وعلى ضفاف الأودية وهو ما وضحه "الشقندي" في رسالته عندما قال:" وشرب الخمر في وادي اشبيلية غير منكر ولا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة"[2]ووسط هذه البيئة التي كثرت فيها الخلاعة والمجون ومجالس اللهو، انتشرت ظاهرة أخرى في مجالس الشرب وهي الولوع بالغلمان وعشقهم.

6-ظاهرة الولوع بالغلمان وممارسات جنسية أخرى

لقد شاعت ظاهرة الولوع بالغلمان والتغزل بهم وحتى عشقهم في الأندلس، وقد أطلق لفظ غلام على الخدم الذكور الذين يمارسون مهام سقي الشراب للزبائن في الحانات، وهو ما وضحه لنا المؤرخ "ابن سعيد"في العديد من تراجم الفترة الموحدية التي كرست هذا الواقع الاجتماعي، وانعكست سلبا على عادات وأخلاق المجتمع، فكانت مجالس اللهو والغناء حافلة بالغلمان يتغزلون بهم، فالبعض يغني والآخر يسقي شرابا،أمّا الخمارين فكانوا يختلسون الفرصة في الحانات حينما يسطو النوم بالحضور فيثب إلى الساقي لثما وتقبيلا وعناقا[3].

ولكن من الصعب توضيح الأسباب الحقيقة لانتشار هذه الظاهرة الخطيرة وسط العامة والتي يمكن ترجيحها إلى عوامل نفسية واجتماعية وظروفهم المعيشية الصعبة والتي جعلتهم يقبلون على الرذيلة لكسب المال من أجل العيش، ممّا جعل الكثير من أصحاب المال يقتنون الغلمان ليتآنسوا بهم بحثا عن وسائل جديدة للمتعة وإشباع الملذات، فتمتعوا بهم كما تمتعوا بالجواري، حتى أن العديد من الرجال كانوا يعشقونهم ويتغزلون

1- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص190
2-الشقندي، نقلا عن المقري، المصدر السابق، ج3، ص212.
3- راوية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص123

بهم وحتى رثائهم[1]،وقد يكون الحرمان الجنسي[2]، أيضا أحد الأسباب التي أدت إلى انتشار ظاهرة اقتناء الغلمان التي سادت في المجتمع الأندلسي منذ عصور سابقة للفترة محل الدراسة.

وقد ترددت عادة عشق الغلمان على العديد من تراجم الحقبة المدروسة،والجدير بالذكر أنّ انتشار هذه الظاهرة سجلها المؤرخ "ابن سعيد" في مجالس الأدباء؛ والذين عبروا فيها عما كانوا يحسون به اتجاه هؤلاء الغلمان، فأبو علي عمر بن محمد الشلوبيني،كان يهوى غلاما ويتغزل فيه[3]، وأشار إلى أبي عيسى لب بن عبد الودود[4] الذي كان يشرب ودخل عليه غلام كان يهواه[5].

واختلفت درجة الميولة للغلمان من شخص للآخر، فمنهم من ولع بغلام صقيل الخدّ، يكثر التغزّل فيه ومن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن قادم القرطبي[6]، الذي كان يكثر من ذكر الغلمان والجواري ويهوى مجالسة الندماء[7]،وتباهى آخر بعشقه ومعاشرته لغلام، كأبي جعفر أحمد بن يحي[8] (ت 610هـ/1213م) الذي كان يعشق غلاما[9]،بينما كان أبو بكر محمد بن طلحة[10] لطيفا كثير الحب للغلمان والتغزل فيهم[11].

إن ظاهرة التغزل وعشق الغلمان انتشرت في الأندلس خاصة في مجالس الخمر، وما صحبها من لهو ومجون أدت إلى انتشار عادات اجتماعية أخرى وسلوكات شاذة

1- ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، ص71
2- رقية بن خيرة، المرجع السابق، ص146
3- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص103
2- لم أقف على ترجمته
5- ابن سعيد، المصدر نفسه، ص306
4-كان آية في الشعر والتوشيح وأولع الناس بالغلمان، لم يذكر ابن سعيد تاريخ وفاته ولكنه صرح بأنه" اجتمع به عمه يحي"، ابن سعيد، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
7- المصدر نفسه، ج1، ص91
6-كان أحمد بن يحي خطيب جامع قرطبة، اشتهر بالظرف واللطافة، توفي سنة 610هـ/1213م، المصدر نفسه، ص117.
9- نفسه، الصفحة نفسها.
10- كان مصدرا للقراء بإشبيلية، لم يذكر تاريخ وفاته وذكر أنه اجتمع به والده، نفسه، ص186
11-نفسه، الصفحة نفسها.

وخطيرة ألقت بثقلها على المجتمع وهي انتشار المخنثين أو القطماء[1]، وبالتالي تسرب ظاهرة اللواط [2] خاصة إذا عرفنا أنها كانت في أحياء راقية مثل قرطبة في درب ابن زيدون، إذ يشير المؤرخ "ابن سعيد"أنه "ليس بالأندلس بلد قد شهر بكثرة القطماء مثل قرطبة، ووجد بها مخنث يعرف بالهيدورة، قد برع في التخنث والكيد، حتى صار يضرب به المثل"[3].

ومما يبين انتشار ظاهرة المخنثين في القرن 6هـ /12م هي النازلة التي أجاب عنها "ابن بشتغير" المتعلقة" بخصوص ختان المخنثين وزواجهم"[4]، وقد أفضى وجود المخنثين في المجتمع الأندلسي إلى بروز آفة اللواط ؛ إذ ينوه "ابن سعيد" عن انتشار هذه الظاهرة في كتابه الذي جاد بنصوص توضح تجليات انتشارها في الأندلس، خاصة في درب ابن زيدون بقرطبة الذي اشتهر بكثرة القطماء، إذ وُجد رجل مشهور يمارس اللواط ، وكان يبحث عن كل وسائل المتعة وتحقيق رغبته الجنسية، مستغلا في ذلك حتى اللصوص الذين يدخلون إلى منزله بقوله: "كان في قرطبة رجل مشهور بهذا الشأن ينام في أسطوان داره، ويترك القفل على الباب حتى يتمكن فتحه، فإذا رآه سارق على تلك الحال عالج الباب ودخل، فيمسكه القطيم، وكان له عبدان يريحهما بهذا الشأن، فيقول للسارق: أيها الملعون جسرت على بابي وفتحته وأردت الدخول على حرمي،ما بقي لك إلّا أن ......والله وتالله لا زلت حتى تفعل، فتتم لك النادرة فيّ، ثم ينبطح فيرى السارق أنه يفعل ذلك لئلا يفتضح، ثم يطلقه"[5].

ونستنتج أن ظاهرة اللواط انتشرت بين أوساط العامة، ولم يسلم من هذا الفعل الشنيع حتى اللصوص، الذين أجبروا على فعل ذلك بالقوة، وإلاّ تهديدهم بالفضيحة، إذن كانت تمارس هذه الرذيلة في المنازل والتي اعتبرت المكان المناسب للقطماء، وهنا يقدم لنا

10- قالت العامة:"عازب ومتفنّق ثلثي قطيم ويفتى فيه" الزجالي، المصدر السابق، ج2، مثل رقم 1664، ص379/ سامية مصطفى مسعد، صور من المجتمع الأندلسي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، (د.ط)2009، ص160-161.

2- يراجع في هذا الشأن ترجمة عبد الوهاب بن حسين المغني، المقري، المصدر السابق، ج1، ص195

3- ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص118

4- ابن بشتغير، المصدر السابق، ص301.

5- ابن سعيد، المصدر السابق، ج1، ص118

"ابن سعيد" نصا آخرا في غاية الأهمية عن الثمن الذي دفعه أحد الرجال إلى غلام كان أدباء اشبيلية قد فتنوا به بقوله:" كان مروره –أي أحد الأدباء[1] - على داره –أي دار الغلام-وحكى عنه أنه أعطاه في زيارة خمسين دينارا، ومرت أيام ثم صادفه عند داره، فقال له:أتريد أن أزورك ثانية؟ فقال له: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وهذا الجواب على ما فيه من قلة الأدب وهتك حجاب الشريعة، من أشد الأجوبة إصابة للغرض"[2]، وهذا ما يثبت انتشار ظاهرة اللواط في المجتمع الأندلسي،والخطير في الأمر أنه حتى بيوت الله لم تسلم من هذه الآفة أين كان القطماء يمارسون شهوتهم في صومعة المساجد، وورد ذلك في الخطاب الشعبي عندما قالت العامة: "أوسع من شكارة حبلص الذي كان يطلّع فيها المرد للصّمع"[3].

كما انتشرت في هذه المرحلة آفة اجتماعية خطيرة وهي الزنا والتي صارت إحدى أكبر المشاكل التي ألقت بثقلها على المجتمع، إذ ينبهنا "ابن الخطيب" إلى لجوء بعض النساء إلى رمي أبناء الزنا صغارا[4]، وذلك للتخلص من الفضيحة، ووردت في إحدى نوازل"ابن ورد الأندلسي" (ت 540هـ/1146م)حالة امرأة "حملت من الزنا وأرادت التستر على حملها وادعت أن حملها من زوج غائب حتى لا ينكشف أمرها"[5].

بالمقابل شاعت ظاهرة الدعارة والتي سبق وان أشرنا إليها، واعتبرت مسربا آخر من مسارب الزنا والتي يبدو أنها انتشرت انتشارا بالغا في عصر الموحدين[6]، وظاهرة القوادة وهي التوسط بين الرجال والنساء تشجيعا منهم للدعارة، وقد صور لنا" الزجالي" في أمثاله انتشار الدعارة والقوادين في المجتمع[7]،عندما فضلت بعض النساء بيع

1- يتعلق الأمر بالأديب أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن صاحب الرد، من أدباء اشبيلية وبيته مشهور هناك، توفي سنة 631هـ/1233م، ابن سعيد، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص112.
2- نفسه، المصدر السابق، ص112/ المقري، المصدر السابق، ج3، ص306
2- الزجالي، المصدرالسابق، مثل رقم 519 ص117.
4- ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص348
4- ابن ورد الأندلسي، أجوبة ابن ورد الأندلسي، المسماة "الجوابات الحسان عن السؤالات ذوات الأفنان" دراسة وتحقيق محمد الشريف، جامعة الملك السعدي، تطوان، 2008 ، ص.132
5- يذكر ابن الأبار أن عبد الله بن عبد الحق الأنصاري، تولي قضاء الجماعة باشبيلية وكانت له بالدعار سطوات مرهوبة توفي سنة 589هـ/1193م، ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص305 (ترجمة رقم 881).
6- الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص16-.32

أعراضـهن وأجسـادهن وممارسـة الـدعارة والبغـاء لتحصـيل المـال[1]، عنـدما تتعـذر سـبل العيش وتتفاقم حالات الفقر والحاجة، فضلا عما قيل عن مدينة برشانة بأنها:"للمجون بها سوق، وللفسوق ألف سوق"[2].ولهذا فإن بعض النسوة، كن يتجهن إلى ممارسة الدعارة والبغاء كسبيل لتجاوز الواقع الاجتماعي وإخراج المكبوتات، لأنه "بانبساط النفس تميل الأخلاط إلى الخارج"[3].

ومن الأمثلة الدالة على انتشار الظاهرة المشار إليها، هي الحالة التي وقعت فيها إحدى الجاريات عندما استدرجها أحد الشباب في منزله أثناء غياب والده بحثا عن الاختلاء للمتعة[4]،كما فضلت إحدى العاهرات استقبال عشيقها في بيتها[5]، فهاتين الظاهرتين تدل على وجود علاقات شاذة ونادرة لم يقع فيها إلاّ ذووا الأهواء والشهوات.

ولم يخلُ المجتمع الأندلسي من ظاهرة الخيانة الزوجية والتي رسخت في الذاكرة الشعبية؛ حينما يدرك الزوج زوجته وهي متلبسة بجريمة الخيانة[6]، والتي عادة ما تنتهي هذه العلاقة المنحرفة الممثلة في الخيانة الزوجية إلى جريمة قتل المرأة[7].

هكذا كان المجتمع العامي، يبحث عن وسائل المتعة بين ما هو مباح ومحرم، فابتدع بذلك وسائل ترويحية بنفسه لتحقيق رغباته، فلا همّ له إلا كأس خمر يشربها، أو غريزة يشبعها أو اتخاذ غلام يتآنس به، فانعكست بذلك على عادات وأخلاق المجتمع وأدت إلى فساده.

وبفضل ما تجمع لديّ من مادة تاريخية، أمكن رصد عجز فئة من العامة عن مواجهة واقعها الاجتماعي بسبب انتشار الأمراض والفقر في أوساط المجتمع العامي، جعلهم يبتدعون سلوكات وممارسات غيبية والركون إلى الفكر الخرافي، وأخرى لا أخلاقية

7- استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16-17م، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى،2004، ص231/ عمر رضا كحالة، الزنا ومكافحته، مؤسسة الرسالة (د.ت) ص9-10.

8- ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، المغرب،1977، ص106.

3-ابن زهر، التيسير في المداواة، ص212

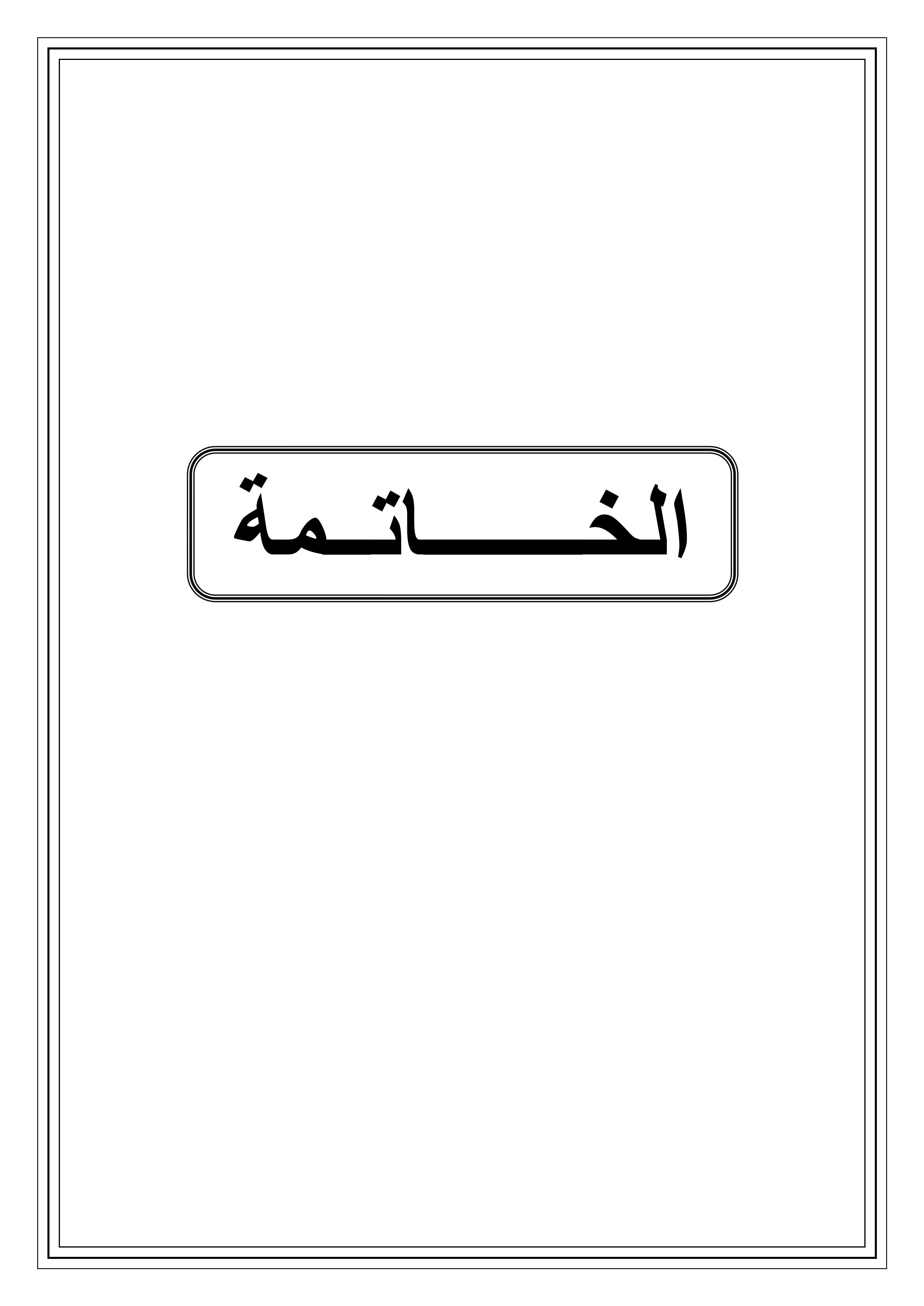
4- ابن عسكر وابن خميس، المصدر السابق، ص227

5-ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص285

6- وعبرت عن ذلك العامة "بين ذا وذا، وزوجها قد جا"، الزجالي، المصدر السابق، ص124

7- ابن ورد الأندلسي، المصدر السابق، ص97

كمقارعة الخمر وممارسة اللواط والدعارة وعشق الغلمان، أو سلوكات عدوانية كالسرقة والتسول، ومهما تعددت الدوافع التي كانت وراء تفشي هذه السلوكات فإنها في الأخير تجسّد واقع الانحراف الذي وقع فيه أهل الفاقة والخصاصة في المجتمع الأندلسي الموحدي.


الخـــاتـمة

إن هذه الدراسة التي تتبّعت فيها أحوال عامة الأندلس في زمن حكم الموحدين، أفصحت لنا أن هذه العناصر الاجتماعية لم تشكل حضورها العددي وحسب بل أدت أدوارا لا يستهان بها في بلورة جوانب عديدة من التاريخ الحضاري لبلاد الأندلس، وقد أفضت بنا إلى عدد من النتائج التي سوف نوجزها في السطور التالية:

1- لقد أثرت الإستوغرافيا العربية في كتابة تاريخ العوام للبلاد الإسلامية عبر حلقاته التاريخية المتباينة مشرقا ومغربا، إذ عكس هذا النوع من الكتابات نفورا ومقتاً لهذه الشريحة الاجتماعية التي عرفت بالعامة، والتي نعتت بأوصاف أفصحت عن الذم والتحقير والشتم والتقزيم.

2-أسهم الموحدون بدخولهم إلى الأندلس في حماية الثغور من هجمات النصارى من جهة. ومن جهة أخرى حاول الحكام تحقيق الأمن والاستقرار في وقت كادت فيه الأندلس أن تدخل في صراعات وحروب بعد سقوط عاصمة المرابطين في بلاد المغرب، ومن تمّ عملوا على نشر دعوتهم الرامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد والظلم وتوسيع حركة البناء والتعمير.

3-كشفت الخريطة الاجتماعية للأندلس عن التنوع العرقي والديني في العصر الموحدي، حيث دخلت عناصر جديدة إلى المجتمع تمثلت في قبائل بني هلال، كما أنّ العنصر البربري قد أخذ مكانه وسط العناصر الأخرى المكونة من العرب والصقالبة والعبيد والأغزاز، إضافة إلى عناصر أخرى أثرت في الوضع السياسي. في حين شكل المولدون وأهل الذمة عنصرا خطيرا في مسرح الأحداث السياسية لكسر شوكة الموحدين.

4-الدور الايجابي الذي قام به العوام في حركة البناء وتشييد المساجد والقصور والحدائق والجسور وغيرها من المنشآت التي تشهد على إبداعاتهم.

5-تبيّن عند تتبع مواقف العامة من السلطة الموحدية، أنها شكلت محورا أساسيا في التأثير السياسي، حيث تأرجحت المواقف بين الموالاة حينا والرفض والتمرد أحيانا أخرى وذلك حسب ما أملته ظروف العامة، وقوة حضور وضعف السلطة الحاكمة.

6-اتّباع السلطة الموحدية سياسة الاحتواء مع شريحة العوام لأجل امتصاص غضبها والتمرد عليها، حيث توجهت نحو تقديم الخدمات الاجتماعية في صورة منح المساعدات المادية وتخفيف المغارم الجبائية، ودعمها ماديا في أيام الشدة بفتح مخازن الغذاء للمحتاجين، والعمل على بناء المساكن للضعفاء والمتضررين. كما حاربت ظاهرة التلصص بتأمين الطرقات وراقبت حركة العمال والولاة الذين تسلطوا على الرعية. وجاء هذا العمل كمفتاح يحقق أهداف الدولة في نشر الأمن في البلاد وتقريب العامة من السلطة لتجنب سخطها.

7-تأمين السلطة الموحدية شر تحركات العامة بنشر الأمن، وفي الوقت نفسه تحصين الدولة من هجمات النصارى على أراضي المسلمين، وهو الدور الذي لعبته على مسرح الأحداث في الكثير من الوقائع. وقد وضحت الدراسة أنّ العامة كانت سندا قويا للسلطة في العديد من المواقف. وبرهنت على مواقفها في خدمة الدولة وحماية مصالحها، وفي آن واحد عملت السلطة على احترام هذا التعاون والانسجام مع مصالحها لأن سياسة الاحتواء والاسترضاء قلل من حدوث اضطرابات سياسية، أما في مظاهر المداراة فتمّ توضيح ما وقع بينها وبين السلطة من بعد بسبب سياسة الحكام.

8-وعلى صعيد آخر، اختلت العلاقة بين العامة والسلطة بسبب إهمال هذه الأخيرة لشؤون العامة وركنها جانبا، خاصة بوفاة الحاكم يعقوب المنصور، مما جعل الدولة تعيش في دوامة من الصراعات الداخلية وحتى الخارجية وأهملوا أمور العامة. هذه الظروف التي كانت الدافع القوي لظهور حركات سياسية متمردة وقفت في وجه السلطة، وانضوت تحتها الفئات المعدمة المكونة من اللصوص وقطاع الطرق، التي رأت في انضمامها لتلك الحركات فرصة سانحة لتحقيق مطالبها مما أدى إلى تصعيد الصراع بين السلطة والعامة.

9-نوّهت الدراسة إلى أهمية المعيار الاقتصادي والمادي، حيث يعتبر المؤشر الحقيقي لتصنيف فئات العامة اجتماعيا واقتصاديا، والتي انقسمت إلى فئات منتجة برز فيها نشاط الفئات المثقفة والفاعلة في النشاط الثقافي والعلمي، والفئات الحرفية التي كان لها دور فعّال في تنشيط الحياة الاقتصادية وتمويل الأسواق بحاجيات العامة اليومية، هذه الأسواق التي جسدت أهم مظهر بارز لتكتلات الصناع والحرفيين، فقد كان نشاط هذه الفئة المقوّم الأساسي في الحركة الاقتصادية والثقافية في الأندلس الموحدية. بينما ظلت الفئات غير المنتجة والمكونة من اللصوص والمتسولة والمعدمين من الفقراء والمرضى، تحاول التكيّف مع الأوضاع العصيبة لضمان بقائها.

10-ومن الناحية الاجتماعية عاشت طبقة العامة بفئاتها المتنوعة فرزا اجتماعيا وحياة متواضعة، تعاني مرارة وقسوة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية. ولم تخضع هذه الفئات الاجتماعية إلى الانسجام مع التركيبة الاجتماعية بسبب تفاوت مهنهم، لأن الفئة الأولى بينت بوضوح دورها الاقتصادي في المجتمع، بينما رصدت الفئة الثانية وضعها الاجتماعي المتدهور وعدم مشاركتها في عملية الإنتاج، وبالتالي شكلت عبئا على الدولة الموحدية.

11-ومن خلال تتبع مظاهر الحياة اليومية لعناصر المجتمع نلاحظ تباينا واضحا، إذ برزت تجلياته في المأكل والملبس والمسكن وحتى في الزواج وفي دفع المهر، وسبب هذا التفاوت هو المعيار الاقتصادي. وعلى الرغم من هذا الانفصال وجدت الاحتفالات والمناسبات والعادات والتقاليد كممارسة حققت الاندماج والمشاركة بين العامة ومختلف شرائحها وانتماءاتها العرقية والدينية، مما كشف عن علاقات اجتماعية مترابطة بين فئات المجتمع.

12-معاناة العامة وتأزم أحوالها تحت طائلة تلك الأحداث السياسية من حروب وفتن، وكوارث طبيعية من مجاعات وأوبئة أصابت الأندلس في القرن السادس الهجري، والتي أضرت كثيرا بفئات المجتمع، وكان أشدها ضررا غلاء الأسعار وتدهور مستوى معيشتهم،

ناهيك عن انتشار الأوبئة والطواعين التي حصدت أرواحا لا تحصى من السكان، فهي الصورة التي وضحتها المصادر التاريخية، وقدمتها النصوص التي عبرت عن مظاهر الفقر وحياة البؤس عند العامة، مما ولّد عند بعض الفئات الساخطة القيام بسلوكات عدوانية خطيرة.

13-ومن جملة الحقائق المتوصل إليها أنه تم إماطة اللثام عن بعض السلوكيات الاجتماعية اللاأخلاقية التي برزت في المجتمع الأندلسي، كمعاقرة الخمور، وشيوع الدعارة، وتفشي ظاهرة الغناء والمغنين. ناهيك عن استفحال سلوكيات شاذة كاللواط والزنا وعشق الغلمان، والتي تركت آثارها العميقة على المجتمع الأندلسي في عصر قام أساسا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

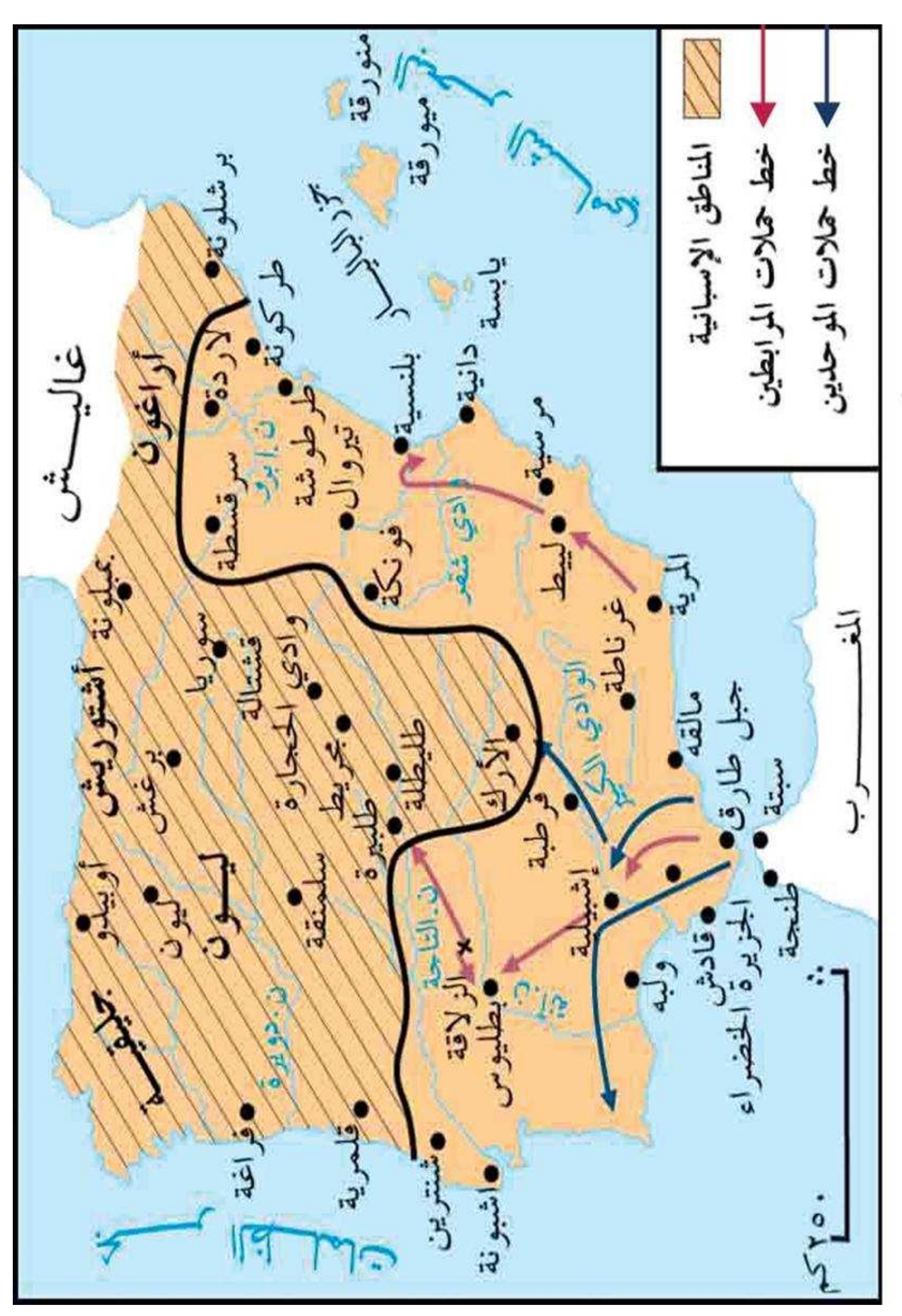
14- تم التوصل إلى رصد تلك الظواهر البارزة التي لوحظت من خلال عرض لتلك التمثلات الذهنية للعامة، و ركون طبقة عريضة من العوام إلى أفكار غيبية، وما أفرزته من انعكاسات تباينت آثارها على المجتمع، فلجأ الكثير منهم إلى الإيمان بالفكر الغيبي وتصديق الخرافات؛ حيث ارتبطت ذهنياتهم بتصديق الشائعات الزائفة والروايات الباطلة، لتجاوز واقعهم المعيشي المتدهور الذي غلبت عليه الفاقة والضعف، وعجز فيه إنسان الأندلس عن مواجهة تلك الظرفيات التاريخية المتعددة الاتجاهات، وبخاصة منها السياسية والاقتصادية وحتى الطبيعية المحيطة به .

وفي ختام هذه الدراسة نقرّ أنه على الرغم من الجهد المبذول في جمع المادة الخبرية المتفرقة في ثنايا المصادر التاريخية، ومحاولة استقرائها وتأويل أبعادها وفك غموضها، غير أنّ النتائج المتوصل إليها حول موضوع "عامة الأندلس في العصر الموحدي" تثير الكثير من التساؤلات وتفتح شهية الباحث في هذا النوع من الدراسات الاجتماعية، وهذا الأمر الذي سيجعل موضوع العوام في التاريخ الإسلامي مجالا مفتوحا للدراسات التاريخية مستقبلا.



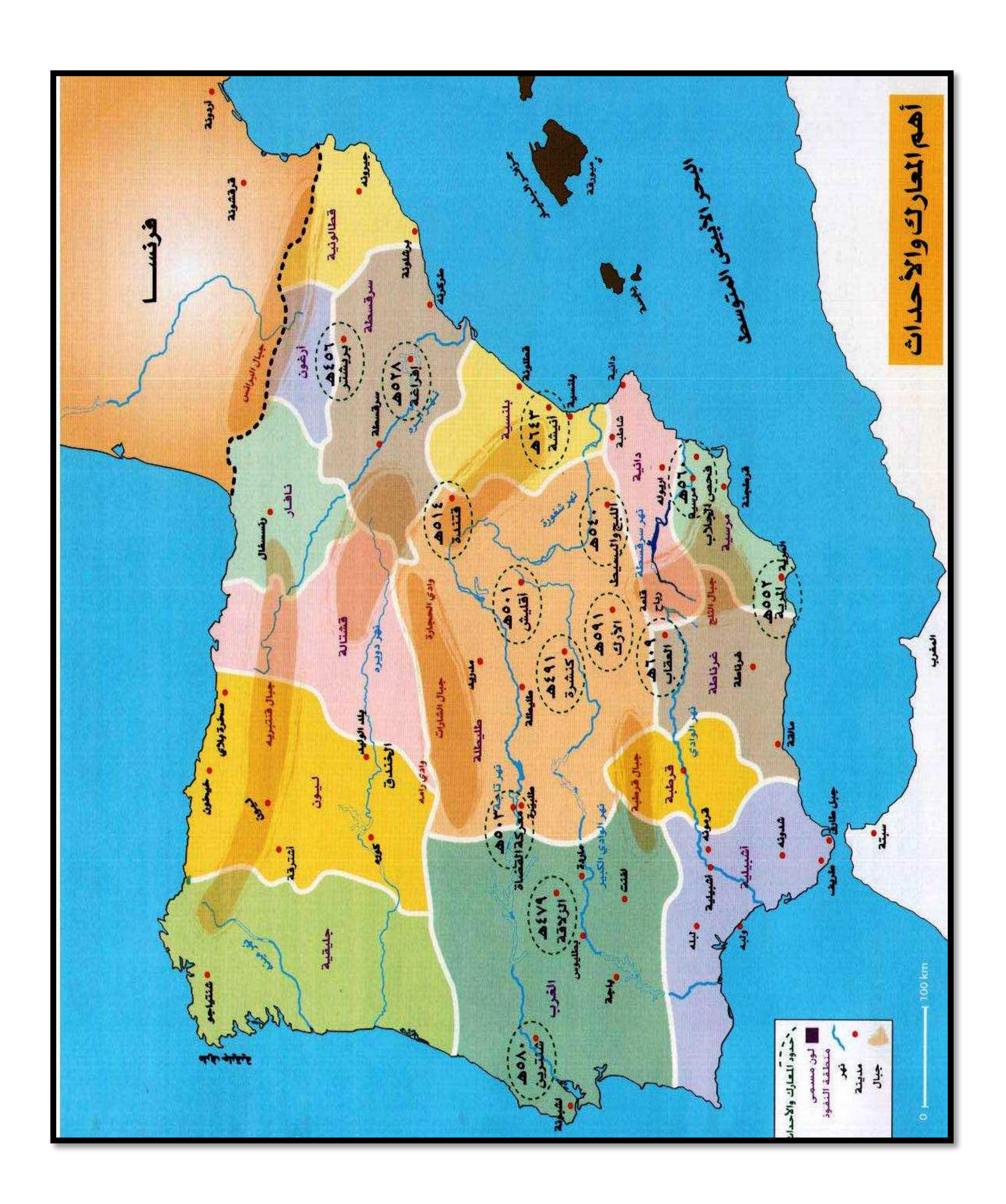
الملاحق

الملحق رقم 01: خريطة الأندلس في عصري المرابطين والموحدين



الملاحق

الملحق رقم 02:خريطة الأندلس لأهم المعارك والأحداث التاريخية في عصري المرابطين والموحدين.



الملحق رقم 03:وثيقة حول أسباب حدوث الأمراض

من مخطوطة "الموصل إلى الأغراض في مداواة الأمراض"[1]

لسراج الدين عبد اللطيف بن موسى

1- سراج الدين عبد اللطيف بن موسى، الموصل إلى الأغراض في مداواة الأمراض، مخطوط بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية، قسم المخطوطات، الدار البيضاء، المغرب، ورقة رقم 3.

الملحق رقم 04: الخطبة التي ألقاها باللسان البربري الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر سنة 567هـ/1171م في مدينة وبذة يحرض فيها الجيش الموحدي لمحاصرة النصارى:

"...قام الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر خطيبا باللسان العربي تارة،وباللسان الغربي أخرى يحرضهم على قتال النصارى،ويعرفهم بما أوجب الله عليهم من الجهاد،وقال في كلامه لهم باللسان الغربي:قد كنتم بمراكش تقولون:لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله عز وجل واجتهدنا،فلما حضرتم معهم قصّرتم واجتنبتم الله عزّ وجلّ ونكلتم وما نصحتم وما انتم بمؤمنين ولا بموحدين إن تسمعوا النواقيس تضرب وتعاينوا الكفر ولا تدفعوا المنكر،إن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد،على كثرتكم من الأعداد،ثمّ ثوّبهم فقالوا:ثبنا" [1]

1-ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق،ص411.

الملحق رقم 05: وثيقة في كراء دار

" اكترى فلان بن فلان بن فلان بن فلان جميع الدار التي بحاضرة كذا بشرقيها أو بغربيها،بحومة مسجد كذا،وحدودها كذا،بحقوقها ومنا فعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها،لعام واحد أوله شهر كذا من سنة كذا وبكذا وكذا دينار دراهم بدخل أربعين ضرب سكة موضع كذا، في وقت كذا دفعها المكتري فلان إلى المكرى فلان طيبة جيادا مقبلة وافية، وقبضها منه، وقبض فلان الدار المذكورة في أول أمد اكترائها، ليستوفي الأمد المذكور فيها بعد معرفتهما بقدر ما تعاقدا فيه الكراء المذكور ومبلغه، اكتراء مبتولا بلا شرط ولا ثنيا ولا خيارا، وعلى سنة المسلمين في أكريتهم، شهد على إشهاد المكتري فلان، والمكرى فلان، على أنفسهما بما ذكر عنهما في هذا الكتب، بعد إقرارهما بفهم جميعه من عرفهما وسمعه منهما، وهما بحال الصحة وجواز الأمر وذلك في شهر كذا من سنة كذا "[1]

1- عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين،ص425

الملحق رقم 06: وثيقة توكيل المرأة زوجها على بيع مالها.

"أشهدت فلانة بنت فلان شهداء هذا الكتب في صحتها وجواز أمرها أنها وكلت زوجها فلان بن فلان على بيع دارها الذي بموضع كذا وحدودها كذا بوكالة التفويض التامة التي أقامته بها مقام نفسها وأنزلته منزلتها وقبل زوجها فلان ذلك من توكيلها شهد على إشهاد فلان بن فلان وزوجته فلانة ابنة فلان على أنفسهما بما ذكر في هذا الكتب عنهما من عرفهما وسمعه منهما وهما بحال الصحة وجواز الأمر وذلك في شهر كذا من سنة كذا."[1]

[1]-عبد الواحد المراكشي،وثائق المرابطين والموحدين،ص517

الملحق رقم 07: وثيقة في تضمين السمسار

قال محمد بن القاضي عياض في نازلة وردت بخصوص تضمين السمسار:"المعلوم المشهور عندنا في السماسرة والمأمورين والوكلاء أن لا ضمان عليهم لأنهم أمناء وليسوا بصناع كانوا بحوانيت أم لا. قال في كتاب الرواحل والدواب من المدونة :وكل شيء دفعته إلى أحد من الناس وأعطيته على ذلك أجرا فهو مؤتمن إلاّ الصناع"[1]

[1]-القاضي عياض وولده محمد، لمصدر السابق،ص163

الملاحق

صورة لمئذنة جامع اشبيلية الذي أتمّ المنصور الموحدي بناءها عام 594هـ/1197م،وقد تحولت بعد ذلك إلى كنيسة.



قـــائمة المصادر
و المراجع

أولا:القرآن الكريم.

ثانيا:كتب الحديث الشريف

1) ابن ماجة،القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت273هـ/886م)، السنن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م .

2) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (ت 261هـ/ 875م)، صحيح مسلم، دار الإحياء الكتب العربية، ط1، 195م، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، ج4(د.ت)

ثالثا:المصادر المخطوطة

3) ابن خلصون، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خلصون، كتاب الأغذية وحفظ الصحة، مخطوط رقم 3931 الخزانة الحسنية، الرباط.

4) ابن خاتمة، أبو جعفر أحمد بن علي(700-770هـ/1299-1369م)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم5255.

5) سراج الدين عبد اللطيف بن موسى، الموصل إلى الأغراض في مداواة الأمراض، مخطوط بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية، قسم المخطوطات، الدار البيضاء، المغرب.

6) ابن سلمون، أبو القاسم سلمون بن علي سلمون الكناني، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم، مخطوط رقم د 670، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات، الرباط.

7) المواعيني، أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة الاشبيلي(ت564هـ/1168م)، ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب،مخطوط رقم 1406 و 2647 ،الخزانة الحسنية، الرباط.

رابعا:المصادر المطبوعة

8) ابن الأبار، أبوعبد الله محمد القضاعي البلنسي(ت 65هـ/1260م)، التكملة لكتاب الصلة تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، (د.ت).

9) ــــــــ،الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1985.

10) ــــــــ، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 2008.

11) ــــــــ، معجم شيوخ ابن الآبار الأندلسي، تحقيق محمود الدومي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2011.

12) ــــــــ،المقتضب من تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت،(د.ط) 1987.

13) ــــــــ، ديوان ابن الأبار،قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،المملكة المغربية،طبعة 1999.

14) ابن الأثير عبد الواحد الشيباني الجزري(ت630هـ/1233م)، الكامل في التاريخ، دارصادر، بيروت، طبعة 1966.

15) ابن الأحمر،أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري(ت 807هـ/1405م)، بيوتات فاس الكبرى، نشره عبد الوهاب بنمنصور، دار المنصور،الرباط،(د.ت)،1972.

16) ابن أبي زرع الفاسي علي (ت741هـ/1340م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

17) ــــــــ، الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشره محمد بن أبي شنب، مطبعة الجزائر(د.ط)،1960

18) ابن الإمام، أبي عمرو عثمان بن علي(ت 560هـ/1164م)، المقتضب من كتاب سمط الجمان وسقط الأذهان، قراءة وتعليق حياة قارة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002.

19) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي الحسني(ت560هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، لندن، (د.ت).

20) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس بن القاسم(ت668هـ/1270م)،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى،1998 .

21) ابن بصال، أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الطليطلي(ت499هـ/1105م)، كتاب الفلاحة، نشر وتعليق خوسي ماريا مياس بيكروسا، ومحمد عزيمان، مطبعة كريماديس، تطوان،1955

22) ابن البيطار، ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد، (ت646هـ/1248م) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)2001

23) أبو إسحاق، إبراهيم بن احمد بن عبد الرحمن الغرناطي (ت579هـ/1183م)، الوثائق المختصرة، تحقيق إبراهيم بن محمد السهلي، مكتبة الملك فهد،السعودية، الطبعة الأولى،2011

24) البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت841هـ/1438م)، فتاوى البرزلي أو جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002.

25) البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (القرن6هـ/12م)، أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق ومراجعة عبد الوهاب بن منصور،الطبعة الثانية، 2004

26) ـــــــــ،المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، دار الغرب، الرباط،1971

27) البرسوي، محمد بن علي (ت 947هـ/1589م)، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،2006 .

28) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي(ت 779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار(رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة،2007.

29) ابن بشتغير، أحمد بن سعيد اللورقي المالكي (ت516هـ/1122م)، نوازل أحمد بن سعيد بن بشتغير، تحقيق قطب الريسوني، دار ابن حزم، ط1، 2008م.

30) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري(ت 578هـ/1183م)، الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى،2003 .

31) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري، (ت 255هـ/868م)رسائل الجاحظ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2000 .

32) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الشاطبي(ت614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية،1981

33) الجرسيفي، عمر بن عثمان بن العباس(ت منتصف القرن 6هـ/12م) رسالة في الحسبة، من ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، حققها ونشرها ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة، 1955.

34) ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري(737هـ/1336م)، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د.ت).

35) ابن حزم، أبو محمد علي بن احمد بن سعيد(ت456هـ/1064م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1982

36) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي(ت367هـ/977م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ط).

37) أبو حامد الغرناطي، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان الاقليشي(ت565هـ/1160م)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبعة 1989.

38) الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي(**(ت726هـ/1325م)**، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية،1980.

39) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، تحقيق عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى،1995.

40) ابن الخطيب، لسان الدين السليماني(ت776هـ/1374م)،الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية،1973 .

41) ــــــــ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية،1956.

42) ــــــــ، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس،(د.ت)

43) ــــــ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دراسة وتحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،2009 .

44) ــــــــــ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، المغرب،1977.

45) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن أبو زيد(ت808هـ/1405م)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، (د.ت)

46) ــــــــ، كتاب العبر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد6، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة،2006.

47) أبو الخير الاشبيلي محمد بن عمر أبو بكر(ت 575هـ/1179م)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1995.

48) ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب عمر بن الحسن(633هـ/ 1235م)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت).

49) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/1374م)، المستملح من كتاب التكملة، حققه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى،2008.

50) الرشاطي أبو محمد (ت 542هـ/1147م)وابن الخراط الاشبيلي(ت 581هـ/1186م)،الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار،تحقيق ايميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا،المجلس الأعلى للأبحاث العلمية،مدريد،1990

51) ابن رزين التجيبي، أبو الحسن بن علي الأندلسي(ت 637هـ/1238م)، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، حققه وقدم له محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 2012.

52) رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مجموعة ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2010 .

53) رسائل موحدية، تحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، الطبعة الأولى،1995.

54) ابن رشد (الجد)، أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد (ت 520هـ/1126م)، مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، طبعة 1992.

55) ـــــــــ فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1987

56) ابن رشد الحفيد، محمد بن احمد بن محمد(ت595هـ/1198م)، الكليات في الطب، تحقيق وتعليق احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2005،

57) ــــــــ،تلخيص السياسة لأفلاطون، ترجمة حسن المجيد العبيدي، وفاطمة كاظم الذهبي، دار الطليعة بيروت،الطبعة الأولى،1998.

58) ــــــــــ، تلخيص الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، طبعة 1967.

59) الرصافي، أبو عبد الله محمد بن غالب (ت572هـ/1176م)، ديوان الرصافي، جمعه وقدم له إحسان عباس، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1983

60) الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن، لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية،2000

61) ابن الزبير، أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي(ت708هـ/1308م)، صلة الصلة، ضبط وتعليق جلال الأسيوطي،المجلد السادس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2008.

62) ابن الزيات، أبو يعقوب بن يحي التادلي (ت627هـ/1229م)، تحقيق احمد التوفيق، الرباط، طبعة 1984.

63) ابن زهر، أبو مروان عبد الملك(ت 557 هـ/1161م)، التيسيرفي المداواة والعلاج، تحقيق محمد بن عبد الله الروداني، مطبعة فضالة ، المحمدية،1991

64) ــــــــــ، كتاب الأغذية، تقديم وترجمة وتحقيق، اكسيراثيون غارثيا، المجلس العلمي للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد،1992

65) الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت ق6هـ/12م)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،(د.ط)

66) الزجالي، أبو يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، (ت694هـ/1295م)، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الثقافة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، (د.ت)

67) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي(ت بعد 932هـ/1525م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى،1998.

68) ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى(ت 685هـ/1286م)، المغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،1997

69) ــــــــ، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، الطبعة الأولى،1987.

70) ــــــــ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الابياري، دارالمعارف، القاهرة، (د.ت)

71) ــــــــ، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1980.

72) ــــــــ، كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى،1970 .

73) ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي (ت486هـ/ 1093م)، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري، الطبعة الأولى، 1995.

74) ابن سماك العاملي، أبو القاسم محمد بت أبي العلاء محمد(من أهل القرن 8هـ/ 14م)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2010

75) السلفي، أبو طاهر احمد بن محمد صدر الدين(ت576هـ/1180م)، أخبار وتراجم مستخرجة من معجم السلفي، أعدها وحققها إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى،1963.

76) السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد (ق6هـ/12م)، كتاب في آداب الحسبة، أعده للنشر جورج كولان، ليفي بروفنسال، مكتبة باريس،(د.ت)

77) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي(ت790هـ/1388م)، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس،1985.

78) ابن الشباط المصري التوزري، محمد بن علي (ت681هـ/1282م)، قطعة من وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السمط وسمة المرط، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1967-1968

79) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي (ت 594هـ/1198م)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور المهدي بالموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الرابعة، 2012

80) الضبي، أحمد بن يحي بن احمد بن عميرة(ت599هـ/1203م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تقديم وشرح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2005.

81) الطرطوشي، محمد بن الوليد الفهري القرشي(ت 520هـ/1126م)،كتاب الحوادث والبدائع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثالثة،1998

82) العذري، أحمد بن عمر بن انس الدلائي(ت 478هـ/1085م)، نصوص عن الأندلس، من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد،1965.

83) العبدري، أبو عبد الله محمد الحيحي(ت688هـ/1289م)، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كروي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى،1999 .

84) العمري ابن فضل الله (ت749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة احمد عباس،المجمع الثقافي أبو ظبي،الطبعة الأولى،2002

85) ابن العماد الحنبلي،عبد الحي بن احمد العكري،(ت1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت).

86) عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحريرعلي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2006

87) عبد الواحد المراكشي، أبو محمد بن علي التميمي(ت647هـ/1250م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.

88) ــــــــــ، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثالثة،2006.

89) ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله(242هـ/856م)، آداب الحسبة والمحتسب،دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى،2005.

90) ابن عبدون محمد بن احمد(527هـ/1133م)، رسالة في القضاء والحسبة، تحقيق فاطمة الإدريسي،تقديم مصطفى الصمدي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى،2009

91) ابن عميرة، أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي، رسائل ابن عميرة الديوانية (القرن السابع الهجري)، دراسة وتحقيق احمد عزاوي، مطبعة الرباط، الطبعة الأولى، 2008.

92) ابن عبد الملك المراكشي، أبي عبد الله محمد بن احمد (ت703هـ/1303م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،

-السفر الأول، القسم الثاني، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة ،بيروت،(د.ت) ،1965.

- بقية السفر الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،(د.ت)

-السفر الخامس من قسمين، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،1995

-السفرالسادس، تحقيق إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت، الطبعة الأولى 1973.

-السفر الثامن من قسمين،تحقيق محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، المغرب،1984.

93) ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد (كان حيا سنة 712هـ/1312م)،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة،1983.

94) ــــــــــ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء،الطبعة الأولى، 1985.

95) ابن عاصم الغرناطي، أبو بكر محمد بن عاصم القيسي،(ت829هـ/1425م)، حدائق الأزاهر، حققه وقدم له أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة1992

96) ابن عسكر، أبو عبد الله محمد الغساني،(ت636هـ/1238م) وابن خميس، أبو بكر محمد بن محمد(كان بقيد الحياة في 638هـ/1240م) أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي ودار الأمان، الرباط،الطبعة الاولى،1999

97) ابن غازي،أبو عبد الله محمد العثماني المكناسي(ت 919هـ/1513م)، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور،الطبعة الثانية، الرباط،1988

98) ابن غالب الغرناطي، محمد بن أيوب(ق6هـ/12م)، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها، تحقيق عبد البديع لطفي، نشر مجلة معهد المخطوطات العربية، مصر،1956

99) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ/1414م)، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2004

100) ابن فرحون، أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين بن علي(ت799هـ/1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان وعلماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،1996

101) القاضي عياض أبو الفضل بن موسى القاضي اليحصبي السبتي(ت544هـ/1149م)، وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1997 .

102) القلقشندي، أبو العباس أحمد الفزاري(ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة(د.ط)،1966

103) ابن القاضي المكناسي أحمد (ت1025هـ/1616م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، ط1، 1973م.

104) ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي، (ق7هـ/13م)نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درس وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1990

105) أبو القاسم بن سراج الأندلسي(ت عام 848هـ-1444م)، فتاوي قاضي الجماعة، تحقيق محمد أبو الأجفان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية،2006

106) ابن قزمان القرطبي،ابو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك،(ت 555هـ/1160م)، ديوان ابن قزمان القرطبي، إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق كورنتي فيديريكو، دار أبي رقراق لطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الأولى،2013

107) ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكر دبوس التو زري (ق6هـ/12م) الاكتفاء في أخبار الخلفاء، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2009.

108) ابن ليون التجيبي، أبو عثمان سعد بن الشيخ أبي جعفر احمد(ت664هـ/1265م)،اختصارات من كتاب الفلاحة، دراسة وتحقيق احمد الطاهري، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2001.

109) ابن مغاور الشاطبي، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد السلمي (ت587هـ/1191م)، ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره، دراسة وتحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى،1994

110) ابن مرزوق محمد التلمساني (ت 781هـ/1379م)، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2008.

111) ابن المرابط، أبو العلاء محمد بن علي (ت 663هـ/1264م)، زواهر الفكر وجواهر الفقر، دراسة وتحقيق احمد المصباحي، منشورات وزارة الثقافة، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 2010.

112) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة،2004

113) المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي،(ت346هـ/) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر بيروت، الطبعة الخامسة،1973

114) الملزوزي عبد العزيز (ت 697هـ/1297)، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى،1963

115) مجهول، ذيل زاد المسافر، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،2012.

116) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، طبعة1983

117) مجهول، عاش في القرن7هـ/13م، أنواع الصيدلة في ألوان الأطعمة، تقديم وتحقيق عبد الغني أبو العزم، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط،(د.ت)

118) المقري، أحمد بن محمد التلمساني(ت 1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، طبعة 1997

119) النباهي، أبو الحسن بن عبد الله المالقي(ت793هـ/1390)، تاريخ قضاة الأندلس، شرحه ووضع فهارسه، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، الطبعة الأولى،2006

120) النويري، أحمد بن عبد الوهاب(ت732هـ/1331م)، تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1984

121) ابن ورد الأندلسي، أبو القاسم احمد التميمي،(ت 540هـ/1146م) أجوبة ابن ورد الأندلسي، المسماة "الجوابات الحسان عن السؤالات ذوات الأفنان"، دراسة وتحقيق محمد الشريف جامعة الملك السعدي،تطوان،2008

122) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت914هـ/1058م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، 1981.

123) ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله الحموي(ت627هـ/1230م)معجم البلدان،دارصادر،بيروت،(د.ت)

(124 Ahmed Razi , la description de l'Espagne, provenacal , Al-Andaus, Vol 12.Paris,1953.

خامسا:المراجع

125) أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة،الطبعة الثانية، 1996.

126) استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16-17م، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى،2004.

127) إسماعيل محمود، سوسيولوجية الفكر الإسلامي، سينا للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة،2000.

128) ـــــــــ، المهمشون في التاريخ الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2004.

129) إدريس الهادي روجي ، الدولة الصنهاجية، تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،1992.

130) بالنثيا انخل جنثالت، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت) .

131) باسيليو بابون مالدونالد، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى،2005

132) البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك ودهنيات الإنسان في المغرب والأندلس(ق6-8هـ/12-14م)، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى،2008.

133) بشير عبد الرحمن، اليهود في المغرب العربي(22-462هـ/662- 1070م)، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001.

134) بلغيث محمد الأمين، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي- دولة المرابطين ومرحلة السقوط – دار البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الرابعة، 2013

135) ـــــــــ، الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، دار البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر،2011.

136) ــــــ، دولة المرابطين بالأندلس، من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، دار قوافل للنشر، موريطانيا، الطبعة الثالثة،2017.

137) بن نبي مالك، مشكلات الحضارة، شروط النهضة،ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق1981.

138) أبو الفضل محمد أحمد، تاريخ مدينة المرية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية،مصر،(د.ت)

139) أبو رميلة هشام، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدولة الإسلامية في الأندلس، الطبعة الأولى الأردن، مطبعة جمعية دار العمال التعاونية (د/ت).

140) أبو مصطفى كمال السيد، الأحباس في الأندلس فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة، ضمن سلسلة بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مركز إسكندرية للكتاب،1997.

141) بن عبود محمد ،جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة تطوان،1987،

142) ـــــــــــــــــ، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف(414-487هـ/ 1023 -1091م)، المعهد الجامعي للبحث العلمي ، مطبعة تطوان، 1983.

143) بدوي خليل، موسوعة شهيرات النساء، دار أسامة للنشر، الأردن، الطبعة الأولى،1998.

144) تيتاو حميد، الحرب والمجتمع، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، منشورا ت عكاظ،2010.

145) بوباية عبد القادر، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(92-422هـ/711-1031م)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2011.

146) بولقطيب الحسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2002.

147) بولطيف لخضر محمد، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 2009.
148) بوعياد محمود، الرحلة العجيبة لنسخة من مصحف الخليفة عثمان في أرجاء المغرب والأندلس، مكتبة النشر والتوزيع، الجزائر،الطبعة الأولى،2007.
149) بن حمادة سعيد، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7و8 هـ/13و14م، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى،2007.
150) بالباس ليوبولدو طريس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ترجمة محمد يعلى، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى،2007.
151) دويرار حسين يوسف، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي(138-422هـ/577-1030م)، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى،1994
152) الدوري عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الخامسة،1987.
153) الكساسبة رضا عبد الغني، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر،2004
154) جيمس كولان، الأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري المصري، القاهرة، الطبعة الأولى،1980.
155) حقي محمد، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال،2007.
156) ــــــــــــ، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال،2007.
157) حريتاني سليمان، الجواري والقيان في المجتمع العربي الإسلامي، دار الحصاد للنشر، دمشق،الطبعة الأولى،1997.

158) الحسيسن عبد الهادي أحمد، مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحدي(554-595هـ/1159-1198م)، اللجنة المشتركة لإحياء الثرات الإسلامي، المغرب،1982.

159) الحداد حميد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، سينا للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى،2001.

160) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في.المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين، كلية دار العلوم، القاهرة، الطبعة الأولى،1980.

161) جمال علال البختي، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى،2005.

162) الجبالى خالد حسن أحمد ، الزواج المختلط بين المسلمين من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة(422/92هـ)، مكتبة الآداب القاهرة،(د.ت)

163) الدغلي محمد سعيد ، الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، دار الثقافة ، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

164) دياب حامد الشافعي، الكتب والمكتبات في الاندلس، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998.

165) دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني(510-546هـ/1116-1151م)،دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،1988.

166) ـــــــــــ، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا(430-515هـ/1038-1121م)، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى،1988.

167) ريبيرا خوليان ،التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ترجمة الطاهر احمد مكي، دار المعارف،القاهرة، الطبعة الثانية،1994.

168) رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية للطباعة،(د.ط)1995.

169) زعروت فتحي، الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين(المغرب والأندلس)، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى،2005.

170) السر جاني راغب ، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى،2009.

171) سلامة عبد المنعم أبو العلا، رعاية الأيتام في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب،2005.

172) السيد عبد العزيز سالم سحر، شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصرالإسلامي(التاريخ السياسي والحضاري)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1995.

173) ــــــــــ،قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس(دراسة تاريخية،عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت)

174) السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد بن حكاد الناصري الدرعي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى،1997.

175) سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس،(عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين)، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى،1985.

176) شايب أحمد، الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، الطبعة الثانية،2008.

177) الشناوي علي الغريب محمد ، النثر الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الآداب الطبعة الأولى،2009

178) ــــــــــ ،الخمريات في الأدب الأندلسي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010.

179) شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،(د.ط)،2003

180) شافع عبد الحميد راوية ،المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة (92-422هـ/711-1031م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الأولى،2006.

181) شحاتة عطا على محمد ، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة للطباعة والنشر، سورية، الطبعة الأولى،1999.

182) الشريف خالد بن عبد الله، مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها(دراسة سياسية إقتصادية)422-892هـ/1030-1486م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى،2009.

183) طالبي عمار، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د.ت)

184) الطاهري أحمد، البناء والعمران الحضري باشبيلية العبادية، إعادة تركيب المدينة من خلال المصادر العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2006.

185) ـــــــــ، جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، سلسلة ندوات، طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط(إمكانية البحث من خلال النموذج الأندلسي)،جامعة مولاي إسماعيل، مكناس (د.ط)،1991.

186) ـــــــــ، عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط،1988.

187) طقوس محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى،2005.

188) العريني يوسف علي بن إبراهيم ، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مطبوعات الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى،1995.

189) العيساوي فاطمة، الفقر والفقراء في تاريخ المغرب -ضمن كتاب وقفات في تاريخ المغرب-دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، الرباط، الطبعة الأولى،2001

190) عمر رضا كحالة، الزنا ومكافحته، مؤسسة الرسالة(د.ت).

191) عنان محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، القاهرة، (د.ط)، 1956.

192) ــــــــــ، دولة الإسلام بالأندلس- عصر الموحدين- الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د.ت).

193) علام علي عبد الله، الدولة الموحدية على عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر،1971.

194) العبادي أحمد مختار، التحصينات الحربية التي أقامها الموحدون في الأندلس ،صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشاة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى،2000.

195) فوزي سعد عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الأولى،2007.

196) ــــــــــ،الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين، دار المعرفة الجامعية، مصر،1990.

197) عز الدين عمر موسى ،الموحدون في الغرب الإسلامي،تنظيماتهم ونظمهم،دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الأولى، 1991

198) ــــــــــ،النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري،دار الشروق،بيروت،الطبعة الأولى، 1983

199) ــــــ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى،1983،

200) عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، دار الكتاب الحديث، الطبعة الأولى،1993.

201) فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي- الأدب في المغرب والأندلس-عصر المرابطين والموحدين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1997.

202) الفقى عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة 2001.

203) ـــــــ ، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة،1984.

204) فرحات يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر- دراسة حضارية- دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى،1993

205) القادري بوتشيش إبراهيم، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت،الطبعة الأولى،1998 .

206) ـــــــ، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،1994.

207) ـــــــ،إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى،2002.

208) ـــــــ،المغرب والأندلس في عصر المرابطين(المجتمع،الذهنيات،الأولياء)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،الطبعة الاولى، 1993.

209) ـــــــ،الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995.

210) ـــــــ،أثر الإقطاع في التاريخ الأندلسي السياسي من منتصف القران الثالث الهجري إلى ظهور الخلافة(250-316هـ)، منشورات عكاظ، الرباط،1992.

211) كررازفوزية، دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري(ق11-13م)، دراسة في التاريخ الحضاري والاجتماعي للغرب الإسلامي، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران،الطبعة الأولى، 2006.

212) الكحلاوي محمد، عرفاء البناء في المغرب والأندلس وأهم أعمالهم المعمارية، مقال بالسجل العلمي لندوة الأندلس، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، الطبعة الأولى،1996.

213) المازني إسلام صبحي، روائع تاريخ الطب والأطباء المسلمين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2006.

214) مارمول كربخال، كتاب إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زينبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، مكتبة المعارف،1984.

215) مؤنس حسين ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، طبعة 2004.

216) ــــــــ،الثغر الأعلى في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في أيدي النصارى سنة 512هـ/1118م مع أربع وثائق جديدة، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة(د.ت).

217) مكي محمود،"وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السابع والثامن، 1959-1960.

218) مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وعبد البديع لطفي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة،1977.

219) مخلوطة نبيل، علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، مذكرة ماجستير مطبوعة قدمت بالجامعة الأمريكية، ببيروت، لبنان،1998.

220) الميلي مبارك ابن محمد ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب،(د.ت).

221) المنوني محمد، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989.

222) ــــــــ، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،الرباط، الطبعة الأولى،1991.

223) مصطفى محمد مسعد سامية، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين من(484 الى620هـ/ 1092 الى1223م)، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

224) ــــــــ، صور من المجتمع الأندلسي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر،(د.ط)2009

225) ــــــــ، الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى،2000

226) المغراوي محمد، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى،2006.

227) المحمودي أحمد، عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009.

228) النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى،تونس،1995.

229) هلا ل جودة ومحمد محمود، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1986.

سادسا: الأطروحات الجامعية:

230) أحمتي عبد العالي، التغذية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، قضايا ونماذج، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة محمد الخامس، الرباط،2001-2002

231) أحمد نجار ليلى، المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية(580-595هـ/1183-1198م) رسالة دكتواه، جامعة أم القرى،1989.

232) بن خيرة رقية، الآفات الاجتماعية في الأندلس ما بين القرنيين الخامس والسادس الهجريين(ق11-12م)-دراسة في ظاهرة الانحراف- رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة معسكر،2016-2017.

233) بودالية تواتية، البيئة في الأندلس عصري الخلافة الأموية وملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2014.

234) بلمداني نوال، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنيين (4-5هـ/10-11م) رسالة دكتوراه غير منشورة،جامعة وهران، 2014.

235) الديب صفية، التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر،2002.

236) حاكمي الحبيب، الروابط العلمية بين بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحدين (541-626هـ/1146-1228م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2017.

237) جهاد غالب مصطفى الزغلول، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الأردنية،1994.

238) حبيب مصطفى عز الدين، جوانب من التاريخ الحضاري للطب والصيدلة في الأندلس خلال عهدي المرابطين والموحدين، رسالة دكتوراه غير منشورة، الرباط،1999.

239) خليلي بختة، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين(ق13-15م)،واقعه وآثاره، أطروحة دكتوراه غير منشورة، في التاريخ الإسلامي،جامعة معسكر،2015-2016.

240) رباح حامد بحر، الشعر في شلب، من عصر الطوائف حتى سقوطها،رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها قدمت بجامعة الخليل،2009.

241) العمراني محمد، الموحدون في الأندلس(الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع(541-609هـ/1147-1212)، رسالة دكتوراه،جامعة محمد الخامس ،الرباط، 2002-2003.

242) عباسي يحي أبو المعاطي محمد، الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس(238-488هـ/852-1095م)، دراسة تاريخية مقارنة، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة،2000.

243) السلمي ابراهيم بن عطية الله بن هلال ، العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف الى سقوطها في أيدي الاسبان(422-867هـ/1030-1462) دراسة سياسة حضارية، أطروحة دكتوراه منشورة ،جامعة أم القرى،

244) سليمان عفانة فلنتينا، مملكة اشبيلية زمن بني عباد وعلاقتهم الداخلية والخارجية(414-484هـ/1023-1069م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الدراسات العليا،جامعة النجاح الوطنية،نابلس،فلسطين،2002.

245) شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين(524/ 667هـ/1126-1267م)رسالة ماجستير،غير منشورة جامعة الجزائر،2008.

246) كرراز فوزية، عامة المغرب الأوسط في ظل السلطة الموحدية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2015.

247) لعناني مريامة، الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة،2013.

248) لواتي دلال، عامة القيروان في العصرالأغلبي، (184-296هـ/800-909م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة،2002.

249) محي الدين صفي الدين، الحياة الاجتماعية في الأندلس على عهد الدولة الاموية(138-422هـ/755-1032م)،رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2015.

250) النوافعة نضال سالم، الشعر الاجتماعي في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير ، جامعة مؤتة، الأردن،2004.

251) نادر فرج زيارة، الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي(92-688هـ/711-1269م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الإسلامية غزة،**2010.**

252) ولد آنة محمد الأمين، النصارى واليهود من سقوط الدولة الأموية إلى نهاية المرابطين(422-539هـ/1030-1141م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران،2012-2013.

سابعا: المجلات

253) أسيا ساحلي، فئة الوراقين في المغرب الأوسط،مخبر العلوم الاجتماعية والتاريخية، مجلة الناصرية، العدد 4،2013.

254) أمحمد بوشريط، الحجاري وإسهاماته الثقافية، كتاب المسهب أنموذجا،مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 10 ،2014 .

255) إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، مجلة مكناسة الزيتون، العدد 6،1992

256) ـــــــــ،المجال الحرفي بالمغرب خلال العصر المرابطي، مجلة دراسات تاريخية العدد 3،2014.

257) ـــــــــ،ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات المغرب والأندلس (ق6-8ه/12_14م)، مجلة عصور جديدة العدد7-8خريف، شتاء 2012-2013.

258) ـــــــــــ، مسألة العبيد بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين ضمن كتاب الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995.

259) ـــــــــ، تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وإمكانية التجاوز من تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت،الطبعة الأولى، 1994.

260) ـــــــــــــ، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، إشكالية نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،2014.

261) ــــــــــ، الفكر السحري والعرافة بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ملتقى الدراسات المغربية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك السعدي، تطوان، 1993

262) عبد الهادي بياض، التربة أفاتها، تقنيات علاجها وتدبير استغلالها في ضوء الأدبيات الأندلسية، بحث ضمن كتاب الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة الملك عبد العزيز سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، طبعة 2011.

263) تواتية بودالية، وسائل الترويح عن النفس في المغرب الأوسط، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 14-15، 2014.

264) ــــــــــ،الحديقة الأندلسية،مجلة عصور، جامعة وهران، العدد 24-25 ،2015.

265) ــــــــــ،الحرفيون والبيئة بالغرب الإسلامي، الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي، ضمن كتاب مقاربات لأثر المجال والذهنيات على الإنتاج، تنسيق سعيد بنحمادة ومحمد بركة، تقديم عبد الإله بن مليح، منشورات الزمن، المملكة المغربية، العدد 2016،76.

266) جمعة شيخة، العدوة الأندلسية في ديوان ابن الأبار، ضمن أعمال ملتقى ابن الأبار بأنذة، مجلة دراسات أندلسية،العدد الثاني خاص بابن الأبار،تونس،1989.

267) الحبيب حاكمي، إسهام عقود المعاملات المالية والإدارية في رصد صنائع الأندلسيين وحرفهم، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 2016،26 - 2017.

268) رقية بن خيرة، معاقرة الخمور في المجتمع الأندلسي بين التنظير الشرعي والواقع التاريخي خلال عصري الطوائف والمرابطين،المواقف،مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ،العدد11،منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ممعسكر،2016.

269) دوزي رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، مجلة اللسان العربي، المجلد9،ج2،(د.ت)

270) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مج11، العدد1، أفريل-ماي1980.

271) سعيد بنحمادة، أثر التقاويم الفلاحية في تطوير البستنة بالأندلس والمغرب خلال العصر الوسيط، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 14-15،2014.

272) سامي النبرواي نجلاء، القابلة في المغرب والأندلس، الدور الطبي، القضائي والاجتماعي، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، (د.ت).

273) شاشية حسام الدين بن صالح،غرب الأندلس أو البرتغال الإسلامية ومدينة ميرتلة في المصادر العربية، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج11،العدد2،2014.

274) عصمت عبد اللطيف دندش،"من مظاهر الحياة الاجتماعية الأعياد والاحتفال بها" دراسات أندلسية في السياسة والاجتماع، دار الغرب الإسلامي، تونس طبعة 2009 .

275) الطاهر بونابي، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مخبر العلوم الاجتماعية والتاريخية، مجلة الناصرية، العدد 4،2013.

276) طاهر قدوري، السمك والتغذية بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد10،2014.

277) فاطمة بلهواري، النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، دورية كان التاريخية، العدد الثامن،2010.

278) لوسي بولنز،"نباتات الصباغة والنسيج قطاع زراعي مزدهر في الأندلس قوامه القطن والعظلم(من القرن5-7هـ/11-13م)، "من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،الطبعة الأولى،1998.

279) محمد بركة، المعالجة التاريخية للحرف والصنائع بالغرب الإسلامي ،مقاربات منهجية ومعالم تجديدية، ضمن كتاب الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي(مقاربات لأثر المجال والذهنيات على الإنتاج) تنسيق سعيد بنحمادة ومحمد بركة ، تقديم عبد الإله بن مليح، منشورات الزمن، المملكة المغربية، العدد 76، 2016.

280) محمد حقي، الحج في المغرب والأندلس قي العصر الوسيط – الجدال حول استمرار فرضية الحج- مجلة عصور الجديدة، العدد 26- 2016-2017.

281) محمد الأمين ولد آنة، صور من التأثير المتبادل بين المسلمين وأهل الذمة، مجلة الوسيط، العدد 11، المعهد الموريطاني للبحث العلمي، الجمهورية الإسلامية الموريطانية، 2011.

الدراسات الاجنبية:

282- Antonio Almagro,Una nueva interpretacion del pacio de la casa de Contratacion del Alcázar de Sevilla, AL-Qantara, Revista de estudios arbes,Vol 28, N 1, enero-junio 2007

283-Cheikha , Jomaa , Silves(Shilb) Alongo de Historia Segundo as Fonts Arabes , Xarajib , N .2 , 2002 .

284-De Prémard Alfred louis , Guichard Pierre-Croissance urbaine et société rurale à Valence au debut de l'époque des royaumes de Taifas (XI siècle)-in : Revue de l'occident musulman et de Méditerranée –N°31-1961

285-Francisco Javier Simonet. Historia de los Mozarabes de España,obra premiada en publicico certmen de la La Real de Academia de la historia y publicda a sus expensas, Madrid, 1903- 1998.

286-Gilbert Meynier ,L’Algérie ,Cœur du Maghreb Classique :de L’ouvertire islamo-arabe au repli(698-1518) ,La Décuverte ,Paris ,2010 .

287-Lagardère Vincent – Campagnes et paysans d’Al-Andalus : VIII-XV- Maison neuve et Larose – Paris 1993.

288-Rachel Arié- « Aperçus sur la femme dans l’Espagne musulmane »

-dans Aspects de l’Espagne musulmane : histoire et culture – ed De brocard – Paris -1997.

289-Ould Telmidi Mohameden « L’esclavage entre le phénomène et le texte sublime : Analyse, discussion de l’œuvre d’Ahmed Baba Toumboucti ; OUSSOUR Aljadida-n10-2013

290-Pierre Guichard, Structures sociales « orientales et occidentales » dans L’Espagne musulmane, civilisation et societé, Mouton, Paris, 1977.

291- URVOYD, une étude sociologique des mouvements religieux dans l’Espagne musulmane de la chute du califat au milieu du XIIIe siècle, una mézcla de la casa de Velázquez – Madrid, 1972

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس: التمثلات الذهنية للعامة بين الواقع وافق التجاوز.

ملخص

تعد طبقة العامة من بين العناصر الاجتماعية التي تثير انتباه الباحثين في كل العصور، وعليه تطرقنا إلى مسألة البحث عن تاريخ " عامة الأندلس في العصر الموحدي " للكشف عن الواقع الاجتماعي لعامة الأندلس ضمن رؤية تاريخية، الهدف منها التطرق إلى مختلق القضايا المتعلقة بهذه الطبقة. حاولنا في هذه الدارسة الكشف عن علاقة العامة بالسلطة الحاكمة كما تطرقنا إلى ظاهرة التفاوت الطبقي التي مست المجتمع، و ما تعرضت له هذه الطبقة من ويلات الحروب و انتشار الفقر و الأمراض في أوساطهم، مما كان له الأثر البالغ في ظهور آفات اجتماعية خطيرة كالتسول و السرقة و انتشار سلوكات أخرى كمعاقرة الخمور و البغاء و ممارسة السحر وغيرها من السلوكات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية:

الطبقة العامة؛ عناصر المجتمع؛ التقسيم الطبقي؛ الباعة في الأسواق؛ الحرفيون؛ الأندلس؛ الموحدين؛ عامة الأندلس؛ الحركة الثقافية؛ الحركة الإقتصادية.

نوقشت يوم 02 جويلية 2018